شهرزاد الإنسية

١

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ ـ ديسمبر ٢٠٠٦م

٩ شارع السعادة ـ أبراج عثمان ـ رمسيس ـ القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl @ hotmail.com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

شهرزاد الإنسية

نوار الودغيري

مكتبة الشروق الدولية

البرنامج الوطني لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

الودغيري، نوار
شهر زاد الإنسية / نوار الودغيري
ط١ ـ القاهرة : مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦م
٢٤٠ ص ؛ ١٧ × ٢٤سم
تدمك : 5 - 09-1905 -977
١ـ المرأة في الأدب العربي
٢ـ المرأة في الفن
أ- العنوان ٨١٠,٩٠٣١

رقم الإيداع ٢٢٣٢٥ /٢٠٠٦م
الترقيم الدولي I.S.B.N. 977- 09-1905- 5

نوار الودغيري: naouare - oudghiri@ yahoo. com

مقدمة

إن كتاب «شهرزاد الإنسية» في مجمله عبارة عن تركيب من عدة أنماط من السرد والتأمل: الحكي، التسلسل الزمني، الشهادة، والسيرة الذاتية. يوحد بين كل هذه الأنماط شكل واضح ومباشر، يخضع إلى وتيرة منتظمة؛ وتيرة شخص مرهف الإحساس يمدنا بأسرار مشفوعة بتأملات وبدروس الحياة. إنه صوت يكلمنا ويثق بنا.

يجب أن نعير الانتباه إلى خصوصيات اللغة التي تكتب بها امرأة، شغوفة بطريقة للحديث، يمكن أن نسميها: «البساطة الأنيقة».

إن العديد من فقرات هذا الكتاب جيدة نتيجة لذكاء الكاتبة المتبصر. إنني أعتقد أن من يكتب، يبحث من خلال الكتابة عن الحقيقة، حقيقة ما. وإن الحقيقة في الفن خطيرة؛ لأنها تفرض على الكاتب إثبات معنى الإحساس أو التفكير بأكبر قدر ممكن من الدقة والجمال، ودون التستر وراء أسرار دفينة، يعلم الله أين؟. إن هذه الحقيقة بدورها استئناس بتناقضات الوجود وتقلباته.

لذا، فإن الكتابة لعبة جادة ومسلية في الوقت ذاته. يجب أن نعرف كيف نقول الحقيقة بأسلحة التفكير والحساسية النشيطة، على حد سواء.

من جملة ما تتحدث عنه نوار الودغيري في كتابها، الجسد النسائي في طبيعيّته وفي مجازيّته، الشيء الذي يتيح لها ولوج الإبداع عن طريق اللغة والصورة والدليل. إنها تصف بدقة المراحل المختلفة التي تمر منها الحامل وهي تستعد لقدوم المولود الجديد. وكأن الواقع والرمز يتماثلان بشكل تام. لن أناقش هذا التماثل، ولكن سأقول بأن هذا النوع من المؤلفات، يجعلنا نكتشف بعض خصوصيات حساسية الجسد النسائي وهو يجتاز عدة مراحل مسارية، متحملا المحن والآلام، من أجل بناء الحياة وإغناء تجربة الأم، على حد سواء.

حتمًا إن هذه المحنة مسارية؛ لأن هناك عدة درجات لتربية النفس والهُوية الذاتية، تتشكل شيئًا فشيئًا مع مجيء الطفل إلى الحياة. ذلك أن الطفل يقسم هُوية الأم، من خلال علاقة التحول والاستمرارية التي تربطه بأمه، والتي تنقلها من مفاجأة إلى أخرى. إنها تتلقى إذن، من خلال هذه الولادة، درسًا في بناء الذات والشخصية.

إنني أثمن كثيراً الصدق الذى تتحدث به المؤلفة عن ضعف وهشاشة الكائن النسائي، وأيضًا عن القوة والإرادة التي تحركه طوال هذه المحنة المسارية بولادة كائن آخر. وفي السياق نفسه، تمر الراوية بتجربة الكتابة، التي تنقلها إلى عالم الخيال، إلا أنه خيال مجسد في تجربة الحياة والفرح الخاص بحب الطفل، الذي يكتشف بدوره الحدث اللغوي.

وهكذا، لا تقدم لنا المؤلفة شهادة عن نفسها فحسب، وإنما أيضًا عن المناخ الاجتماعي الذي تعيش فيه. إنها تسافر بنا عبر البلدان والثقافات والمجتمعات. كما أنها تشاهد، تنصت، تلاحظ، تحلم، تحلل الذوات، وتتزود بدروس الحياة. فتدرك أن هُويتها النسائية وهُوية المرأة العربية متحولة. بهذا المعنى، فإن كتاب «شهرزاد الإنسية» معاصر، إذا نحن عرّفنا الحداثة على أنها ابتكار للمستقبل. ألم يصرح الشاعر الفرنسي لويس أرغون بأن «المرأة هى مستقبل الرجل»، أجل. سأضيف ما يلي: إن الطريقة المنسجمة لعيش العلاقة بين الواقع والخيال ليست في متناول أي إنسان كان، وإنما في متناول الذين واللواتي يستشرفون سر الزمن القادم.

د.عبد الكبير الخطيبي

٢٠٠٣/٨/٣١م

الاختبار

مثل الذِّكر الذي لا يستطيع المؤمن أن يحصي كم مرة ردده في حياته، كان السؤال : ألد أم لا ألد؟. ولم تزدني احتمالات الإجابة إلا حيرة وعجزاً عن تبين الرشد من الضلال. ولكن كيف أكون شقية إن ولدت، وأنا لم يشقني لحظة توديع أختي، سوى مؤاخذة ابنتها الحبيبة لي على فراقها، وهي لا تدري أنها سفيرةُ الأمل إلى قلبي؟. وكم أضاع عليَّ عتابها متعة احْتضانها مدة أطول، وكنا على عجل، ثم كان السفر، وزاده وصيتان اثنتان: الصبر والاختبار.

قبل أن أتوجه إلى العيادة، وقفت قليلاً أمام المرآة أستحضر خفة روحي ونضارة وجهي، لعلها تستميل الطبيبة، كي لا تحكم عليَّ، منذ النظرة الأولى، بأني حالة ميؤوس منها!. أكيد، لا توجد علاقة منطقية بين الانطباع والفحص المخبري، ولكن، هي أوهامي أتحايل بها على الخوف الذي يسكنني.

دعتني للجلوس، ونحن نتبادل الابتسام، وقد هدأ من روعي جمالها الهندي الذي زادته دربة المهنة تألقًا وثقة. لاحظت خلفها صورة بنت وولد، كأنهما اللؤلؤ والمرجان. أثنيت على حسنهما وحمدت الله أنها أم؛ لأنها لن تعقّد عليّ الأمور، حتى لو كانت معقدة. بدت لي المسافة طويلةً بين الاختبار والحمل والإنجاب وتربية الأولاد، فسرحت أسأل: هل من الضروري أن يضع الأطباء صور أطفالهم المبروزة فوق مكاتبهم؟، أليس لديهم أدنى شعور بالتعاطف مع مرضاهم سوى الاستفزاز؟!. ماذا لو كشفت التحاليل المجهرية عن عدم قدرتي على الحمل؟. وماذا لو كانت فتاة شقية جاءت تستغيث بمن يجهض أملها، ويستر خطيئتها قبل أن ترى النور، وإلا رأت ظلمة القبور؟. وقبل ذلك كله، ماذا لو كانت الطبيبة التي تستعد لفحصي الآن، تقرأ أفكاري؟!.

انتهزت فرصة ثانية للتودد إليها وهي تقيس وزني، فأثنيت على عطرها: «ماجي نوار» وأخبرتها بأنه عطري المفضل، فابتسمت راضية على ذوقنا الرفيع، رغم أني ما

عدت وفية لعطر واحد؛ لأني أجد من الضحالة والخسارة أن أقيد نفسي باستنشاق رائحة واحدة مدى الحياة!.

سألتني إن كانت لدي حساسية ما، فأجبتها وأنا أشعر بالتميز: «نعم، الحساسية ضد البنسيلين». مباشرة بعدما سألتني عن عملنا أنا وزوجي، سألتني عن بلدي. وكان من الضروري أن يفضي بنا الحديث إلى الطبخ المغربي الأصيل. وهناك انقضضت على الفرصة الثالثة للتزلف إليها أكثر وأكثر!. فقد أصبح عندي ما يؤكد لها بالدليل القاطع، أن ما يجمعني بها ليس مجرد صدفة، وإنما رابطة قوية، وربما أسرية، بما في الكلمة من وسع وانفتاح، حين ستعلم بأن طباختي هندية!. ولم أفطن إلى زلة لساني وخيبة كياستي، إلا عندما رأيت عليها أمارة الإحراج، وهي تواريها بابتسامة مهنية صرفة!. فعلمت أنني لن ألتحق بالسلك الديبلوماسي أبدًا!.

حتى الآن لم أحسم أيهما أسرع: سرعة الضوء أم سرعة الأفكار؟. فما بين لحظة ارتداء القفازين البيضاوين، وبين تمددي فوق السرير الأبيض، بياض الحقيقة المنتظرة، انهالت عليَّ الوساوس التي كنت أتحايل عليها، وراء المجاملات السخيفة والابتسامات الزائفة. وكان السؤال: هل أسلم أمري لله وأتوقع الأسوأ، أم لا يزال الدعاء مستجابًا؟. وقبل أن أدعي المقدرة على الجواب، وجدت أن الذي يحز في نفسي أكثر، ذلك الظن السيئ في السماء التي لا نتخيلها إلا موصدة، في اللحظة التي نقلب فيها وجهنا، بقلب ملؤه العوز والرجاء!.

استجمعت قواي وشجاعتي، كي ألتفت إليها، وإذا بوجهها يشي بالبشائر!. يا ألله، إنها تبتسم، في الوقت الذي كان بإمكانها أن تعذبني بأساليب التشويق المقيتة!. رددت عليها بابتسامة أحسن منها، ثم قالت: «رغم أن نتيجة الفحص لن تظهر إلا بعد خمسة أيام، إلا أنني متأكدة من أنها ستكون جيدة».

طرت فرحًا، فرحة نجاح لم أنجحه، وفرحة إنجاز نلته دون عناء. شكرتها بابتسامة عرضها السماء. تمنيت لها فرحة مماثلة. فكرت أن أهديها شيئًا جميلاً: عطرًا؟. قلمًا؟. بروازًا؟. لوحة؟..

ماذا تقولين: «هدية؟، يا لك من بلهاء! وما هي المناسبة يا ترى؟. ومن قال لك إنك غير قادرة على الحمل والإنجاب؟. وماذا فعلت لك حتى تستحق منك هدية؟!».

خرجت من العيادة وأنا أشعر بالثقة والأهمية. أخيرًا، أصبح لجسدي معنى. لو قدر لهذا الحدث العظيم أن يتحقق، فلن يمر دون أن يترك أثرًا جوهريًا في حياتي، بل سيكون منعطفها الأول.

ما الذي أستطيع فعله ويعجز عنه الرجال؟.

إنها التجربة التي كانت تنقصني؛ أم المغامرات وكبرى المخاطرات. ولكن متى أكون في عمقها؟.

***

٢٠٠٣/٩/٨م

استكبار

شاحبات، صامتات، منهكات، هكذا كنت أرى الحوامل. وقد نُقشت على وجوههن بُقع الكلف وانتفخت أجسادهن، وتثاقلت حركاتهن، وتمايلت مشيتهن ذات اليمين وذات اليسار، وتحولن في الشهور الأولى إلى مدمنات ما لا يمكن توقعه أو التنبؤ به. فيندهش أزواجهن لشهوات الوحم التعجيزية في غالب الأحيان، والتي تصبح وكأنها أوامر جني من ملوك الجن السفلي، بحيث إن تماطلوا أو تهاونوا في إحضارها، هُددوا بلعنة «أهل المكان»: ملوك الجان!.

شخصيّا، لم أكن أصدق تلك الجرعات الزائدة من الإعياء، وكنت أعتبرها مجرد تمثيليات، لاستدرار اهتمام الأزواج، أو لإخفاء الحيوية والطاقة التي يتمتعن بها، خوفًا من العين التي قد تتربص بالجنين أو بصحتهن الجيدة، فيجهضن في طرفة عين!. وهكذا يصبح تصنع حالة الضعف حصنًا حصينًا يقيهن من شر حاسد إذا حسد. لذلك بقي عالم الحمل والولادة غامضًا بالنسبة لي، أكاد لا أميز فيه الصدق من الكذب، الحقيقة من الزيف، خاصة حين كن يتبارين في وصف أهوال يوم المخاض، وكأنه عذاب يوم عظيم. بحيث تزايد كل واحدة منهن على وصف عذاب وآلام الأخرى، معتقدة بأن آلامها هي الأحق بالتقدير والمواساة، والأوْلى بالثناء على صبرها، ورباطة جأشها.

أما إذا كانت من بين المستمعات مراهقات أو شابات لم يُقبلن بعد على تجربة الحمل والولادة، فإنهن يتوعدن كل من شقلبت عينيها، ولاكت لبانها في فمها، لاهية ومعرضة عن أحاديثهن، بنيل ذات المصير عاجلاً أم آجلاً. وأنها إن تمادت في استخفافها، فإنها ستعاقب بالحمل بالتوأم!.

وكانت تبلغ تلك المشاهد ذروتها السادية، حين كنت أصحب أمي وأنا صغيرة لزيارة النفساء في يومها السابع، حيث طقوس العقيقة الغامضة، وروائح مختلف

أصناف البخور، بما فيها ما يُستعمل لفك السحر! . والتي كانت تصيب رأسي فوراً بالصداع النصفي، بمجرد أن أستنشق عبق الفاسوخ الكريه، والذي لم يكن ينفع معه علاج، سوى عمل سحري مضاد له، كي يخرج جني الصداع من رأسي! .

كانت غرفة النفساء تتحول إلى أشبه ما يكون بضريح ولي صالح؛ اختلطت فيه تعاليم الرحمن بأعمال الشيطان، فضلاً عن روائح الدفء النسائي الممزوج برائحة الحناء وماء الورد، والحلباء، وماء الزهر و«المساخن»[1]، التي كانت تحرص الأمهات العارفات على حث النفساء لاحتسائها، كي تسترجع اللون والعافية.

وفي غمرة الزغاريد المولولة، تنهض النفساء، متكئة على أمها أو إحدى صديقاتها، متأبطة بذراعها الثاني إحدى الحاضرات، لتطوف حول مبخرة الطقوس، وهي تترنح من الألم. فتشفق من حالها النساء، وهن يمصمصن شفاههن، ويُدرن رؤوسهن، متنهدات على كل ما لاقته في رحلة العذاب الكبرى. وفي ذلك السياق يفسح المجال أمام الأمهات، للحكي عن أهوالهن بقصد التخفيف عنها، عملاً بالمثل القائل: «المصيبة إذا عمت هانت».

كنت أتابع تلك الطقوس الكابية، وخوفي الأكبر يترقب اللحظة التي سأجبر فيها على تقديم التهاني والتبريكات للنفساء، التي كنت أتخيلها غارقة في حوض من الدماء، ولا يحجبه عن النظر، سوى تلك القفاطين السميكة التي ترتديها، أو حين أدفع دفعًا لتقبيل المولود الجديد، وهي المهمة الأشقى! .

كان يبدو لي ذلك الكائن الصامت في قماطه الأبيض، كأنه في كفن صغير، ينتظر أن تنفخ فيه الروح ويولد من جديد! . فأزداد حيرة وارتباكًا حين لا أعرف كيف أمسك به وهو ضعيف وهن، ولا أين أقبله؛ أفوق جبينه أم فوق إحدى وجنتيه، وكلها مهمات منفرة. وهل من جدوى لذلك إذا كان غائبًا عن الوعي، مغمض العينين؟. وحتى لو جاملت أمه وأنا أمدح وسامته، هل سيفتضح أمري وأبدو في نظرها مجرد منافقة صغيرة؟! . إلا أنني كنت غالبًا ما أكسر الحاجز النفسي وأجتاز عتبة النفاق الاجتماعي بنجاح! . لكنني كنت أفشل دائمًا في معرفة إنْ كانت النفساء قد تألمت

(١) حساء مكون من عدة توابل قوية النكهة، يعتقد أنها تساعد على الشفاء.

بمقدار ألم أمي، حين شق الطبيب بطنها. ذلك السؤال الذي لم أجرؤ على طرحه يومًا على أحد.

حين ودعت سنوات الطفولة، صرت أنتبه أكثر إلى تقلب حال النساء الفجائي من أمهات متجهمات، عابسات، لا يحكين إلا عن أهوال محنة الخلق، شاكيات من شقاوة البنين ومراقبة البنات، عاجزات حتى عن الاستمتاع بزينة الحياة، إلى نساء مجربات، مقتدرات، غالبات على أمرهن! . بحيث كنت ألمس فيهن قدرًا كبيرًا من الفخر والاعتزاز بالنفس، إلى حد الاستكبار والاستعلاء على نساء لم يُقَدَّر لهن الإنجاب. لا بل، أحيانًا، لم تكن تسلم من سخريتهن حتى التي أنجبت عن طريق القيصرية، سواء كانت مجبرة أم مخيرة، لتصبح ولادتها في نظرهن ناقصة، ما دامت لم تتذوق طعم المخاض المر. ويبقى النصيب الأوفر من استخفاف الأمهات، بمن زهدت في الزواج، أو بالفتيات المقبلات عليه، طالما لم يحملن ولم ينجبن بعد. ولا أنكر أنهن كن يفلحن في استفزازي، لدرجة أني سألت إحداهن يومًا، إن كانت تعتقد أنها الأنثى الوحيدة على كوكب الأرض التي أنجبت!.

بذلك السؤال كنت أحسم الأمر مع استعلاء أولئك الأمهات، إلى أن أخذتني الدراسة، ومن بعدها العمل، حتى ظننت أنني لن أكون معنية بذلك الاستكبار أبدًا، وكنت واهمة! أي نعم لم أخبره في مجمع النساء اللاهي، وإنما في حضرة إحدى زميلاتي في العمل. و ذلك بعدما سألتها ذات صدفة، إن كانت تمارس بعض الرياضات أو تتابع بعض الأنشطة الثقافية في المدينة. فقالت بما يكفي من نبرة الاستهزاء العاذر لجهلي: «بالتأكيد، أنت لا تفهمين وضعي؛ لأنك لم تلدي وليست لديك مسؤولية بيت وأولاد». واستغربت كيف استطاع جوابها الجافي أن يوقظ في نفسي تلك الحقيقة النائمة؛ وهي أنني لم ألد حتى الآن. فأحالتني رأسًا إلى مجلس الأمهات العامر بالكبر و الخيلاء.

لكنني، في الوقت نفسه، أدركت أن ذلك الجواب ما كان ليعرض بذلك الجفاء، لو لم تكن تضمر لي بعضًا من الحساسية إزاء نجاحي. فعلمت أن ما لم تقله كان هو الأهم!. لقد أرادت أن تزعزع ثقتي بنفسي وبإنجازاتي، وأن تفهمني بأن تألقي لا يساوي شيئًا أمام عودة ابنها من المدرسة وهو يرتمي بين أحضانها. وأنني طال الزمن أم

قصر؛ سأخير بين أمرين اثنين: إما المخاطرة مثلها بالغياب عن الشاشة، من أجل التفرغ للحمل والولادة، أو أن أكون ضحية الفكر والثقافة! . ولعلها كانت ترجح الشق الثاني من الاحتمال؛ لأنها لم تكن تعلم أنني قد قررت: أن لا إبداع بدون إنجاب. وإلى الجحيم يا أيتها الشاشة الآسرة، إن كنت ستحيلين حياتي حسرة وندمًا، لأنني قبل حتى أن أعرف لماذا أريد هذا الإنجاب، سأغامر كما تُغامر معظم النساء. ولن أسمح بأن أكون أقلهن شجاعة وإقدامًا! .

* * *

١٤/٩/٢٠٠٣م

حامل بتوأم

وحدهم الأطفال، كانت لديهم القدرة على سحبي في ضحكة واحدة، إلى عالمهم الساحر فأضحك وألعب وأفرح معهم من أعماق قلبي، وأنسى وضعي وعمري!. وكم كان يؤذيني جفاء الأمهات حين يضبطنني أتبادل الابتسام والاستلطاف مع أطفالهن وبناتهن، كما لو كنت أريد بهم سوءًا!. فيضطرون إلى إخفاء مشاعرهم خوفًا من غضب أمهاتهم. وكنت لا أفهم سر ذلك الصد، إلا حين يقترب الأزواج من مربع العمليات!. فآليت على نفسي ألا أنظر إلى وجوههن أبدًا، حتى لا تظن إحداهن أني أهفو إلى ابتسامة غير ابتسامة الطفولة!.

اليوم، ولله الحمد، أنا في حل من كل هذا العته!. لقد شاءت الأقدار ألا أعذب بالانتظار. فكل الدلائل والقرائن تؤكد لي صحة حملي. ولست حتى في حاجة لزيارة الطبيبة مرة أخرى، خاصة بعدما أحاطتني علمًا بأني سأحمل إما في شهري هذا وإما بعد سنتين. وها قد صدقت نبوءتها. فقد بدأت أشعر بكل الأعراض الأولية التي تصادف الحامل في شهرها الأول، تمامًا كما كنت أقرأ في الصحف والمجلات وأشاهد في المسلسلات: إقبال غير عادي على الأكل، وهي علامة صحية كي يتغذى الجنين جيدًا؛ إحساس بالغثيان، وهو ما لا يعرف الأطباء سببه حتى الآن؛ صداع نصفي، وهو مرضي الاعتيادي، والذي لا شك سيظهر ما يعادله عند الأخريات في شكل دوخة أو دوار أو إغماءة؛ انتفاخ في الصدر والبطن. أضف إلى ذلك أمارة أخرى، وهي أني لم أعد أطيق رائحة السجائر والعطور.

أف!. وأخيرًا سيكون لي رأيي الخاص في الحمل والولادة، دون منة أو تشويق من إحداهن!.

في البيت، كما في الشارع، بدأت أخفف من حركتي السريعة، وصرت أتعقل في مشيتي. أدوس على الأرض كما أدوس على البيض، بكل كياسة ورصانة، تلافيًا لأي انزلاق أو تعثر أو وقوع لا قدر الله.

أقضي معظم الوقت في تذكير سائق التاكسي بأن التأني من الرحمن، وأن أجر ضبط النفس وكظم الغيظ كبير عند الله، وأنه حيثما حل الغضب حضر الشيطان والعياذ بالله، وذلك تمهيدًا له وتحسيسًا له بالذنب المسبق، إذا ما فكر أن يشتم زميله، إن خبط سيارته سهوًا!. وذلك حفاظًا على سلامة السير والحمل معًا!. وإذا ما لمست فيه غلظة أو شدة؛ سألته عن أهله وعياله، مرورًا بتأنيبه على حرمان بناته من التعليم، وصولاً إلى دعوته للتأمل إن كان رضى قبيلة خان عنده أهم من رضى الله!. إذ كيف ستعرف ابنته ربها وهي تجهل قراءة كتاب الله؟!!.

أظن هكذا تبدأ العناية الحقة بالجنين، ولم أوت ذلك عن علمي وإنما بإلهام من غريزة الخلق والتكوين. فلا جري ولا ركض ولا أيروبيك ولا حمل أثقال أو تقوية عضلات بعد الآن، كما أوصتني الطبيبة. يكفيني حمل الثقل الذي ينتظرني.

لكن لا شيء سيمنعني من التخطيط للمشاريع القادمة، ما دامت مجرد تمارين ذهنية!. أما أول تاريخ يتبادر إلى ذهني فهو تاريخ الوضع. أنا الآن في شهر سبتمبر وهو في أبو ظبي يعادل شهرًا من شهور فصل الربيع في بلادي. في الحقيقة، كنت أتمنى أن يأتي المولود في شهر مارس الأمير أو شهر إبريل الأثير. لكن لا مانع إن وضعت في شهر مايو، لعله خير!. سأكون ساعتها مقبلة على إجازة الصيف، التي تتزامن مع نهاية الدورة البرامجية. وهي فترة مثالية للعناية بالمولود الجديد، وكافية أيضًا كي أكون جاهزة في شهر سبتمبر المقبل، لمواصلة مسيرتي التليفزيونية والإعلامية.

لكن شيئًا ما يجعلني أشك في نجاح هذا المخطط كما أبغي. فقد شعرت آخر مرة مع زميلي مخرج البرنامج، وهو يدعوني للتفكير في برنامج جديد، لا يقل مستواه عن مستوى «مبدعون»، بأني كنت فقط أسايره في الكلام، على غير عادتي، حيث أحسست أنه سيصعب عليَّ التوفيق بين الولادة وبين الجهد الكبير الذي يتطلبه مني الإعداد والإشراف على برنامج في مستواه. وشعرت لأول مرة أني أخطو خطواتي الأولى نحو الوراء، وأنني سأعلن انسحابي من الشاشة حتى إشعار آخر. لكني سرعان ما تجاهلت تلك الحقيقة الموجعة، وركَّزْتُ على ما هي أسلى، وذلك بعدما وَجَدْتُني أتواطأ مع نفسي؛ كلما رأيت أحدًا، قلت سرًا: «إني أعلم ما لا تعلم. فأنا مقبلة على أهم حدث في تاريخي: أنا حامل!. وحاملة أيضًا لسر لا يعلمه إلا الله!. سأظل أخفيه إلى أن يتضح الأمر!».

في الحقيقة، ما يربكني الآن أكثر هو ذلك الأمر الذي لم يكن في الحسبان: إنه انتفاخ بطني غير الطبيعي. والذي لا يمكن أن يكون مؤشرًا على وجود جنين واحد وإنما جنينين اثنين! . وأنا ما زلت لم أتقبل بعد فكرة التوأم: بضجيجهما، وعنايتهما وشخصيتيهما المتشابهتين. فبم سيتميزان إذا كانا نسختين طبق الأصل من بعضهما البعض؟ . ما الحكمة في رؤية الصورة نفسها حتى لو كانت جميلة؟ . ثم كيف سأوزع عليهما العطف والحنان بالتساوي؟ . وهل سأميل لواحد دون الآخر؟ . كيف إذن سأكون عادلة؟ . بصراحة، أنا مهيأة فقط لحب شخص واحد وليس اثنين. ثم ألا يزعج التوأم الآخرين بتلاحمهما والتصاقهما الذي يبدو مَرَضيًا، كأنهما متوحدان في عالمهما الخاص؟ .

هل سيقويان على فراق بعضهما البعض؟ . ألن يُزعج انسجامهما زوجيهما وأصحابهما؟ . وقبل هؤلاء جميعًا: ألن أشعر أنهما في واد وأنا في واد؟ . وماذا لو كانا ولدين؟! . اللهم لا اعتراض على مشيئتك. ولكن، إن كان لا بد من هذا التوأم، فاجعلهما بنتين الآن، قبل فوات الأوان! . أو على الأقل بنتًا وولدًا.

ولكن من ناحية أخرى، إذا ما نظرت إلى اللوحة من زاوية الرضى، ربما يكون هذا الحمل جامعًا مانعًا، بحيث قد يعفيني من التفكير في الولادة مرة أخرى. إذن الفكرة في النهاية، قابلة للاستيعاب والتكيف معها. لكن، حتى ذلك الحين، كيف سيكون شكلي، وكيف سيسع بطني الصغير جنينين اثنين، إذا كان منذ الآن يبدو منتفخًا، فكم سيبلغ قطره في نهاية الشهور التسعة؟! . وهل بمقدوري أن أستعيد رشاقتي، ويعود بطني إلى وضعه الأصلي، بعد وضعهما؟ . لمَ لا، ولماذا سأختلف عن الفنانات اللاتي يستعدن رشاقتهن بعد حملهن الأول والثاني؟ .

***

٢٣/٩/٢٠٠٣م

الباقيات الصالحات

سأركض وألعب وأقفز وأقع دون خوف أو إحساس بالذنب. لن يستعبدني هذا الحمل ولن يعكر صفو حياتي. لن أقضي سنتين أخريين من عمري في لهفة وانتظار. سأمضي في حياتي المهنية قدمًا، نحو مزيد من التألق والانتشار. رغم أن ما يؤسفني الآن، أني سأواجه أحقادًا مضاعفة، دون أن أستحق شرفها!، حين سيظن أعداء النجاح أني آثرت حياة الإبداع على الإنجاب، فيعضون أصابعهم من الغيظ، على آمال لم أخيبها لهم بمحض إرادتي!!.

أيُّ بحر كان سيسع خجلي لو كنت أخبرت أحدًا بحملي؟. ولكن، ممن أخجل إن كان خداعَ نفسي هو ما يخجلني الآن؟!. كيف خانتني أحاسيسي حتى فقدت القدرة على التمييز بين حقيقة الإدراك ووهم التخيل؟. وكيف استطاعت أن تقنعني خائنة الإحساس بأن ما يتراءى لي هي الحقيقة عينها؟.

لو لم تسعفني أختي بمعلومة ما يسمى بالحمل «الواهم» أو «الكاذب»، لظننت أن مكروهًا أصاب عقلي، أو أن حواسي تبلدت وصارت تخلط بين الحقيقة والخيال، المحسوس والمتوهم. الآن أفهم كيف يتوهم الناس بأن جنيّا يسكن أجسادهم ويحكي بأصواتهم. ولو كنت ممن يُسَلمون أمرهم للجن، لظننت أن جنية كانت تسكنني، فأحبطت حملي، أو أن عدوًا عمل لي عملاً!.

لقد أخبرتني أختي بأن من النساء من يذهبن أبعد من وهمي، بحيث تنتفخ بطونهن حقيقة، وتنقطع عنهن الدورة الشهرية، ويشعرن بآلام المخاض، وفي النهاية، لا حمل ولا خلاص!. وهذا ما أشارت إليه قصيدة الشاعر السوري عمر الفرا: «تسع تشهر»، بحيث توهمت بطلة قصيدته أنها حامل، وهي لا حملت ولا أنجبت، بل كانت عاقراً.

كنت فيما مضى، كلما ذكّرت نفسي بأنه آن الأوان لتعلم درس التسليم للأقدار، تخيلتني في حادثة سير أو داخل غرفة العمليات، كأقصى ما يمكن أن أتحمله، أو هذا ما

كنت أوهم به نفسي على الأقل. ثم أسألها في تحدٍّ معجز: ما رأيك في هذا الامتحان؟ أتقدرين عليه؟ وهل أنت مستعدة كي تثبتي صدق عزمك ونواياك؟ فأستحيي من ربي وأذكر دعاء أمي: «ربنا لا تخيرنا في أضرار». لكني اليوم، لست أفترض مكروهًا أو ابتلاءً أقيس به مقدار إيماني بالقدر، خيره وشره؛ لأني في عمق المكروه. ولا أعرف كيف غاب عني إدراجه في لائحة المكاره والمصائب المحتملة!.

على كل حال، لم يعد أمامي سوى التسليم لأمر الله؛ ولن أشغل نفسي بالتفكير في مشكلة افتراضية، لأقارنها بمشكلة حقيقية. قُضي الأمر، وأنا من الآن فصاعدًا عاقر، عليَّ فقط أن أضع مخططًا للتكيف مع حالتي الجديدة، لتجنب أعراضها الجانبية، مع قادم الأيام.

في بداية الأمر، يجب أن أواجه نفسي أولاً، أن أثنيها عن التطرف في الحقد على الأطفال؛ أتحاشى الذهاب عند الأسر التي يكثر فيها التفاخر بمواهب الأبناء الخارقة، وأن أبتعد عن كل شخص يذكرني بعقمي؛ لأنه بمجرد أن يشعر الآخرون بهول مصيبتي، حتى يتأهبوا للدفاع عن فلذات أكبادهم من نظراتي. وهذا ما سيدفعني إلى مراقبة كل سكناتي وابتساماتي وكلماتي، التي يجب أن أنتقيها بعناية حذرة، فلا أتلفظ بكلمة حتى أدير لساني سبع مرات، خاصة إذا كانت مدحًا أو نصيحة موجهة إلى أطفالهم. وهذا يعني أنني سأكون دائمًا تحت الأضواء والأنظار. وبالتالي سأكون في وضع غير مريح. وحتى لو أكثرت من الصلاة على النبي، وما شاء الله، وتبارك الله، سيتذكرون أني عاقر، وأن ما يحملني على ترديد تلك الكلمات المضادة للأذى، هو خشيتي على صغارهم من حسد عيني!.

لا.. لا.. لا.. هذا بالفعل وضع مرهق. يبدو لي أن الحل الأمثل هو أن أقر في بيتي، لا عين رأت ولا قلب توجع، وألا أرافق إلا من كانوا مثلي، أو أعتزل الناس تمامًا. ولكن، هل هناك عزلة أعزل من عزلتي؟.

بقي لي حل أخير، أو ربما ما قبل الأخير، قد يخفف عني حرقة الرغبة في الإنجاب: التبني!. ولكن من يضمن لي وفاء المتبناة؟. وهل سأخبرها في يوم من الأيام بأنها ليست ابنتي؟. وكيف سيكون وقع الصدمة عليها؟. وهل أستطيع أن أعيش مع بنت أجهل نسبها؟. أمر مربك، بل مدوخ. مجرد التفكير فيه يصيبني بالصداع

النصفي. وحتى لو كانت معروفة النسب، من سيضمن لي اعتراف والديها لي بالجميل، وعدم تأليبها عليَّ، حين تصبح ذات شأن؟. ألن يحنا إليها؟. ألن يتضايقا من حبها لي؟. وهل أصلاً ستبادلني حبّا بحب، ولن يصحو فيها، بين الفينة والأخرى، الحنين إلى ذويها؟. لا شك أنني سأكون بالنسبة إليها مجرد محطة في حياتها، لتتركني في نهاية المطاف.

كلا، لن أقضي حياتي في شقاء لأني لم ألد، أو لأني لم أحتضن ما يكفي وكما أبغي طفلة، تحول دائمًا بيني وبينها أم غيور، تستعجلنا الفراق، متذرعة بالخوف من إزعاج ابنتها لي!.

لن أنتحر، ولن يحملني أي هوى على الانتحار!. وُئدت البنات تحت لحى آبائهن، ولم ينتحروا. رُمي الرضع قرب المساجد، وما حرقت أم كبدها أو قتلت نفسها حسرة وألمًا. فلمَ الانتحار على ذنب لم أقترفه، وقدر لم أرسم خطاه؟. حتى زينة الحياة: المال والبنون، لا تعصمنا من الشقاء والأحزان. وإلا لما دُعينا إلى الحذر من فتنة الأموال والأولاد. لو كانت السعادة لا تقوم إلا على هذين العنصرين، لما عرف فقير طعم الأفراح ولا عقيم مسرات الحياة!. أمامي العمر كله للبحث عما هو أبقى خيرًا وأملاً..

***

٢/ ١٠/ ٢٠٠٣م

الكتاب المحتال

«كتاب محتال» هو حتمًا شعار المرحلة، وردٌّ على سؤال سري كنت قد دأبت على طرحه كلما قرأت تلك الأعمال الرديئة: «متى سيفهم هذا الغباء أني قادمة؟!». ولم أجد شعارًا يحرضني على الكتابة، ويخلصني من قوقعة غروري، أفضل منه. فلولاهُ لظللت أسيرة أحلام دعاة الكمال الأشقياء، الذين يقضون فصول العمر في انتظار وحي الكتابة المقدسة، مستنكفين مواجهة أدنى مشقة أو مذمة في سبيلها. مستخفين بأعمال غيرهم من الطائفة الأخرى، التي تقتحم الكتابة دون مهابة، إيمانًا منها بأن خير النشر عاجله!.

لا شك أن أقطاب هذه الطائفة الملهَمة، يدركون ما للاسم المطبوع من حظوة وسطوة على النفوس!. فهو حيثما طبع، سواء فوق ظهر الكتاب أو أسفل النافذة الأسبوعية، يُمكِّن صاحبه من ورقة مرور، تفضي به إلى نقطة العبور. ولأني لم أنشر كتابي حتى الآن، أخذت وقتًا طويلاً كي أفهمَ سر تملص زميلي من عمله ليلاً، بصفته منسقًا للبرنامج. وهو ما يقتضي منه، مرة كل أسبوع، التنسيق الهاتفي مع سائق المؤسسة أو مندوب علاقتها العامة، حالما يصل الضيف إلى المطار ومنه إلى الفندق، تحسبًا لأية مشكلة قد تعترض سبيله بعد منتصف الليل.

لقد اعتاد زميلي أن يورطني في النيابة عنه، فلا أسمع له صوتًا ولا حسًّا حتى يفاجئني صبيحة اليوم التالي، وقد تحين السياق المناسب لوضع كتابه بين يدي الضيف الجديد. موحيًا له بأنه مُعد البرنامج!. وبأن المذيعة قادمة لا ريب، في موعدها المحدد، ومعها الأفكار والمحاور، التي فهَّمها أثناء جلسات التدريب والتلقين!، منوهًا بإشارة خفيفة، إلى قدرتها على إدارة الحوار، لدرجة الإيحاء بأنها مُعدة البرنامج الحقيقية!. أما تفسير استئذانه بالانصراف بمجرد وصولها، فهو فقط مراعاة لمشاعرها المهنية، حتى لا يحرجها بوجوده الساطع أو يسرق منها الأضواء، فيبهت نجمها أمام الضيف!.

وبالفعل ما أن تمضي لحظات، حتى يتحقق السيناريو النبوءة! ؛ بالانضباط في الموعد وحزمة الأفكار والأوراق في اليد! . فيبتسم لي الزميل، ابتسامة من كان يأثم ويخاف أن تفضحه عيناه! . مؤكداً للضيف من جديد، وبالدليل الواضح، صدق إيحاءاته وإيماءاته ودقة معلوماته. وبأن الذي أنهضه من الفراش باكراً ليس الترويج لكتابه، وإنما الاطمئنان على سير الأحوال! . فأرد عليه بابتسامة لطيفة لا يعرف معناها، تصحبها انحناءة الرأس، ذات اليمين أو ذات اليسار، إيذاناً له بالانصراف، كاتمة في نفسي حالة ما بين السخرية والضيق، على ما استطاع أن يدبره ببراعة كتابه المحتال، دون أن يتورط فيه اللسان! .

لقد جعلني زميلي أنتبه إلى قدرة بعض الرجال على إضفاء هالة من الأهمية والجلال، حتى على أتفه الأعمال! . لذلك استطاع أن يستفزني ويثير فيّ مشاعر الغبطة وضرورة الاقتداء به! . فقد كان يحيل لحظة إهداء كتابه إلى لحظة تدشين أهم الإنجازات في تاريخ البشرية! . بحيث لم يكن الكتاب في حاجة إلى من يفتحه! ؛ لأن وجوده في حد ذاته قراءة وإبداع، طُعم وإغواء، اعتراف له بالسبق والتميز على باقي الزملاء والأهل والأحباب! . لذلك، كان يبدو كما لو كان تلميذاً جاء يتباهى أمام أترابه باللعبة الجديدة التي لا يملكها أحد سواه! .

مع مرور الأيام، اكتشفت أنه ليس في مقدوري دائماً إحباط كل محاولات السلب والاحتيال، طالما افتقرت إلى وسائل الدفاع أو الهجوم المُضاد، وأنه سيُخرسُني هول الاحتيال، مثلما أخرسني مشهد اللص وهو يجرب مفاتيحه في خرم باب منزلي! . فبعد الفكاك بالحسنى ممن كانوا يحاولون الاحتيال على لقب الإعداد، دون أن يقرؤوا سطراً واحداً، جاء من ينتحل برنامجي انتحالاً!، ولم يكتف، كغيره، باختلاس أو اقتباس بعض الأفكار والحلول الفنية لتحسين شكل برنامجه، بل نسفه نسفًا، منذ الطلقة الأولى! . بتفاصيله وفواصله ومفاصله، وأحيانًا بضيوفه! . وهكذا انتزع مني حق الامتياز، دون حق أو تفويض! .

وبدأت مكالمات المتابعين والمشاهدين تنهال على مسامعي، لتسألني إن كنت رأيت النسخة الكربونية لبرنامجي على القناة الجديدة. فأرد عليهم: «تلك هي ضريبة التجديد وغرامة التميز: الاشمئزاز من المقلدين!» .

لقد كان الأنكى من ذلك كله، تهليل وإشادة زملائه، أصحاب العواميد والقراميد والنوافذ اليومية والأسبوعية في بعض المجلات والصحف العربية، على ابتكاره وحسه الإبداعي العالي وعبقريته الفذة، في خلق أسلوب غير مسبوق، لعرض وتقديم هذا النوع من البرامج الثقافية، مما يخوله عن «جدارة واستحقاق»، أن يصبح نموذجًا يُقتدى به في الفضائيات العربية، بدلاً من أن يُندد مُندِّدٌ ببشاعة السطو والانتحال!.

ومن يدري؟، لعله صَدَّق كذب المنافقين وتواطؤ الصامتين!. وربما صدقه أيضًا بعض قرائه الطيبين، وهو يطل عليهم كل أسبوع، عبر نافذة مجلتهم الغراء، بوجهه الحزين، وكأنه راهب أمين!. فمن يخطر على باله أن للكتابة المحتالة أساليبها الخاصة في التمويه والمراوغة، بحيث تُغني صاحبها عن الاحتراق من أجل الإشراق، وتُؤَمنُ له سبيل الانفلات من شبهة الاحتيال، طالما وُجِدَتْ مصلحة بين رابطة قلم الرصاص وبين «نجوم» الشاشة.

قبل ثلاثة أسابيع، كان الدكتور برهان غليون، أول ضيف يحل على برنامج «مبدعون» في ختام سنته الرابعة، وقد اعتبرت اندهاشه الكبير، لكوني المسؤولة الوحيدة عن البرنامج، ثناء عظيمًا على جهودي، مما استدرجني إلى الإفصاح له عن رغبتي في تدوين بعض ما تعلمته من تجربتي المتواضعة، إلا أن ما يمنعني هو الخوف من اختلاس الأفكار وتبنيها أو حرق مصادرها، مثلما يحدث الآن في وضح الليل والنهار!. فأسدى لي نصيحة العمر؛ فيها الحكمة والرفعة التي تليق بأستاذ كرسي في جامعة السوربون. فقال ما معناه؛ إنني إذا كتبت كتابًا، ووضعت فيه خلاصة تجربتي وأسرارها بكل إخلاص وأمانة، سأصبح أستاذة. بينما سيظل الذي يقلدني أو ينقل عني تلميذًا ولن يصل إلى درجة الإبداع، وبالتالي فإنه لن يقضي على وجودي. ثم أضاف قائلاً: «ولنفرض أن مُقلدك وصل إلى مرتبة الإبداع، وساهم في التنوير ونشر المعرفة، أليس هذا ما نتمناه لمجتمعنا العربي؟».

أمام سمو نصيحته، خجلت أن أجادله في أمري أكثر. واكتفيت بالإشارة إلى أن هناك فرقًا بين كتاب ينشر، فيُلحق باسم مؤلفه، ويُوَثَّق بتاريخ سبقه وإصداره ودار نشره، وبين برنامج تليفزيوني لا تحفظ حقوقه الفكرية والإبداعية والفنية. لذلك، إذا ما توقف البرنامج الأصلي، سيبدو للمشاهد، ضعيف الذاكرة، أو الذي لا يزال يعتقد

بأن الثقافة رجل والتسالي امرأة، أن نسخة البرنامج المنسوخ والمنحول هي النسخة الأصلية!.

في النهاية، قد لا يكون العتب على هذا أو ذاك، وإنما على ثقافتنا الشفوية التي تعتمد على شطارة السَّطو مقابل شرف السَّبق. فلا يُسأل عن صاحب الفكرة أو مؤلف الحكاية أو مُبدع النكتة، وإنما عن آخر من رواها!. لذلك ستُمسي جهودي مجرد نكتة، مجهولة النسب!.

***

٢٩/ ١٠/ ٢٠٠٣م

الخطيئة والحقيقة

«سقطت الصومعة، علقوا الحلاق» مَثل مغربي شائع، يُدرج في سياق الحديث لوصف سلوك أو تصرف ما، إذا غاب عنه الحس المنطقي والعقلاني، لعدم وجود حلقة وصل بين الجملتين. لذلك لا يكتسب مثلنا طابع المعقول إلا إذا عرفنا أصل الحكاية التي أنتجته. وهي باختصار حكاية أحد حلاقي المدينة، الذي كان متيمًا بحب ابنة القاضي، لكنه لم يجرؤ على التقدم لخطبتها، لعلمه المسبق برفض أبيها.

وفي يوم من الأيام جاءه القاضي، بجلالة قدره، لكي يحلق له ذقنه. وكانت فرصة لا تعوض، انتهزها الحلاق للتعبير عن يأسه وغبنه. فأخذ يعاتب القاضي وموس الحلاقة يحاذي عنقه: «لماذا لا تريدون تزويج بناتكم لعامة الناس؟. ألا يمكن أن يوجد بين الرعية من هو أهل لها؟. ما الذي ينقص حلاقًا مثلي أن يتقدم لخطبة... ابنة.. القاضي؟!». وجعل الحلاق ينفعل وينساق مع أحلامه وهذيانه، ناسيًا أنه يخاطب حضرة القاضي، الذي لم يكن يعرف سر الصدفة الخرقاء، التي قادته كي يجلس فوق كرسي الاستنطاق، بين يدي حلاق أحمق!. لكنه أخذ يداريه ويسايره، واعدًا إياه خيرًا، إلى أن انتهت جلسة الحلاقة على خير. ولم يتنفس القاضي الصعداء، حتى خرج مهرولاً، وهو لم يصدق أنه نجا من حتفه بأعجوبة!.

أثناء عودته إلى منزله، التقى القاضي بأحد أعوانه الذي أخبره بسقوط الصومعة. وبينما هو مسترسل في حديثه عن ظروف وملابسات الحادث ومحاولة التوصل إلى هوية الجاني، قاطع القاضي كلامه، مدعيًا أنه يعرف مرتكب الجريمة النكراء و العقوبة التي يستحقها، فكان أن أمر فورًا بتعليق الحلاق!.

هكذا تنتهي حكاية الحلاق المتمرد، دون أن يعرف جنايته لحظة القبض عليه ودفعه نحو المشنقة!، ليكون ذنبه كذنب ذلك المذيع الوديع الذي تسبب في تطليق زوجة من بعلها الغيور، لمجرد أنه ضبطها وهي تشاهده يقرأ نشرة الأخبار، أو كتلك الفنانة المؤذية

بجمالها، المفرطة في إغرائها، التي لا تدري بأنها تضرم النار في قلب تلك المشاهدة الطيبة، التي لا تعرف كيف تطفئ شهوة زوجها، المشتعلة بهزاتها الشقية!، وربما كذنب ذلك الجنين الذي مات في بطن أمه، فخابت آمالها، دون حتى أن يبدأ مشوار الخطايا!.

رغم أن حنين الناس إلى بعضهم البعض يصل إلى درجة زهدهم في الجنة نفسها، إذا كانت خالية منهم، كما يقول المثل: «الجنة من غير ناس ما تنداس»، إلا أن وجود بعض الناس، سواء كانوا صورًا رقمية أو من دم ولحم، قادر أن يشكل إزعاجًا أو خطرًا على غيرهم، فيُشعل فيهم فتيل الحقد والكراهية، إما لإحساسهم بالنقص والضآلة، أو للخوف على مكانتهم عند الآخرين. شأننا في ذلك شأن معظم المخلوقات على وجه الأرض، منذ أن ضاقت بجدنا قابيل، بما رحبت، حتى لم يجد بدّا من تنحية أخيه هابيل، فارتكب أول جريمة قتل في تاريخ البشرية.

ولعل الإنسان وحده يملك هذه القدرة على الاستفزاز أكثر من باقي المخلوقات، لدرجة أن إبليس لم يتصدع كيانه ولم يتزعزع وجوده، إلا بعد ظهور آدم على الساحة!. فقد أحس بالتهديد وخطورة وضعه، رغم أن آدم كان مسالمًا، ومع ذلك لم يهدأ لإبليس جفنٌ، حتى كاد له وتربص به الدوائر، بهدف الإطاحة به وإزاحته عن طريقه. فانقدحت في نفسه كل الشرور، حتى صار الجحيم هو آدم بالنسبة لإبليس!. ليأتي «جان بول سارتر» بعده كي يشاطره الرأي، بعد آلاف السنين، حين قال قولته الشهيرة: «الجحيم هو الآخر!».

لكن آدم الذي كان على سجيته، والذي غابت عنه حكمة آخر الرسل والأنبياء: «**ويل لمن أشارت إليه الأصابع ولو بالخير**» لم يأخذ كامل حذره، ولم يفطن إلى أشرِّ الأصابع وهي تُشيرُ إليه، منذ أن وعى إبليس فداحة استكباره وكارثة عصيانه، التي كانت أكبر جناية يجنيها مخلوق على نفسه!.

أصبح إذن من البداهة بمكان، أن نعترف بأننا لا نعرف معظم الذنوب التي نرتكبها في حق أنفسنا، ولا في حق غيرنا، سواء كانت مقصودة أو غير مقصودة. كما وجب الاعتراف أيضًا بقصورنا البشري في إدراك وتقدير خسائر أفعالنا على أنفسنا وعلى غيرنا. وربما لهذا السبب، كان سيد الخلق، وهو المغفور له والمعصوم من الخطأ،

يستغفر لربه سبعين مرة في اليوم ، مما يدل على أننا نرتكب الذنوب والخطايا في حق بعضنا البعض مثلما نتنفس الهواء! . وهو ما يستلزم منا الاستغفار سبعين ألف مرة في اليوم! .

لكن وبالرغم من استحالة المهمة ، إلا أن استغفارنا لن يغني عن الحق والعدالة شيئًا ، طالما بقي مجرد إقرار بالذنب بين العبد وربه أو اعتراف بالخطيئة بين الأب ورعيته . وهكذا فإن جرائمنا تظل طليقة كالريح ، هاربة من قضبان الزنزانة ، ما دامت تنقصها الأدلة القاطعة لإثباتها! . أو بلغة القانون : تظل كاملة! .

عجبًا وعبثًا ، أن تطلب العدالة من المتهم أن يقسم على قول «الحقيقة ، كل الحقيقة» وهي تدري أن قسمه حانث! . خاصة أنه لا يعرف ، في غالب الأحيان ، أتفه الأسباب التي ساقته إلى قفص الاتهام . فكيف يقسم على حق أو يقول الحقيقة؟! .

ومن منا يزعم معرفة الحقيقة التي تكمن وراء الخطيئة؟! بل إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن نعرفه عنها ، هو أنها متجذرة في الأزل ، وممتدة إلى المستقبل ، أي منذ ارتكاب الخطيئة الأولى وحتى ارتكاب آخر الخطايا ، وأن ليست هناك خطيئة منفصلة عن غيرها ، أو لا تعود جذورها إلى شجرة المعصية . فهي الواصلة الموصولة ، الثمرة والبذرة . لذلك لا يمكن أن يكون البحث عن حقيقة الخطيئة إلا مستحيلاً ؛ لأنه يخوض في الدوافع والأسباب المرتبطة والمتداخلة في بعضها البعض ، بما فيها الآثام وكل ما أطبق عليه الاستغفار وطواه النسيان . فهي ، أي الخطيئة ، تتوسع كنقطة زيت فلكية على امتداد الزمان والمكان ، في عد تنازلي ، حتى تصل إلى أم الخطايا! .

لذلك هلك من حاول أن يبحث عن حقيقة خطيئته ، ليس فقط لأنه سيورط الأسرة البشرية برمتها في جرمه ، ولكن لعجزه وقصوره البشري عن إدراك ما وراء أبسط الذنوب وأصغرها وأخفاها ، حتى لو كانت الخطيئة الأم ، التي تبدو لنا معرفة أسبابها ودوافعها واضحة! . لأننا سرعان ما نشعر بالعجز أمام معرفة حقيقتها ، بمجرد ما أن نطرح ذلك السؤال البسيط : لماذا قرب آدم وحواء تلك الشجرة؟ .

هل للتحقق مما قيل لهما وأمرا به؟ . أم طمعا في الخلود في الجنة؟ . أم خطأ في تقدير الصادق من الكاذب؟ . . أم سببًا لإيجاد الجنة والنار؟ . أم لوجود علاقة بين العبودية والاستغفار؟ .

وهكذا وبالرغم من معرفة ذنبهما، أي «ماذا» فعلا، فإننا لن نعرف أبدًا «لماذا» قربا تلك الشجرة. فبالأحرى أن نعرف ما لا يعد ولا يحصى ولا يخطر على بال، من ذنوب وخطايا، ارتكبت منذ خلقهما، آدم وحواء، وحتى آخر الخلق!.

وما دامت الحقيقة مرتبطة بمعرفة الأسباب والدوافع الظاهرة والباطنة، وبالإجابة عن أداة الاستفهام: «لماذا»، أكثر من الإجابة عن غيرها من أدوات الاستفهام: «ماذا وكيف..؟» فإنه يتوجب على العدالة ألا تدفع المتهم الماثل أمامها إلى قول «الحقيقة»، وأن تبدلها بما هو أنسب للقسم العظيم!. على الأقل حتى لا يحلف على الباطل!.

لعل السؤال الذي يطرح نفسه الآن، بعدما اتضح بأن العدالة، حتى وهي تسعى لتحقيق ذاتها، فإنها تظل نسبية أو ناقصة أو عمياء، ليس بالمعنى الدلالي للكلمة، والذي يقصد به أنها تعطي لكل ذي حق حقه، دون تمييز بين هذا وذاك، وإنما بالمعنى الحرفي للكلمة، أي أنها لا ترى معظم المظالم الحقيقية. فكيف يمكننا أن نقتص من بعضنا البعض في ظل غيابها عن سطح الأرض؟.

سيناريو واحد وحيد قادر على تحقيقها؛ أولاً: إحياء الموتى منذ أول خطيئة وحتى موت آخر إنسان، للتأكد من أنه لن يجني على أحد من بعده؛ لأنه إذا بقي وحده سيسأم وينتحر!. وبذلك يكون الجاني على نفسه، حالُه كحال البشر؛ ثانيًا: إحصاء الذنوب صغيرها قبل كبيرها، عسى أن يكون هولُ ذنبٍ مثقالهُ ذرةٍ، كذنب ذرة هيروشيما!. وإلا كانت الحياة عبثًا وظلمًا.

أما نافل القول، فهو اعترافي بأنه لم يكن في نيتي، أن أبرهن على ضرورة وجود يوم الحساب، كي يضمن كل إنسان حقه في العدالة المطلقة!. وإنما هي الصدفة التي قادتني إلى حيث شاءت. وذلك حين وجدتني أتساءل عن الأسباب الحقيقية وراء إيقاف برنامج «مبدعون» فجأة، بعدما كان من المقرر أن يستمر على الأقل دورة أخرى، الأمر الذي اضطرني إلى إبلاغ عدد من الضيوف لإلغاء مجيئهم، وتذاكر سفرهم بين أيديهم!.

كما شاءت الصدفة أيضًا أن يتزامن خبرُ إبلاغي بإيقافه، مباشرة بعد اللحظة التي علمت فيها بأني حامل!. فلم أعرف هل أضحك بطعم البرتقال أم بطعم اللارنج. وهناك أطلقت عنان تحرياتي واحتمالاتي، وكانت خاتمة تجوالي أن اقتربت من معرفة «القاضي» دون أن أعرف جنايتي، تقريبًا مثل الحلاق!...

٢٠٠٣/١١/١٠م

قوة الاستنباط

«الولد ميكروب والبنت ميكروب!»، تلك كانت تعليمات والدي، يرحمه الله، عندما كنا صغاراً. فلا البنت ينبغي لها أن تدرك الولد ولا الولد ينبغي أن يدرك البنت! ولم تكن صرامة هذا الحكم العرفي نابعة من وحي اجتهاده فقط، وإنما من صميم بيئة اجتماعية كانت تحذر البنات والأولاد من الاختلاط مع بعضهم البعض، لذلك كانوا يرددون كلمات أغنية «الأولاد مع البنات، الله يخلي الأولاد، والبنات مع الأولاد، الله يخلي البنات» كلما حاول ولد أن يلعب مع مجموعة البنات. والعكس صحيح.

في بيتنا، كانت أفضل وسيلة لتنفيذ هذه الوصية الصارمة هي خلقُ مسكوت عنه، غامض، مجهول الهوية، لا ينبغي أن يُعرف أو يسأل عنه، وذلك بغرض إلغائه تماماً من قاموسنا المنزلي، حتى صار الأسلوب المتبع لإخفائه وإقصائه، هو ذاته الذي يشي به ويفصح عنه!. تماماً مثل الفزورة المغربية التي تقول: «لوعرفت ما في سلتي، أعطيك منه عنقوداً!».

رغم أن محاولة إخفاء حقيقة واضحة كالجنس، أو على الأقل ما يميز بين الذكر والأنثى، أشبه بمحاولة إخفاء الشمس بوشاح الحرير!. فقد شنت حرب ضروس على أحاديث النساء المائعة، حيثما وجد الصغار، بحيث لو زاغ حديث إحداهن عن الكلام المباح، أومئ إليها فوراً بالخوض في حديث غيره، حتى يؤذن للأطفال بالانسحاب السريع من المجلس، الذي تحول فجأة إلى مكان غير لائق ببراءتهم وطُهرهم، تاركين وراءهم صمتاً أذهله الحرص والإصرار على تحويل ما هو فطري وطبيعي، إلى ما هو نجس ومأفون!.

ولم تكتف المهمة الشاقة بإلغاء الحديث عن الحدود الفاصلة بين البنت والولد، أو ما يمكن أن يدور بين الرجل والمرأة في الخفاء، بل طالت أيضاً كل دلالاته ومعانيه

وإيحاءاته ورموزه، حتى وصل الأمر إلى حد منع تداول كلمة «حب»، ما دون حب الله والوالدين!، أو أي حديث عن المشاعر بين الجنسين، سواء كانوا راشدين في عمر السابعة والسبعين، أو أطفالاً في عمر الزهور.

لذلك أيضًا تم اللجوء إلى «مقص الرقيب» لبتر تلك المناظر الخليعة التي يُقبِّل فيها الرجل المرأة فوق خديها، أو يضع يدها بين كفيه، أو ينظر إليها نظرة دامعة، دافئة، مقززة «الله يستر!». فما أن نستشعر دنو مثل تلك الأجواء «المشينة» والمشاهد «المائعة»، حتى نتصنع الخوض في أمور أخرى، إذا لم يأذن السياق بأن نتبادل النظرات الساخرة والمستهزئة. أما إذا أذيعت أغنية عن الحب والغرام، أو شملت لازمتها على كلمة «حبيبي»، فإنها تقطع فوراً وعلى الهواء مباشرة، بنية المقاطعة الدائمة، بحيث ما أن يذيع المذيع عنوان الأغنية المحظورة، حتى يسارع من في الدار إلى إغلاق المذياع!.

في ظل هذا الجهل المنشود بالجنس والجنس الآخر، كان من الطبيعي أن أعتبر أي حديث أو سؤال عن الحمل والولادة أمراً محظوراً، إذ لا يليق بفتاة صغيرة و«متميزة» مثلي، أن تخوض في مواضيع منحطة كسائر الفتيات العاميات، أو النساء التافهات!.

وفوق ذلك، فإن قدوتي المُهابة والمحترمة، لا تسمح أبدًا للنساء الكبيرات بتداول تلك السخافات في مجلسها، وأنا نسخة من أمي، أفعل ما تفعل طوعًا واعتزازًا. وحتى لو سولت لي نفسي رفع الحظر عن السؤال، كيف سأخلق السياق المناسب، لطرح أمر محرم على امرأة عابرة، تعتبره هي الأخرى محرمًا على الأطفال؟!. أما لو كنت أعرفها، فأكيد سأخشى غضب أمي إن نبستُ ببنت شفة بما لا يليق بمقام ابنتها الصغيرة. بل لماذا أذهب بعيدًا، كانت أختي معي، ولم يخطر على بالي أن أسألها يومًا ذلك السؤال؟!.

هكذا حوصر الممنوع بتوليفة عبقرية، داخل أسوار صمته، حتى صار غير مرغوب!. وفي غياب السياق المواتي لمعرفة كل ما كنت أجهله عن أمور النساء، من حمل وولادة، توليت الإجابة عنه بنفسي، من خلال قدرتي «الفذة» على الاستنتاج والاستنباط. فلم أكن في حاجة كي أسأل كيف يولد الأطفال، أو بالتحديد كيف يخرجون من بطون أمهاتهم إلى العالم؛ لأن الجواب بسيط جدًا، ولا يحتاج إلى

الخيارات الثلاث! . فالجنين بكل بساطة، يخرج بشكل طبيعي، من بطن أمه، مثلما خرج الجنين من بطن أمي! .

لم يتغير هذا الاعتقاد حتى شاءت الصدفة المحضة أن أتطفل على أسماء، وهي تتحدث مع إحدى زميلاتنا، بقصد تصحيح معلومة خاطئة، نفذ نشازها إلى سمعي، فكان لا بد أن أغير المنكر بلساني! . وكان مفاد المعلومة أن إحدى قريباتها، ولدت ولادة طبيعية، بحيث لم تضطر إلى إجراء القيصرية. فسألت أسماء إن كانت صدقًا لا تعرف كيف تكون الولادة الطبيعية الحقة؟! . فأجابتني مستهزئة: «أتظنينني ما زلت أرضع إصبعي؟». سألتها مرة أخرى بعد أن استفزتني جسارتها: «وهل من طريقة أخرى للولادة غير البطن؟». فردت متحدية، ظنّا منها أنني ما زلت أتهكم عليها: «طبعًا، من تحت!».

صرخةُ آهي المدوية، التي أغضبت أستاذ التربية الإسلامية، وكادت ترمي بي خارج الفصل، ما زالت ترن في مسمعي حتى الآن، وتذكرني بأولى صدماتي المعرفية! . أما أسماء، فلم تكن تدرك وقع علومها الفتاكة على هشاشة جهلي، وكانت فقط تريد أن تتأكد بأنني لن أقاطع حديثها بتدخل جديد، كي تُخبرنا بخطبها الذي كان يقض مضجعها. وكان بحق كذلك، لأنه سيمهد، من جديد، إلى ثاني صدمة معرفية في حياتي! ، وذلك بعدما أعربت لنا عن عميق أسفها وحرجها في إحدى العشيات، وهي تفتح غرفة جارتهم العروس دون استئذان، في الطابق السفلي، ظانة أنها بمفردها، فإذا بأسماء تراهما كما ولدتهما أمهما! . قلت: «عاريان، وماذا كانا يفعلان؟!» لم تُعر أسماء اهتمامًا لبلاهتي المعتقة، وإنما أضافت معلومة أنكى: «لقد كان فوقها!».

ما كانت صديقتي لتفهم بأن سر صدمتي وسبب دهشتي في ذلك اليوم المشهود، راجع إلى تعريض كل مسلماتي ومعتقداتي إلى هزات عنيفة، قلبتها رأسًا على عقب وبكل المقاييس، دون أن تدري! . لذلك لم تصدم مثلي، وإنما شعرت فقط بشيء من الحرج، لعدم استئذانها قبل دخول الغرفة، يوازي شعورها قدر معقول من المؤاخذة للعروسين الجديدين، اللذين لم يأخذا حيطتهما، قبل أن ينجرفا مع شهوتهما، التي أنستهما إقفال باب الغرفة من ورائهما. ولو كانا تحليا بشيء من الصبر والتعقل، لما أحرجا بنت صاحب البيت، بوضعهما المخل للآداب! .

بقدرة قادر تحولت أسماء من حالة الإحساس بالذنب إلى حالة الإدانة؛ ذلك لأنها كانت تقف على أرضية صلبة، ومرجعية ثابتة من الحقائق والمعلومات والأحكام العرفية والاجتماعية، متمكنة من أدواتها المعرفية، تصول بها وتجول كيفما تشاء. فيما كنت أنا أسبح في ملكوت الجهل والعمى، حتى ظننت أن أقصى ما يمكن أن يدور بين الزوجين، هو تبادل القبلات، مثلما نرى في المسلسلات «الخليعة»، أو في حفل ليلة الزفاف، حين يطلب من العروسين أن يتبادلا القبلتين! . ولم يكن يخطر على بالي أن تكون هناك، على وجه الأرض، علاقة بين رجل وامرأة، تستدعي منهما أن يتجردا من ملابسهما أساسًا!!! .

قبل أسماء، التي كانت تصغرني بعامين والتي تزوجت بعد ذلك الحادث بثلاث سنوات، وهي لم تتجاوز الخمسة عشر ربيعًا، كنت أتخيل أن العلاقة الجنسية بين الزوجين، تتم عن طريق وضع الخاتم! . وقد استنبطت تلك «الحقيقة» من أحاديث الفتيات «الكبيرات» عن العرسان الجدد، حين تخبر إحداهن الأخرى بأن فلانًا دخل بفلانة؛ فتسألها الثانية: «وكيف عرفت؟». فترد عليها: «طبعًا؛ لأنه وضع الخاتم في إصبعها!»، أو حين تقول الأخرى: «إن فلانًا دخل بفلانة وهي حامل». فأستنبط من كلامها، أن الحمل يتم عن طريق إدخال الخاتم في الإصبع! .

هكذا كنت أؤمن رصيدي من المعلومات حول المحظورات، دون منة أو صفعة من أحد! .

***

٢٧ / ١١ / ٢٠٠٣م

الكابوس

صحوت هذا الصباح على بقايا كابوس كاد أن يطبق على أنفاسي، فقد رأيت فيما ترى النائمة أني أستيقظ من حالة التخدير الشامل، بعدما أجريت لي القيصرية. وكانت أختي عند رأسي، تخبرني بأني أنجبت ولدًا اسمه: «زُبَيد». ولا أدري من أين أتيتُ بهذا الاسم. وأنه أبيض البشرة، وقد وُهبَ نصف الحسن!. فسرني بعض الشيء ما بشرتني به. وكانت أول حركة قمت بها هي محاولة لمس مكان الجرح. لقد كان بطني ضامرًا. لكنه مسور بضمادات. فعلمت داخل الحلم أني لا أحلم. وأن ما أنا فيه، هو عين اليقين. وأني أخيرًا وقعت في الجرح الذي طالما أرعبني، لدرجة التفكير في إلغاء مشروع الإنجاب برمته.

لم أصحُ من النوم والدموع في عيني كعادة بعض الأحلام المزعجة، وإنما مصطكة الأسنان، متشنجة اليدين، لا أجرؤ على تحريكهما صوب الجرح. صامتة، متسمرة في فراشي. أرفض أن أواجه مصيري الجديد، خشية أن يصيبني مكروه في رأسي، أو شلل في أحد أطرافي. ورغم أن حالة الفزع لم تستغرق سوى ثوان، إلا أني خلتها دهرًا!.

على مر السنوات والأعوام، بقيَ احتمال خضوعي للقيصرية هو رعبي الأوحد في حياتي، حتى صار، في حالات الرعب القصوى، مقياسًا لنجاحي أو فشلي في الحياة. وكم كان ولا يزال يدهشني حديث النساء عن القيصرية بأريحية دون خوف أو فزع منها، وكنت أظن أن رعابي طبيعي عند كل الفتيات والنساء، حتى كاد ينسيني ميراث طفولتي وسرَّ اختلافي عنهن.

كنت شديدة التعلق بأمي، أفارقها لحظة ذهابها إلى العمل على بكاء، وأستقبلها على بكاء. ولا يزال في مسمعي صوتي المتوسل إليها كي لا تتأخر. لقد كانت شغلي الشاغل، مداري وكوني الذي أسبح فيه، لا سؤال إلا عنها، لا فرحة إلا بها ومعها، ولا خوف لي في الدنيا إلا أن يصيبها مكروه، حتى أقصى هذا التعلق من عقلي، كل

مهارة أو مقدرة على التفكير في شيء لا يخصها أو لا يعني علاقتي بها، بحيث لا أذكر أنني طرحت تلك الأسئلة النيرة والعبقرية التي تعود الأطفال النبهاء أن يطرحوها على آبائهم وأمهاتهم، فيربكونهم إرباكًا، والتي تنم عن ذكاء ووعي مبكر بالذات والوجود.

كنت أقضي يوم سفرها في انتظارها. أجلس فوق الشباك المطل على الشارع، حتى أكون أول من يحمل بشرى عودتها ويستقبلها بالأحضان والقُبل الحارة. ويوم أدركت أن الموت هو المفرق الوحيد بيني وبينها، ارتأيت حلين للمشكلة: إن ماتت أموت معها؛ وإن مت تموت معي. وحين أسررت لأختي بما يدور في رأسي، سألتني معاتبة، وكأن احتمالي واقع لا ريب: «ونحن؟». وبقيت كلتانا في حيرة من أمرها، تفكر في مصيرها إذا ما رحلت أمها عنها.

فوق هذا الولع الجنوني، كنت أخشى على أمي مما هو أشر من الموت: المرض، والذي كانت تواجهه بمطلق الاستسلام! . ولأن كل الأمراض عندها سواسية كأسنان المشط، كنت في كل مرة أتوقع ما هو أعظم . . لا قدر الله، وحتى في الحالات التي كانت تجتاز مرحلة رهاب المرض الرهيب، لم أكن أسلم من الشعور بالذنب إزاء المرض المقيم في جسدها، إثر خضوعها إلى القيصرية؛ لأني أنا من أقلب عليها المواجع بشقاوتي وشغبي وإزعاجاتي، ناهيك عن الأسباب والمُسببات الأخرى، من نزلة برد أو إعياء أو رفع أثقال، إلخ . . .

هكذا صار جرحها تجسيدًا للمرض المزمن. وبحكم التعلق، انتقلت إليَّ عدوى مرض الخوف من المرض. ومن سوء حظي أني كنت أسمعها تردد بين الفينة والأخرى: «من خاف من شيء سُلط عليه» وكنت أظنها آية قرآنية! وبالتالي كنت أعتقد أن من يتوعدني شرّا، لن يخلف وعده، فأزداد خوفًا على خوف، ليس تمردًا وعصيانا، وإنما خوفًا من الخوف!.

حتى عهد قريب، كنت لا أطيق متابعة البرامج الإذاعية والتليفزيونية التي تُعنى بالصحة والأمراض. وما زلت حتى الآن أتجنب من يتلذذ بسرد تاريخه المرضي، ويتفنن في وصف ظروف وملابسات خضوعه لأية عملية جراحية كانت. فما أن يبدأ بالسَّرد حتى أصاب بما يشبه الدوار المصحوب بتصبب العرق وارتجاف الأطراف.

لم تكن ضريبة التعلق بأمي الخوف فقط من القيصرية، وإنما الاعتقاد الراسخ بأنْ لا ولادة بدونها!.

هذا المساء، حدث ما يسمى بالتخاطر بيني وبين أختي. فقد اتصلت بي لتخبرني بأنها تدعو لي كي تكون ولادتي طبيعية؛ أولاً: لأنها تعلم حالي؛ ثانيًا: لأنها رأت بأم عينيها كيف استعادت الفيليبينية عافيتها بمجرد أن أنهت عملية المخاض وعادت إلى سريرها، وكأنها سيدة أخرى ما حَمَلت ولا ولدت. فرجوت الله أن يسمع دعاءها ودعائي. وما إن أنهت حديثها الهاتفي، حتى دخلت في كابوس جديد، أصارع الأطباء من حولي، وهُم يجبرونني على إجراء العملية «الانتحارية»، وأنا مطوية على بطني المسيج بيدين من حديد، أصرخ فيهم: «اقتلوني، أو أذيقوني ما طاب من العذاب ولأيام غير معدودات، ولكن لا تبقروا بطني!».

***

١/ ١٢/ ٢٠٠٣م

الـوحـــم

«قوتي خائرة. يداي ترتعشان. تتلاطمني موجات من الأوجاع الجديدة، بين الفينة والأخرى. دوخة أو ما يشبه الغثيان». هكذا وصفت حالي لأختي قبل يومين حين اجتاحتني لأول مرة أعراض مرض بدون عنوان. فأخبرتني، والأسف يسبقها، بأنها حالة تدوم لا محالة ثلاثة أشهر، ليس أقل من ذلك. فعلمت أن ما أصابني وحمٌ، أو ما كنت أظنه فرية الحوامل، ابتدعنه من أجل استرعاء اهتمام الأزواج.

فوالله لا هو كذبة ولا دلع، أو اشتهاء فاكهة مستحيلة، وإنما هو مصاب جلل، يحط فجأة على الذات كالإعصار. لا راد له إلا أجله المعلوم، ولا عاصم منه إلا الصبر. وجع بلا جرح. لعله وجع التكوين، أو هكذا كانت تحس الأرض وهي تواجه محنة الخلق؛ غليان لا يفتر من التفاعلات الكيماوية، والتحولات الهرمونية المزعجة، تكاد تراها وهي تسري كالسم في الجسد الملسوع. ولا سبيل للفرار من الذات، فيصبح الشعور الطبيعي والاعتيادي هو الإحساس بالضيق والاختناق والتوتر والغثيان، أي كل ما لا ينفع معه دواء. وحتى لو نفع، لا يمكن للحامل المسؤولة أن تعرض جنينها إلى سم العقاقير على مدار الساعة. إنها حالة من عدم دوام الحال بامتياز، بحيث لا تدري إن كان حالها سيزداد سوءًا أو سيستقر على حال.

إذا كان هذا ما يفعله مفعول المخدرات في الجسد والرأس، فإني أسأل الله أن يكون في عون المدمنين؛ لأنهم حتمًا في شقاء عميم!.

من أجل هذا يتغير طبع الحامل خلال شهور الحمل الأولى، لذلك فإن أدنى إزعاج لها أو اختلاف معها في الرأي، كفيل بأن يفسد للود قضية. فجأة ترصد أفعال وأقوال الآخرين بالمجهر، لا بالعين المجردة. فتبدو الهفوات الصغيرة وكأنها جرائم كبيرة. فتحتد كآبتها ويضيق مزاجها. وهذا بدوره يجعلها في حالة مستمرة من تأنيب الضمير أو الإحساس بالذنب، إن أساءت المعاملة، ولم تعد قادرة على كف شرها عن الناس.

وفوق هذا وذاك، قد لا تجد من يعنيه فهمها واستيعابها! . وإن وجدت، فكيف تعبر بدقة عن حالات متقلبة تستعصي عن الوصف والتعبير؟ .

سيكون من الإجحاف بمكان، أن نطلب من المتوحمة الاعتدال في أقوالها وأفعالها، أو الالتزام بالهدوء وضبط النفس. أوليس على المريض حرج؟ . وهل بمقدور من تجرع مخدرًا، عدواني المفعول، أن يتصرف بشكل طبيعي؟ .

أما عن حالي، فقد لاحظت أنني ما عدت أطيق بطء نيمي، الطباخة الهندية. وصار طبعها الهادئ مصدر توتري، كلما اشتعل بركاني فوق جليد هيمالاياها. تمشي ببطء، تتنفس ببطء، تجيبني وهي تراقص رأسها يمينًا ويسارًا ببطء، رغم أني في الأحوال العادية، أفضل التعامل مع الأشخاص الهادئين.

لكن من يدري؟ قد يكون هناك سبب آخر غير البطء، الذي أبصرته فجأة بمجهر الوحم، هو الذي جعلها لا تطاق في نظري. كأن يكون الطبخ الهندي، الذي كنت أعشقه وصرت أكره رائحته كغيره من الروائح القوية، من عطور ومطهرات وزيوت. وربما يكون ببساطة، جنِّي الوحم ذاته، الذي فجأة يملي على المتوحمة أن تميل إلى هذا دون ذاك! . خاصة أنَ سلوكي ومعاملتي مع المساعدة الإيريترية لم يتغيرا! . وهذا ما جعل نيمي تشعر بالغبن، حتى أجهشت بالبكاء ذات زوال، كطفلة تنتظر من يُراضيها. فعانقتها، وقد أثرت في نفسي بالغ الأثر، آسفة، على كل ما بدر مني، عن غير قصد. ولم أدعها ترحل، كما شاءت، حتى تأكدتُ أنها سامحتني. وودعتها على أمل اللقاء بها ذات قدر، وأنا أقول في نفسي: «لو كنت تدرين أن ما بي وحمًا، لعذرتني أكثر».

بعد رحيل نيمي، ازددت يقينًا بأن مزاجي الناري لا يشتعل فقط في الحقول المجاورة أو البعيدة، وإنما أيضًا في حقلي الداخلي! . لقد تحولت إلى كتلة من التناقضات، حتى بدأت أفقد حس التمييز والتقدير. وقد يعود ذلك إلى موجات الكآبة التي تتسلل، بين الفينة والأخرى إلى أعماقي، لتصل الحالة الوحمية إلى ذروتها. فقد بدأت أشعر بعدم القدرة على تذوق فرحة الحمل، هذا الحدث العظيم الذي انتظرته بفارغ الصبر. الآن لا أوفيه حق قدره من الحفاوة والابتهاج! . ربما لأنني لم أجد من يشاركني فرحتي، أو لأني أخاف ألا تكتمل أساسًا. أو ربما لأنني ما زلت حتى الآن،

أصحو على أمل أن يكون ربي قد رفع الضر عني. وهذا يعني أنني لا أزال مصرة على مقاومة الاستسلام لحقيقة الوحم.

قبل أيام، وأنا أشاهد الدكتور إبراهيم الفقي، وهو يتحدث عن أهمية التواصل مع الجنين، مُشيداً بقدرته على الإحساس بنبض أمه ومعرفة أحاسيسها، حمدت الله فوراً لكونه لا يعلم ما يدور برأسي! وتساءلت: كيف يمكنني الدخول في حوار معه وأنا، أولاً: لا أشعر بوجوده أساسًا!؛ وثانيًا: لا أعرف الطريق الذي سيُفضي بي إليه؟!.

في النهاية، قد أوفق، في إشراقة ما، إلى تلمس الطريق لبعض الأجوبة، لكني حتمًا لن أقدر على فك شفرة ذلك الغموض وذلك الصمت المريب الذي يبدو لي الآن، كما لو كان متعمداً من قبل الأمهات، حتى يوقعن من هن على درب الأمومة، في شرك الوحم الماكر!.

لقد غُرر بي، حين انتظرت بشوق تلك اللحظات الحالمة التي ستتنزل عليّ فيها نفحات الأمومة العطرة، متوقعة أن تحلق بي في رحاب ملكوتها الناعم، وجناتها الغناء. فما وجدت إلا عكس ما كنت أوعد به!.

***

٧/ ١٢/ ٢٠٠٣م

شهرزاد الإنسية

كنت أتأمل في منافع ضرب النساء في الثقافة العربية والإسلامية، حين بدأت أشعر بإعياء شامل، حال دون مواصلة التفكير في هذا الموضوع وغيره من المواضيع والأسئلة التي سيتفضل بالإجابة عنها المفكر الإسلامي المتنور الدكتور محمد سليم العوّا، والتي من المحتمل أن تصل إلى أيدي القارئات والقراء في يوم من الأيام. ولست أدري لماذا خطر على بالي شراء كتاب «ألف ليلة وليلة» بالتحديد، ترويحًا عن نفسي من عبء التفكير، لأترك نساء معرضات للضرب، كلما اقتضى الحال، وأقبل على امرأة مهددة بضرب عنقها كل ليلة!.

لم آخذ قط قراءة «ألف ليلة وليلة» مأخذ الجد، بل كنت أقبل على قراءتها بهدف السخرية، بحيث يكفي أن أمسك الكتاب بين يدي، لأضحك، أولاً وقبل كل شيء، على نفسي، ثم أضحك على حكايات عافتها السذاجة وانتهت مدة صلاحيتها منذ قرون!.

لكني في هذه المرة، ورغم أني كنت أبحث عما يسليني، استوقفتني كلمات، وكأنها أبيات شعر، كان يرددها أحد أبطال شهرزاد، وهو يواجه المأساة قائلاً: «سأصبر حتى يمل الصبر من صبري، سأصبر على ما هو أحر من الجمر وأمر من الصبر»... إلخ. وقبل أن أنهي قراءتها تذكرت فوراً أنه سبق لي أن شاهدتها مكتوبة على أحد جدران مخيمات الشتات. وكنت قد اخترتها من جملة المشاهد والصور التي أخذتها من أفلام المخرج الفلسطيني إياد الداود، بهدف تبليغ، ولو لمحة خاطفة، عن معاناة الشعب الفلسطيني الحبيب. وتساءلت حينها: «من يكون هذا الصبور العنيد الذي يتحدى ما هو أمر من الصبر، كي أحفر اسمه فوق الصخر؟». فإذا به الشعب الفلسطيني ذاته، الذي يجسد عذاب الإنسان فوق الأرض.

بالتأكيد «الصبر هو الامتحان»، كما قال الكاتب الروائي جمعة اللامي، على لسان أحد أبطاله في إحدى رواياته. ولا شك أنه شعار كل امرأة حامل؛ لأنها تمر من محنة

الحمل. وهو حمْلٌ يتطلب صبراً على أصناف جديدة من العذابات والمكدرات والمنغصات، لم تعهدها من قبل في حياتها. وصبراً على مواجهة الخوف الذي يسكن ذاتها، وقادم الأيام، على مدى تسعة أشهر، لحظة بلحظة. وهكذا تصبح كمن جزرتها الأمواج وتاهت بها عن الشاطئ، ولم تعد أمامها سوى منارة واحدة في الأفق، تلوح لها بفرصتها الوحيدة في النجاة. لكنها بعيدة، والطريق إليها حافلٌ بالطحالب والأشواك. فلا هي قادرة على العودة من حيث انطلقت، ولا هي قادرة أن تستعجل الوصول. إنها في الشرك إلى ميقات يوم معلوم، وليس أمامها سوى الصبر والانتظار.

لست أدري، وأنا أتدبر في صبر الحامل، كيف انتبهت فجأة إلى أن شهرزاد أيضًا كانت تواجه محنتها بالسلاح نفسه! . وتبين لي، ولأول مرة، أنها كانت تعيش مأساة حقيقية. فقد كانت مهددة بالموت كل ليلة. والفتنة أشد من القتل. لذلك كانت تصبرعلى ما هو أمر وأشد من الصبر! .

رغم أنني واصلت القراءة بهدف مصادفة «عقدة» ينفرط لها قلبي من الضحك، إلا أنني وجدتني منساقة ومدفوعة، على غير العادة، للتأمل والنظر في عالم شهرزاد السري دون غشاوة أو حجاب. وشيئًا فشيئًا، بدأت أكتشف بين السطور والحكايات، خفاياه وهي تسفر عن حقائق ووقائع تقطع الشك باليقين والخيال بالحقيقة. حتى لم يعد يحجبني عن شهرزاد الحقيقية وشهرزاد الخيالية، سوى ما يحجب عالم الإنس عن الجن! .

حتى هذا اليوم المبارك، كنت أتخيل شهرزاد كما تخيلتها ريشة الفنان، إن في الشرق أو في الغرب، طيلة القرون الماضية، وحتى الآن. وأيضًا كما تخيلها الحالمون بها هيامًا وشغفًا، أو الحالمات تيمنًا وأسوة بها! .

صحيح أن لكل واحد منا شهرزاده الخاصة، ولكن هذا لا يمنع من وجود قواسم مشتركة بين كل الحالمين بها! . فلا شك أنها كانت بديعة الحسن والجمال، تنثر عبير النضارة والصغر، خصرها نحيل وردفها ثقيل، جيدها طويل، وقدها مياس، نصف شعرها تفرشه والنصف الآخر تتدفأ به! . أنفها كالريشة وعيناها كالكأس، بشرتها حليب وضوء قمر، أسنانها لؤلؤ منضود، شفتاها كرز أو حب الملوك، نهداها رمانتان، دون سيلكون! . قدماها لم تبدع أجمل منهما ريشة فنان، وأناملها نغم وبيان.

وهي فضلاً عن ذلك، شديدة الذكاء، لماحة، مثقفة من الطراز الأول، ذات حسب ونسب، جمعت علوم عصرها من طب وفلك وكيمياء وفقه وفرائض ونحو ونظم شعر ورياضيات.. وهي لم تتجاوز بعد الاثني عشر ربيعًا!. ناهيك عن مواهبها الفذة في الرقص والعزف على الآلات الموسيقية بمختلف أنواعها، والتطريب بصوتها الهندي الساحر.

أما عن إجادتها لفنون الحرب والعشق فلا تسل!. فهي مغوارة مقدامة في ساحة الوغى، لكنها في ساحة الهوى تتكسر حلاوة وتتنقط عسلاً، تتنهد شبقًا وتتنفس غواية، تنضح لذة وتفيض متعة وإمتاعًا. لكنها، ومع ذلك، تتمتع بأخلاق الطاهرات، العفيفات، المحصنات. فهي، أي نعم، لا تقل مهارة عن ألاعيب وأفانين الغواني والجواري، لكنها لا تخُون السلطان، ولا ترتمي في غيابه بين أحضان العبيد والخلان!.

أي نعم، تجيد القراءة والكتابة، لكنها لا تكتب رسالة توزع منها نسخًا على هذا وذاك، فيظن كل واحد من خلانها أنها له وحده!. فهي الماجنة في سرير زوجها، العفيفة خارج أسوار قصرها، الراقصة الجليلة، المائعة الوقورة، البغي الطاهرة. إنها امرأة عبقرية، جمعت أجمل ما في المتناقضات: زوجة تقية، تضفي على الحلال متعة الحرام!!!.

فكانت شهرزاد حورية من حوريات الجنة، أو جنية من بنات الجن. لذلك، وأكثر، سكنت عقول وحواس الرجال، على مر العصور و الأجيال. ولذلك أيضًا حمّلناها فوق ما يطيقه البشر!.

وبناء عليه، وقبل أن أواصل حديثي عن الجانب الإنسي في شهرزاد، والذي طال إنكاره واستنكاره، أناشدك الله عزيزي القارئ، إن كنت من المتيمين بمواصفات شهرزاد السالفة الذكر والوصف، أن تبادر إلى طي صفحات هذا الكتاب وأن «تبدل الساعة بساعة أخرى»، كما نقول في المغرب!. لأن كل ما ستلقاه بعد الآن من رؤية جديدة، وقراءة مختلفة عما يهواه قلبك ويدغدغ حواسك، قادر بقدرة قادر أن يمزق حلمك المخملي إربًا إربًا، فتصبح بعد دقائق معدودات رجلاً بلا أمل!. فلا تقرب هذه الورقات، إن كنت في مرية من أمرك. أما إذا كنت شجاعًا، مقدامًا، لا تهاب مواجهة الحقيقة، فمثلك يستعان به على مفاجآت الطريق!.

لا شك أيها القارئ الكريم، أنه بلغك، أن شهرزاد كانت أيضًا امرأة ولودًا، تؤتي أكلها كل حين، وتضع حملها كل سنة، أي على مدى ألف ليلة وليلة. فكانت محصلة الليالي الملاح، ثلاثة ذكور. وهذا أول دليل على إنسيتها! . وكما لا يخفى عنك، هداك الله، أن المرأة الحامل تحتاج إلى تسعة أشهر كي تضع حملها. وهذا يعني أن شهرزاد، الإنسية، كانت حاملاً على مدى تسعة وعشرين شهرًا، بأيامها ولياليها! . قضت منها ثمانية عشر شهرًا وهي منتفخة البطن، أي ابتداء من شهرها الثالث وحتى شهرها التاسع. أي أنها لم تكن ذات قد ممشوق، وكأنه غصن بان، ولا صاحبة خصر نحيل. ولم تكن خفيفة الحركة، سريعة الخطى، بل كان حملها وثقلها يمنعانها من النط والقفز والتمرغ فوق السجاد الإصفهاني! .

ولم تكن تتماوج كالحرير بين سرايا القصر، رقصًا وفنّا ودلعًا، لتذهل شهريار وتبهره بما لم تستطعه امرأة من قبلها، ولا من بعدها. ولم تكن تقوى حتى على حمل آلة العود أو القانون، كي تعزف عليها أعذب الألحان، فيدخل شهريار في غيبوبة النرقانا؛ لأن بطنها كان منتفخًا! . ولم تكن تسرح وتمرح مع الفراشات والأزهار، بين بساتين القصر الملكي، وشهريار يركض وراءها فرحًا مسرورًا، غائظًا بها الأعداء والشامتين؛ لأنها كانت حامل! . وكفاك بهذا الوضع دليلاً وشهيدًا على ضعفها وضيق ذات حالها.

ولا تحتاج أيها القارئ النابه، أن أحيطك علمًا بأن شهرزادنا الإنسية كانت تتعرض إلى نوبات الكآبة الشديدة، بوصفها حاملا، تمر من محنة الوحم، وقربانًا مهددًا بالنحر كل ليلة! . وأنها كانت تستيقظ على ما لا يخطر ببالك من هواجس ومخاوف، فضلاً عن تعرضها لخليط من الأحاسيس السيئة، ما بين حموضة وقرحة معدة وصداع رأس، ودوخة وغثيان، ما أن تسلم من الأولى حتى تتلقفها الموجة الأخرى، وهكذا على مدار اليوم والأيام.

وكي تزداد يقينًا وطمأنينة بأن شهريار المسكين، لم يكن ليستحق كل تلك العيون الثاقبة من الحسد والغيرة! ، يكفي أن تعلم بأنه لم يتمتع بهلال خصرها ومرمر بطنها إلا لفترة معدودة ومحدودة: أي ما بين الليلة الأولى والليلة التاسعة والثمانين. وما دون ذلك فهو انتفاخ وامتلاء وحذر وانزعاج! .

ولا تحتاج رعاك الله، إلى من يذكرك بأن المرأة بعد الحمل والولادة، تصيبها صدمة البطن المتهدلة، وهو أمر طبيعي. هب أنك حامل وتتمنى أن ترى بطنك وقد عاد إلى ضموره وتماسكه، فإذا بك تتفاجأ عند رؤيته مترهلاً، مجلودًا، منتفخًا. لا شك أنك لن تنام قرير العين حتى يسترجع هيئته الأولى!، وهذا لا يتأتى إلا بشق الأنفس، بشهادة الوالدات. ورغم ذلك، لن يكون هذا حال شهرزادنا الإنسية؛ لأنها ما أن يودعها دم النفاس، الذي يدوم أربعين ليلة، حتى تدخل في هلوسات الوحم الجديد!. لذلك لن تنعم المسكينة برؤية بطنها الأغر، على مدى ألف ليلة وليلة!.

فكيف بالله عليك، تكون شهرزاد، كما وصفها الواصفون، حقيقة في خيالنا، إلا إذا كانت جنية، تفعل ما تفعله بنات الإنس، وتزيد عليه ما عجزن عنه: كأن تلد قبل أن يرتد إلى السلطان طرفه. فيخرج الغلام مشرقًا، نظيفًا، مفطومًا، كما قد يتحول إلى عصفور أو قرد أو يمامة أو أمير فتان، يأسر قلوب فتيات الإنس والجان!.

ولذلك أنصحك عزيزي القارئ، أصلح الله بالك، إذا كنت ممن ينشد الحق ويحيد عن الضلال، أن تسأل نفسك بين الفينة والأخرى، كيف أتت شهرزادنا لشهريارنا بثلاثة ذكور، خلال ألف ليلة وليلة، إذا لم تكن إنسية مثل ست الحبايب، وأختي، وخالتك، وأستاذتك، وأمة ربها كاتبة هذه السطور؟!.

الآن عزيزي القارئ، وقد حصحص الحق وسطعت في الأفق تلك الحقيقة الخاطفة للبصر، لم يعد في مقدورنا سوى الاعتراف بآدمية شهرزاد، حتى لو كانت مجرد وهم من صنع الخيال. لذلك وجب الإقرار بحقها في الاختلاف عن بنات الجن، فلا نسمح لخيالنا أن يجنح على حساب حدودها وطاقتها البشرية، وأن يسري عليها ما يسري على بنات الإنس، فإن حملت لقيت ما تلقاه كل النساء، ما دامت ابنة تسعة أشهر!. كما يتوجب علينا أن نرضى بالأنوثة خيرها وشرها، فكما أن فيها ما هو أحلى من العسل، فيها أيضًا ما هو ألسع من النحل!. بل إنك ستعجب إذا ما علمت أن بطن شهرزاد المنتفخ، هو من أنقذ عنقها من ضربة كادت ألا تفيق من بعدها أبدًا!.

اعلم فتح الله عليك، أيها القارئ الكريم، أنه جاهل بالنفس البشرية، محدود الرؤية، ضيق الأفق، أسير الهوى والأهواء، من ادّعى وزعم أن شهرزاد عالجت السلطان المحزون بالإغواء الجنسي!. وحجتي في ذلك بسيطة وواضحة؛ لأن شهريار

بالتحديد كان ناقمًا، حانقًا، حاقدًا، كارهًا، مبغضًا لكل امرأة تهوى أو تُغوى، وهو المخدوع، الملسوع، المقهور، المغدور بما فعلت به زوجته السلطانة، يوم ضبطها بأم عينيه، متلبسة في الخيانة العظمى، وهي تعيث شبقًا بين أحضان أحد الغلمان!.

لذلك، وهو إذ كان يقتل الفتيات والنساء، انتقامًا لكبريائه وذكورته، كان يقتل فيهن الشهوة، قبل أن يقتل الحياة. فما أن يفرغ من إحداهن حتى يقضي عليها، كيلا تقرب إنسيّا من بعده. وإلا كيف تفسر تمسك أحفاد شهريار بختان الفتيات حتى الآن؟. لا بل كيف تفسر وأد من سبقوه من الأجداد والأسلاف لبناتهم وفلذات أكبادهم، وهن لا يزلن في المهد، إن لم يكن اتقاء لاندلاع قنبلة الشهوة الموقوتة فيهن؟.

لقد أدركت شهرزاد المُلْهَمة، قبل أن يدركها صباح الليلة الثانية، أن شهريار المغدور، ما كان ليفقد صوابه لو كان يؤمن حق الإيمان بأن من خلق الذكر والأنثى إنما خلقهما من نفس واحدة. وبالتالي، ما كان ليجد نفسه كالمعاند الذي يحاول اعتصار نقطة زئبق بين يديه، أو كالمغرور الذي استل سيفه كي يحارب الشر في العالم، ظنّا منه بأنه قادرعلى ما لا تقدرعليه الأقدار!.

لقد أدمن شهريار شهوة الغضب دون أن يدري أن الشهوات واحدة، وإن تعددت لذاتها، ما دامت تستعبد صاحبها. وكاد أن يلقى حتفه، إما مجنونًا أومنتحرًا، حين استجاب لدعوة الشيطان، بقتل شهوة النساء، وكأنها معزولة عن شهوة الرجال!.

لقد فهمت شهرزاد أن الرجل مريض بداء الإنكار. فداوته بالتي كانت هي الداء؛ بإنكارها واستنكارها لشهوة النساء. وهكذا أخذت تتقمص دور الفتاة العفيفة التي تنتقم لصيانة شرفها وسمعتها من الفتيات اللائي كن يتبعن سبيل الشهوات، أو يتحرشن بزوجها، أو حتى كن يعاشرنه قبل أن يعقد القران عليها!.

لقد كان لسان حالها يقول: «اعرف عدوك، تنج برأسك»، فكانت الراوية العاقلة الرصينة، مروضة الثعبان، تعرف متى ينسى جرحه، ومتى يتذكره، وكيف تلهيه عن الذكرى، وكيف تنسيه أوجاعه، ومتى تبدأ الحكاية ومتى تعلقها، ومتى تطمئن على سلامة عنقها، كي تسكت عن الكلام المباح.

ولم تكن شهرزاد غبية أو ساذجة أو متهورة كباقي الضحايا الشقيات، اللائي كن يعتقدن أن السلطان محتاج أو مشتاق لفتاة جديدة تريه المجون في عز النجوم! . بل كانت تعلم أنه في أشد الحاجة لمن تعالجه بالحكمة وتمتعه بشهوة العقل، بدلاً من شهوة القتل أو الجنس. فلجأت إلى الحكاية واختارت من القصص والأخبار ما يتوافق مع سياق مزاجه، حتى لا تكون نشازًا؛ لأن النشاز في حضرة شهريار، لا معنى له سوى إيقاظ خلايا ذاكرته الغافية على غدر السلطانة الماجنة. لذلك لم يكن في صالحها، على الإطلاق، أن تبدي له مواهب الإثارة والإغراء، خاصة في الليالي الأولى، ما دام هناك احتمال أن يتخيلها منتشية في حضن عبد من عبيده. فما أن تعبر خياله الصورة الآثمة، حتى تكون في عداد القرابين.

هذا ما جعل شهرزاد تشعر بخطورة وضعها، بحيث أيقنت بأن الاكتفاء بالحكاية وحدها لا يكفي؛ لأنها مهما تذاكت وتكايست وأخذت حيطتها وحذرها، لا يمكن أن تضمن السلامة من الوقوع في زلة اللسان، ما دامت مجرد إنسان! . فكان أن سألت علية قومها من النساء الحكيمات، ذوات العلم اليقين والكيد العظيم، أن يسدين إليها النصيحة، فجاء على أيديهن الفلاح، وسكتت عن الكلام المباح.

لم تبق الحكاية وحدها عتيقة شهرزاد من السيف، خاصة بعدما ذاع خبر حملها في البلاط الملكي، وبلغ إلى علم الملك السعيد بشرى قدوم ولي العهد، فشاع السرور في سرايا الملك وانتشر في المدينة، وأجزل الملك العطاء للفقراء والمساكين، وخلع على وزيره خلعة سنية! . ولم تعد شهرزاد مجرد جارية مهددة بالقتل، وإنما السلطانة أم السلطان.

ورغم أنها استمرت في الحكاية، وكانت أحيانًا تجازف بالحديث عن خيانة النساء، وعن شهواتهن المتدفقة، واستعدادهن لفعل أي شيء من أجل إدراكها وإطفائها، إلا أن شهريار كان يتلقاها بوصفها مستملحات جنسية وبهارات حسية، تتعمد شهرزاد إثارتها من أجل التلوين والتغيير والترويح عن نفسيهما من «شدة» التركيز والتفكير في المواضيع الاجتماعية والفقهية والفلسفية والسياسية! ، التي كانت تطرحها على سفرة النقاش، للإمتاع والمؤانسة، لا بوصفها تقليبًا للمواجع التي كادت تصبح في خبر كان.

وفوق هذا وذاك، من ذا الذي يشك في عفة زوجته الحامل، وأمارة طهرها ماثلة أمام عينيه!؟. وكيف كان سيطاوعه قلبه أن يصيبها بسوء، وهو يرى بأم عينيه حركات ولي عهده في بطن أمه، أو أحد شفيعيها، وهو يصدح كالكروان فوق فراش ملكه الطاهر؟!.

وهكذا عزيزي القارئ، مع مرور الأيام والليالي، بدأ شهريار يفهم أن هناك متعًا أخرى في الحياة، غير متعة إراقة الدماء؛ إن في الحروب أو في رحلات القنص، أو في خلوة الليالي الحُمر.

وحتى قبل أن يتهذب ذوقه، بالإقبال والانفتاح على طيب المعاني وعمق الأفكار، وصميم الحكمة ومتعة الفنون والأشعار، ولذة الفهم ونشوة الارتقاء من مستوى العامة إلى مستوى الخاصة، بدأ شهريار يتلمس طريقه إلى النور والتحرر، فلم يعد في حاجة إلى إدمان أية متعة من تلك المتع الدموية. فكان ذلك الإحساس أجمل ما أهدته شهرزاد.

وهكذا عزيزي القارئ، أنار الله قلبك، ألا ترى بحسك اللبيب وفطرتك السليمة وعقلك الراجح، أنه لم يكن بالإمكان علاج شهريار إلا باتباع شهرزاد لهذا السيناريو الطبيعي والإنساني، الذي تقبله فطرتك الصافية الرقراقة، وليس كما تخيله الراوي الأول، ومن والاه من بعده في الانزلاق والانزياح مع الأهواء، حتى أصبحت شهرزاد الحلم، رمزًا للإغواء، ولكل ما هو شيطاني وشهواني، بل لا إنساني!.

لقد حول الراوي، سامحه الله، شهرزادنا الإنسية، بنت الحسب والنسب، إلى إنسان آلي يقص على الملك الحزين الحكايات دون توقف، حتى بلغ به التعسف والاضطهاد إلى حرمانها من حقها الطبيعي في إجازة الولادة، ككل النساء!. ورغم أن أطباء سرايا القصر الملكي، توقعوا أن تكون ولادتها في الليلة السبعين بعد المائتين، إلا أنها لم تسجل غيابها على ورقة الغياب؛ بل كانت حاضرة تقص على شهريار أمتع القصص!.

واضرب تلك المحنة في ثلاثة!. وهذا لعمري دليل قاطع على أن الراوي كان فعلاً متيمًا بشهرزاد الجنية، أو قل، التي نصفها جني ونصفها الآخر إنسي، بحيث جعل منها امرأة لا تغيب عنها الشمس حتى في ليلة المخاض!.

إن هذا الولع التعسفي بشهرزاد، لهو أكبر دليل على أن من كتب ألف ليلة وليلة ذكر، لا أنثى! بحيث حاول أن يوهمنا، مستصغراً عقولنا، منتقصًا من حسنا المنطقي، سامحه الله، بأن شهرزاد حملت وأنجبت على مدى ثلاث سنوات، دون علم من العم شهريار!، ودون أن يفطن إلى انتفاخ بطنها ومزاج حملها، وحليب ثدييها، ودم نفاسها، وصراخ أولادها!. كما لو كان يغط في غيبوبة شاملة، أو يتعاطى مخدراً من العيار الثقيل، أثناء ألف خلوة وخلوة بشهرزاد!. وكلها احتمالات بعيدة، بل مستحيلة؛ لأنه كان حاضر البديهة، يقظ الذهن، يسأل ويناقش حكاياتها، ويطالبها بإتمام رواياتها!. لذلك، لا يمكن أن نصدق هذيان الراوي وخَرفَه، إلا إذا كانت شهرزاد «فعلاً» جنية!.

هذا ما توصلَتْ إليه قراءتي المتواضعة لألف ليلة وليلة، والتي تنتهي نهاية جنية بكل المقاييس، كما شاء لها المؤلف!. فبعد أن فرغت شهرزاد من حكايتها الأولى بعد الألف، قامت على قدميها تقبل الأرض بين يدي الملك، وقالت لشهريار: «يا ملك الزمان، وفريد العصر والأوان، إني أنا جاريتك، ولي ألف ليلة وليلة وأنا أحدثك بحديث السابقين ومواعظ المتقدمين، فهل لي في جنابك من طمع حتى أتمنى عليك أمنية. فقال لها الملك: تمني تعطي يا شهرزاد. فصاحت على الدادات والطواشية، وقالت لهم: هاتوا أولادي. فجاءوا بهم مسرعين، وهم ثلاثة أولاد ذكور، واحد منهم يمشي، وواحد يحبو، وواحد يرضع، فلما جاءوا بهم أخذتهم ووضعتهم قدام الملك وقبلت الأرض، وقالت: يا ملك الزمان، هؤلاء أولادك، وقد تمنيت عليك أن تعتقني من القتل إكرامًا لهؤلاء الأطفال، فإنك إن قتلتني يصير هؤلاء الأطفال من غير أم، ولا يجدون من يحسن تربيتهم من النساء، فعند ذلك بكى الملك وضم أولاده إلى صدره وقال: «يا شهرزاد، والله إني قد عفوت عنك من قبل مجيء هؤلاء الأولاد، لكوني رأيتك عفيفة نقية، حرة تقية، فبارك الله فيك، وفي أبيك وأمك، وأصلك وفرعك!»[1].

فماذا بعد الواقع إلا الخيال؟!!!.

لم أضحك كما كنت أبغي وأتوقع، لكني رأيت ما لم أره من قبل، وما كانت لتتأتى لي الرؤية، لو لم أكن حاملاً، تمامًا مثلما كانت شهرزادنا الإنسية حاملاً، على مدى ثمانمائة وسبعين يومًا من أصل ألف ليلة وليلة!!!.

(١) «ألف ليلة وليلة»، بيروت، دار الكتب العلمية، ج٣، ٤، ص٧٠٥، ٧٠٦.

٢٧ / ١٢ / ٢٠٠٣م

كتاب النصائح

لم يخطرعلى بالي، وأنا في الأسابيع الأولى من الحمل، أن أهتم بما سيصادفني في الشهور الأخيرة، وهذا أمر طبيعي؛ لأنني لا أجد سببًا وجيهًا يدفعني إلى حرق المراحل من أجل استراق السمع والتلصص على الغيب! . بل العكس هو الأصح؛ لأني في أمس الحاجة الآن إلى فهم الحالة التي أمر منها من أجل تمثلها واستيعابها . وهذا ما دفعني لقراءة مجموعة من الكتب المختصة في الحمل والولادة . وقد كان الأمل يحدوني أن أجد فيها ما يجيب عن تساؤلاتي وهواجسي؛ أنا المغمورة بالمخاوف، الفقيرة إلى الاطمئنان وهدوء البال . لكني فوجئت بالكم الهزيل من الصفحات المواكبة لمرحلتي، وقد زودت بنصائح ومعلومات زهيدة لا تغني من القلق شيئًا، بل تزيد النفس كآبة وضيقًا، خاصة حين يركزون فقط على الأعراض والأمراض المحتملة والممكنة التي قد تتعرض لها الحامل، كظهور البقع الداكنة على الوجه وتشققات البطن . . . إلخ .

وهذا وحده كفيل بأن يُحول صبحياتي إلى لحظات تفتيش متوجسة لما قد يتطابق مع ما قرأت . وما أن أحمد الله على انفلاتي منها، حتى أذكِّر نفسي بألا أفرح كثيرًا . فلا تدري نفس بأي داء تصاب غدًا . وأشعر بأني مستهدفة من قدري الذي أنجبني أنثى! . أو من قبل الكاتب الذي لا يهمه سوى الحديث عن مشاكل الجسد، زاهدًا في أهم وأصعب جانب، ألا وهو الجانب النفسي عند الحامل، والذي يبدو أنه غير معترف به في الكتب الطبية والنفسية العربية، أو على الأقل التي قرأتها! .

أما ما تبقى، وهو نصيب الأسد من الصفحات، فقد خُصص للحديث عن أعراض المخاض، والرضاعة والغياب عن البيت والتوفيق بين المهمتين، أي كل ما لا شأن لي به الآن، والذي لا يزيدني إلا تمردًا وعصيانًا، إلى درجة إلقاء الكتب جانبًا والزهد في معلوماتها وفوائدها؛ لأن ما يريدون إقناعي به، هو بالذات ما أرفض الاقتناع به، فهم

حريصون بشكل عجيب على إفهام الحامل بأن حياتها ستنقلب رأسًا على عقب، وأن هناك حدّا بين حياة الحمل وما بعد الولادة! . وأنها ستتعرض لعدة أزمات نفسية وأسرية وعملية، وبأن نهارها سيتحول إلى ليل، والعكس صحيح. لذلك وجب عليها أن تجد الحلول الممكنة للاستمرار في الحياة، دون كآبة واكتئاب! .

لكنني أفند كل ما يذهبون إليه، متحدية نبوءاتهم السخيفة؛ لأن عزيمتي أقوى من ادعاءاتهم. فأنا مصممة على الحفاظ على إيقاع حياتي، من نوم وراحة وهدوء. ذلك لأنني وعدت نفسي قبل أن أعدهم، بأني قادرة على التحكم في مجرى الأحداث والسيطرة على كل المستجدات في حياتي؛ لأني لست مستعدة كي يدخلوني إلى دائرة الإهمال، فلست بطنًا للولادة فقط، ولست تلك الأم التي ستصاب بالعجز أو الذهول أمام شغب مخلوق صغير! .

أما ما يُضحك له حتى الأسف، فهو ذلك السيل الهائل من النصائح الطبية التي تقدم للحامل، خاصة تلك التي تُعنى بالتغذية والصحة واللياقة البدنية. وقد ذكرتني إحدى النصائح، وهي تدعو الحامل إلى أكل وجبات تكفي لشخصين، بإحدى الأمهات الطيبات التي كانت تحث بحماسة شديدة، الشابات المقبلات على الحمل والإنجاب، على ضرورة الإكثار من تناول اللحوم والأسماك والألبان والأجبان والفواكه والخضراوات والبيض والمياه، متباهية بشهيتها التي كانت مفتوحة على مصراعيها أثناء حملها! . وكأن بطن هذه الحامل الطيبة تحولت إلى سوبر ماركت أو ثلاجة من الحجم الكبير! .

فأنا، حتى لو عقدت العزم على حشو بطني بتلك الأطنان المطننة من المأكولات، عملاً بالنصيحة، فكيف أقبل عليها، وأنا لا أطيق حتى النظر إلى بعض منها، كاللحوم والأسماك التي يسبقني زفارها فيحول بيني وبينها؟، وكيف تنفتح شهيتي للأكل وأنا أفكر في تداعيات الحموضة وآلام المعدة، المصحوبة بذلك الإحساس الممزوج بين الحرقة والغثيان؟، بحيث لا يرغمني على سد رمق الجوع سوى شدته، والذي إذا ما تجاوز حده، انقلب إلى نوبة صداع نصفي، لا أتخلص منها إلا بعد يومين متتاليين! . وكيف أستهلك المياه والسوائل، وما أن أشرب جرعة منها حتى أشعر بإرهاصات القيىء، اللهم إذا كانت مثلجة! . وهكذا أقضي يومي، منذ أن أفتتحه بطعم المرارة، في السؤال: ماذا سآكل؟، إلى أن أهتدي إلى لقمة لا تؤجج نار الحموضة في معدتي! .

وتبلغ نصائح الكتاب الفذ ذروة الطرفة، حين لا يجد المؤلف مانعًا في أن تمارس الحامل رياضة ركوب الخيل أو كرة المضرب، ابتداء من الشهر الرابع!!. لذلك كدت أستلقي على قفاي من الضحك، وأنا أقرأ النصيحة السالفة الذكر؛ لأني وجدت فيها ما يُحيل رأسًا إلى عالم جُحا الخرافي!. وأظنه لو كان حيًّا يرزق، لتساءل مثلي بكل طيبة وعفوية: «ماذا لو التوى، على حين غرة، كاحلُ الجواد الذي تمتطيه الحامل ذات الأربعة شهور، وانطوت على بطنها فاختنق الجنين؟!. أو ماذا لو وجد الحصان، فجأة، حاجزًا مائيًا، فغرقت الفارسة والجواد معًا في البركة المائية؟!.

ثم، ألم يفكر طبيبنا الطيب، في وقوع شديد الاحتمال للاعبة كرة المضرب، وهي تسابق الريح، لاستقبال كرة غريمتها في الضفة الأخرى؟!. ومن يضمن أصلاً أن تكون كل هذه التمارين الرياضية سليمة وغير مؤذية لصحة الجنين؟. ثم من هي هذه الحامل المغوارة، التي لن تكون مهووسة ومسكونة بفكرة سقوط الجنين أو تعرّضه للتشوه، إثر وقوعها الافتراضي؟. ونسأل الله أن يكفيكم شر ما يدور في رأس الحامل آناء الليل والنهار!.

طبعًا هناك احتمال أيضًا أن أكون مخطئة وواهمة، كأن يكون حرصي الشديد على سلامة الجنين، مبالَغًا فيه، كي لا أقول مَرَضيًّا!. لكني وجدت سلامتي ووقايتي في الوهم. لذلك سأكتفي برياضة المشي على الأقدام، مثلما نصحتني طبيبتي الهندية، ولن أجازف في تسلق الجبال أو القفز فوق الحواجز!.

***

١٠/ ١/ ٢٠٠٤م

المستشفى

رغم أني كنت أستبعد احتمال توليدي في مستشفى عمومي؛ لأن مجرد التفكير في ذلك يعني أن أقلل من شأن أعظم وأهم حدث في حياتي. لكنني كنت مجبرة حين قررت الطبيبة الهندية أن تحيلني إلى المستشفى، حيث تلد فيه معظم نساء المدينة. وهذا ما جعلني أشعر لأول وهلة، بتخليها عني، بعدما توقعت أن تكون هي مستشارتي وعرابتي المكلفة برعاية حملي وتوليدي، وأيضًا سندي المعنوي الذي أتوكأ عليه، كلما اجتاحتني موجة الخوف الشديدة، في غياب الخبرة وجوار امرأة حنون.

لكني سرعان ما تأقلمت مع الوجهة الجديدة، إلى حد الشعور بالارتياح، وذلك لسببين اثنين؛ أولهما: أني قد أجد في هذا المستشفى مناخًا ودودًا، وسهولة في التواصل بلغتي العربية، خاصة بعدما تبين لي الفرق الواضح بين التعامل البراجماتي، يوم أخبرتني الطبيبة الهندية بأني حامل، ونصحتني بتناول أقراص حامض الفوليك، وبين الرحابة الإنسانية التي وجدتها، في اليوم نفسه، لدى الصيدلانية التي استقبلتني بطيبة وإنسانية، وزودتني بكثير من النصائح، والبشاشة لا تفارق مُحياها، لدرجة أنني تمنيتها لو كانت الطبيبة المداوية!.

ثانيهما: كي لا أتعرض من جديد إلى صقيع ابتسامتها المدفوعة الأجر، والتي اكتسبتها بحكم الدربة والممارسة، داخل العيادات الأمريكية، وكأن الحضارة الهندية، بعراقتها وأصالتها وبهاراتها، عاجزة عن ابتكار ابتسامة دافئة صادقة، بنكهة هندية رائقة!.

كان موعد أول زيارة لي للمستشفى هذا الصباح، في تمام الساعة العاشرة. ورغم أني كنت في حال من الخواء والوهن، تمالكت نفسي وتظاهرت بالانشراح قدر المستطاع، على الأقل كي لا تخر قدماي فوق درجات المستشفى، وأنا ألج لأول مرة في حياتي، جزيرة الحوامل الغامضة!.

بعد سلسلة من التنقلات والجولات بين المكاتب وواجهات الاستقبال، من أجل تخزين معلوماتي الخاصة، وصلت إلى باحة الانتظار، حيث وجدت جمهوراً غفيراً من النساء، إما ذوات حمل، أو ذوات علل، ينتظرن ساعة الفرج.

جلست بين سيدتين، كانت ذات اليمين إماراتية تنتظر مولودها الرابع، بينما ذات اليسار سيدة سورية، تنتظر مولودها الخامس، وبطنها على وشك الانفجار. شعرت بمحبة فجائية، وكأني طفلة صغيرة تنتظر من يشجعها. سألتني السيدة الإماراتية عن شهري. ومن دون مقدمات، أفضيت لها بخوفي، فدَعَتْ لي بالولادة الطبيعية.

حين مرت أمامنا شابة في العشرين، وهي ترتدي بدلة رياضية تبرز معالم جسدها الممشوق، قالت لي السيدة السورية: «أكيد أنها لم تحمل بعد!». ضحكت لأجاري ما في نفسها من غصة وحسرة على جسدها المتهدل، ووعيد للفتاة العابرة بمصير مماثل!. لكني، في الوقت نفسه، خجلت من تواطئي الكاذب وصوتي الداخلي يخفي ما أبدي: «ها أنا ذي حامل في شهري الثالث، وما زلت محتفظة برشاقتي، ولن أعدك بأني سأستسلم بسرعتك؛ لأنني لن أفرط في رشاقتي أبدًا!». ثم سألتها بنية المواجهة: «ولماذا سيتغير قوامها، انظري إلى جسد نوال الزغبي». فردت قائلة: «إيه، لكن هي جابت ولد بس». قلت لها: «كلا، جابت بنت وتوأم»!.

وقبل أن نتوسع في «النقاش» الذي كان سيكشف لها، ربما، عن جاهزيتها المطلقة للانهزام، سمعَتْ صوت المنادية تنادي على اسمها، فانسحبت، تاركة في نفسي بعض الندم، بعدماَ أدركتُ أنها كانت تدافع عن قناعاتها التي تكفل لها الطمأنينة النفسية، والرضى بالحد الذي تتطلبه من جسدها وشكلها. وأي جدال خارج مسلماتها، كان ربما سيربكها من الأعماق ويشعرها بالذنب والتقصير إزاء جسدها.

حين جاء دوري، نادت عَلَيَّ الممرضة أربع مرات. كان اسمي عاليًا في سماء المستشفى، مثلما كنت أسمعه في الإعلانات الترويجية لحلقات «مبدعون» الجديدة. ظللت أتتبع مصدر الصوت المنادي، ذهبت إلى باحات أخرى، وحيثما اتجهتُ سمعت النداء. حاولت جهد الإمكان أن أتحرك في اتجاه صوت المنادية، كما لو كنت ألعب معها الاستغماية!. كانت عيون النساء تلاحق خطواتي الحيرانة، وأنا أقول في صمتي: «هل من هنا يأتي الصوت أم من هناك يأتي؟». ولم يكن في مقدوري أن أعلن للملأ،

وبصوت عال: «يا أهل الله يا اللي هنا، أنا فلانة الفلانية!». ليس خجلاً من الزحمة والجمهور، وإنما لفقر دم الدعابة في نفسي، في ذلك اليوم المشهود. أما لو كنت في ظروف أخرى، لفعلت وربما لرقصت!.

واصلت البحث عن كل مصادر الصوت الممكنة، وذلك بتوجيه الانتباه إلى مكبرات الصوت هذه المرة. وبعد أن طفت الأرجاء الأربعة، عدت من حيث انطلقت، وإذا بصوت داخلي مواز، يلهمني خطة جديدة تقتضي بادئ ذي بدء، غض النظر عن مصدر الصوت كمرحلة أولية، والتركيز فقط على شَفَتَيْ الممرضة المنادية حيثما وجدت، ومن ثم رصد مخارج حروف اسمي وحركة شفتيها، لنرى إن كانت متطابقة أو متزامنة!. لكني ولحسن حظي، دون حتى أن أطوف المستشفى من جديد، ضبطت المنادية متلبسة!. ولولا الصدفة الرحيمة، لما عثرت عليها؛ لأنها، وهي تنادي عليَّ، كانت حانية رأسها تحت منضدة مكتبها. والحمد لله أنها في اللحظة التي رفعت فيها رأسها، رمقتها!. هذا يعني أنني لو ظللتُ منهمكة في الحديث إلى السيدة الإماراتية التي كانت تنصحني بالإنجاب مرة كل سنتين، لما جاء دوري أبدًا!!.

لست أدري لماذا شعرت فجأة بأنني في صالون حلاقة، أو محل بيع ماكياج، رفقة الطبيبة الشابة، التي كانت توحي بأنها تلهو بحالي، غير مكترثة لمشاعري!. فبعد أن أنهت سيل أسئلتها عن أمراض فصيلتي وعشيرتي، سألتني، بطريقة فجة تنم عن جهل فظيع بالتعامل مع نفس بشرية تواجه مصيرها بين جدران الأسرّة البيضاء، إن كنت أريد إجراء فحص لمعرفة إذا كان الجنين مشوهًا: «منغوليّا»، مع الاعتذار للشعب المنغولي. أجبتها: «لم لا»؟. قالت: «ولكن هنا في المستشفى، حتى لو كان الجنين منغوليّا، فإننا لا نقوم بعملية الإجهاض». قلت لها: «ما دام المستشفى يحرم الإجهاض، لماذا تفتنون الحوامل؟». قالت: «من باب العلم بالشيء». قلت لها: «أفبهذا الأسلوب العاري تواجهين عادة الحوامل؟». قالت: «نعم». قلت: «وماذا يكون جوابهن؟». قالت: «تسعون فى المائة منهن لا يقبلن بإجراء هذا الفحص؛ لأن هناك نسبة واحد بالمائة من احتمال تعرض الجنين إلى التشوه، إذا ما لامسته الإبرة أثناء غرزها في ماء المشيمة». ودَّعْتُها قائلة: «عجيب كيف تملئين الحوامل يأسًا؟!».

حين طرقتُ باب رجائها، كان نصفي الأول أملاً والآخر مثقلاً بمخاوف وهواجس، غالبت نفسي كي أبقيها نائمة، ريثما أتخلص من رهابي الأول، لكن الطبيبة أبت إلا أن توقظها على ما هو أهول، فنسيتُ أنني كنت أنوي أن أفضي إليها بحديث من القلب إلى القلب، بعدما شاهدتُ لغتي الأم وهي تتحول بدورها، إلى لغة الإنسان الرقمي!.

***

١٩/ ١/ ٢٠٠٤م

مكان آمن للمشي

أظن أنني توصلت إلى فك شفرة التعامل مع معدتي! . فقد فهمت أنها توهمني بأنها فارغة على الدوام، وكلما ملأتها تقول: هل من مزيد؟! . وهذا ما غاظني من أمرها. ولم أفطن إلى جحودها ونكرانها، إلا حين زاد وزني حوالي ثلاثة كيلوجرامات. لكني اهتديت في النهاية إلى حل منصف وعبقري في الوقت ذاته، وهو أن أطعمها قليلاً وعبر فترات متفاوتة. وهذا بالضبط ما ينصح به الأطباء. فبدلاً من تناول ثلاث وجبات كبيرة في اليوم، يمكن تقسيمها إلى ست وجبات خفيفة. وبذلك ألجم نفسي عن شهوة الأكل، بعدما تعديت مرحلة انغلاق الشهية، وهذا ما يتوافق مع مأثورنا الغذائي: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، ولا نأكل حتى نشبع!». فقد كنت آكل كثيراً وأشعر كما لو كانت بطني ملئت ماء، وهو إحساس مزعج، ناهيك عن احتمال عودة الحموضة، معاقبة لي على شرهي! .

أكيد، لن تذهب كل هذه الجهود والاحتياطات سدى، ما دامت ستمكنني من تحقيق أحد أهم الأهداف في المرحلة الراهنة: الحفاظ على الرشاقة أثناء الحمل! . وتيسيراً للمهمة، قررت استئناف التمارين الرياضية الخفيفة، التي لا تتعدى بعض الحركات المسعفة على تمدد عضلات الجسم وجريان الدم في العروق، ولن تغريني أبداً قفزات أو ركلات الكيك بوكسينغ! .

ولما كان الجو مغريًا هذا اليوم بنزهة بحرية، حملت شمسيتي المضادة للأشعة فوق البنفسجية وانطلقت أتجول، شبه وحيدة، على الكورنيش، رفقة البحر والموج الخليجي الهادئ، مما أشعرني بأني أستنشق هواء جزيرتي الخاصة. ولم يكن يوقظني من حلمي الجميل، سوى نقرات راكضة تدنو سريعة صوبي، لتنأى على مرمى الأفق الفيروزي، فأواصل سيري في هدوء وسكينة، مستعيذة بالله من سوء الذكريات! .

لقد كان من دواعي استغرابي، أثناء جولتي البحرية، كوني أمضيتُ أربعة أعوام على جنة هذه الأرض الآمنة، ومع ذلك ما زلت أحتفظ بارتكاستي المبرمجة على تهييئ يديَّ ورجليَّ، للدفاع والصد والتأهب لصاعقة بشرية، قد تعتدي على خصوصيتي وحقي الطبيعي في الطريق، فجأة وبدون أسباب أو مقدمات، فقط إرضاء لنزوة وحشية في الاعتداء، وتنفيساً عن مخزون هائل من الحقد واليأس، الذي لا سبيل إلى تفجير طاقاته، إلا عن طريق تقيُّؤ الشر والكراهية، في وجه أنثى عابرة، رماها قدرها العاثر في طريق ذلك الوباء البشري!.

لذلك، وتحسباً لمواجهة تلك الروح الهمجية، عودت جسدي، بمجرد خروجي من البيت، ترقب رشق حجارة من طفل، ليس في أرض فلسطين!، أو ركلة عشوائية من مراهق أرعن!، أو يد كهل مكبوت يرمي بها نحو الصدر!، حتى أصبحت حركات يدي، وأنا أمشي في الأسواق، مثل حركات الرجل الآلي، تصد كل محاولات الأيدي الباطشة بسرعة البرق، وفي كل الاتجاهات الممكنة والمحتملة!.

أما قدماي، فواحدة ترقب الاعتداءات السفلية، حين يتربص أحدهم، مدعياً الحمق، بالفتيات اللائي يعبرن الطريق أمامه، فيرمي بعصاه ليقعن، فيكن فرجة وفرحة للناظرين!. والثانية أخصصها للدوس على أرجل «أطفال» شبوا على الرذيلة، وامتهنوا التحرش المبكر بالفتيات والنساء!. بينما تقوم حقيبتي اليدوية بدور الدرع الأمامي تارة، والخلفي تارة أخرى، بحيث أقلبها حيثما اقتربت مني النوايا النتنة، تجنباً لما قد يحدث أمام أعين الناس في الحافلة العمومية، أو في الأسواق المزدحمة، إثر احتكاك متعمد من قبل المهووسين جنسياً!، ناهيك عمن يختص في الكشف عن عورته بجوار بيت الطالبات، وهن يتوجهن إلى جامعاتهن ومعاهدهن أو إلى بيوتهن، فيستهللن يومهن باللعنات على آثاره النجسة!.

هل كان لا بد أن تتعرض أولئك الفتيات والنساء، إلى نهش مخلوقات مسعورة، كان الأجدر بها أن تكون محبوسة في السجون أو في الماريستانات؟!.

أف لها من ذكريات!، كلما تذكرتها، هدأت من روعي وذكرت نفسي بأنني في بلاد الأمان، وبأن الله أخيراً استجاب لدعائي: **«اللهم استرني بردائك الذي سترت به ذاتك، لا عين تراني ولا يد تمتد إليَّ»**.

هنا أشعر برد الاعتبار لي، كامرأة لها الحق في الطريق. لذلك أجدني في معظم الأحيان زاهدة في جمال البنيان والعمران من حولي، حتى لا أنسى بأنني أستمتع بجسدي الآمن وهو يمشي طليقًا، دون أن أفكر لحظة واحدة في ضرورة الاستعداد للجهاد أو الدفاع عن العِرض أو الحق في الطريق!.

فليبارك الله هذه الأرض الآمنة، التي استطاعت أن تطبق وتترجم على أرض الواقع، مفهوم الحرية الحقة، بحيث لا يعتدي أحد على حرية أو حرمة أحد. وذلك بفضل القوانين الصارمة، التى لولاها لما اضطر كل مواطن ومقيم على أرض الإمارات، أن يكف شره عن الآخر، ويضبط نفسه، ويلجم أهواءه في الأماكن العامة؛ لأنه إما سيُهدد بالترحيل أو بالتشهير به في الصحف المحلية أو بالإلقاء به في السجن!.

أعود إلى نفسي المطمئنة، متناسية ما جرى، لأتملى في سكينة، اللون الفيروزي الآسر، الذي كنت أتصيد مصادفته فوق أمواج الأطلسي، فلا ألمحه إلا في فصل الشتاء، حين تكون السماء مكفهرة والأمواج مزمجرة، فيتراءى لي على حين غرة، وسط الزبد الأبيض ذلك الأزرق النادر، فإذا به في مياه الخليج، هو اللون الغامر!.

***

٢/ ٢/ ٢٠٠٤م

أوان الأمومة

عجبت لحالي كيف صرتُ أفضل أن أبقى حاملاً سنتين أو أكثر!، على أن يأتيني الخلاص في موعده؛ لأني لا أرى في الأفق حتى الآن، مكانًا مستقرّا لاستقبال المولود القادم، باستثناء جسدي.

من جديد سنرحل من الإقامة التي قضينا فيها بالكاد شهرًا واحدًا، أمضيت نصفه في التخطيط لتنظيمها وترتيبها، والاستئناس بروحها ورائحتها، لأني لا أطيق الأكل والشرب في المنازل الجديدة، إلا بعد تدرج عسير. ها هو ذا رحيل آخر، وتبديد آخر للجهد والوقت، وأسف على كتب لم أقرأها، وراحة لم أرتحها.

لكن، الحمد لله الذي ينعم عليَّ، بين الفينة والأخرى، بالاطلاع على بعض المستملحات العلمية التي تسليني وترفه عني، كحديث «خبراء» النفس عن حاجة الحامل إلى الاستقرار!. فبالرغم من أنها أم البديهيات، إلا أنهم يضفون عليها طابع السبق والكشف، ظانين أنهم يرفعون الحجاب على سر من أسرار الغيب، أو كأنها حقيقة مذهلة لا يمكن التوصل إليها إلا في حياة أخرى!.

فلولا نور علمهم!، لظننت أن المرأة الحامل تفضل أن تلد في سيارة أجرة!، أو في الطائرة، لعلها تضمن لمولودها القادم الجنسية المحلوم بها!. أو أنها تتمنى على ربها أن تكون ولادتها تحت الأنفاق!. أو أن النساء تستهويهن، فجأة خلال فترة الحمل، حياة وأسلوب النساء البوهيميات، فيفضلن فرش عشب الأرض ورداء السماء وهن يتأهبن للمخاض، على أن يستترن خلف أربعة جدران!.

ولولا تخمينات هؤلاء الخبراء!، لما قارنت بين حال الحامل وحال كل مريض عائد من مشفاه إلى بيته، والأمل يحدوه أن يجد الدفء والهدوء اللازمين للإصغاء إلى عظامه، في كنف أسرة تجود عليه بالشفقة والرحمة والمحبة!.

تحت ضوء تلك التكهنات المنيرة! ، أحسست بأن ما أصابني وما يصيبني من شعور بالعجز وانفلات الأمر من يدي، هو أمر عادي! ؛ لأني، مثلاً، لا أعرف اسم أو مكان الصيدلية التي سأشتري منها ما يلزم المولود القادم، من دواء وحاجيات. بل إني لا أعرف أساسًا حتى موقع البيت الذي سأعود إليه مباشرة بعد الولادة. ليس لأن فضولي يسبقني إلى معرفة موقعه، ولكن لأن بعد هذا الرحيل الذي نستعد له، سيليه رحيل ما قبل الأخير! . ولا أعرف هل سيحل أسبوعًا أو شهرًا قبل موعد الولادة! . لذلك لا يمكن أن أخمن مساحة البيت المجهول، أو أعرف عدد غرفه، وهل ستكون كافية لإيواء مساعدة تشد من أزري في ظروف مجهولة المعالم! ، فضلاً عن الشعور بالإعياء الذي لا يحلو له أن يشتد إلا أثناء الاستعداد للرحيل، وما بعده، خلال عملية التنظيم والاستقرار الجديد، والذي يتطلب جهدًا وطاقة قد يضطراني فيما بعد إلى لزوم الفراش، أو قد يعجل بولادة مبكرة لا قدر الله! .

وحتى حين يتجاوزني رهاب الترحال بين الأسئلة المشروعة والتفاصيل الدقيقة، والتي قد تكون وهمية أو مجرد احتمالات بعيدة، فإنه لا يعود هاجس الاستقرار وحده ما يشغلني، وإنما هواجس أخرى، كأن أتخيلني وحيدة فوق سرير الولادة، إذا ما حضر مصاب جلل، فأوجب تأبين الموت على الاحتفاء بالميلاد.

في ظل تلك الأجواء المائرة، كان لا بد أن أعيد النظر في مجموعة من الأفكار والآراء الشائعة التي نسجت بخيوط الحرير والذهب، وهي تروي حكاية العشق الأزلي بين الحامل وجنينها، حتى توقعت أن تكون للجنين بركة ما، أو قدرة خاصة على استبدال القلق بالاطمئنان، والرعب بالسكينة. فإذا بي أكتشف أنه هو نفسه، وقبل حتى أن يرى النور، لا يهمه شيء في الدنيا، بقدر ما يهمه تأمين استقراره، وأن يخرج إلى الوجود في ظروف مواتية للعيش الآمن؛ لأنه كلما تحرك في بطن أمه، ذكَّرها بحركته الوشيكة خارج بطنها! .

إن الوعي بوجود الجنين والإحساس به، لا يسعفان الحامل في كل الأحيان، في اجتياز صراط الواقع المأهول بالقلق والقلاقل؛ لأنها قبل أن تفكر في رفاهية التواصل والتحاور معه بواسطة التخاطر «اللاسلكي»، كما ينصحها «العارفون» بخبايا الذات النسائية! ، ستجد نفسها مضطرة، أولاً وقبل كل شيء، أن تتكيف مع بداية شعورها

بالعجز عن الحركة والتنقل بحرية وخفة، مثلما كانت تفعل قبل أن يرتفع وزنها ويتضخم بطنها! . وثانيًا، أن تتقبل، بروح رياضية، إحساسها العميق بالفشل أو الإحباط، أمام فقدان السيطرة والتحكم في مجرى الأحداث، ما دامت تعيش في ظل ظروف زئبقية! .

يكفي أن تجد الحاملُ نفسها في أجواء خارجة عن توقعها وآمالها، حتى تدرك بأن العلاقة المحلوم بها بينها وبين جنينها ليست فريدة من نوعها، بحيث تخرج عن نطاق العلاقات الإنسانية الأخرى، وإنما هي جزء منها، ترسم معالمها الظروف المحيطة بها. فلا الجنين ولا الحامل يملكان القدرة على خلق جو مثالي من أجل التواصل بينهما، ما لم تسمح الظروف بها.

لا شك أن كل تجربة حمل هي تجربة قائمة بذاتها. عالم بالغ الخصوصية، فريد بتفاصيله وجزئياته. لذلك تختلف كل حامل عن سواها، باختلاف العقول والبصمات، وأيضًا باختلاف قدرة كل واحدة على الإحساس أو الإدراك بما يعتمل بداخلها أو بمحيطها الخارجي. إنها خلاصة حياة ومعرفة، على مدى تسعة أشهر، كل شهر فيها بسنة مما يعدون! .

لذلك لا يمكن أن نقول بلسان واحد: «كلنا تلك الحامل». لكن هذا لا يمنع أن تكون هناك قواسم مشتركة بين معظم الحوامل؛ لا سيما عند لحظات الذروة التي تميز تجربة الحمل. مثل فترة الوحم، بحيث تستطيع كل حامل أن تقرأ أحاسيس نظيرتها، بتفهم وتعاطف أيضًا؛ لأنها حالة فريدة لا تنسى، ناهيك عن اليوم الموعود الذي تتذكره كل والدة، بالنكهة نفسها! . فضلاً عن المخاوف والهواجس التي لا يمكن أن تدعي حامل بأنها في معزل عنها، وأعني ما يتعلق بسلامة الجنين وصحته، منذ بداية الحمل، وحتى ساعة الصفر.

لذلك يمكن القول بأن ما يدور في عقل الحامل، إجمالاً، وما يجيش في نفسها، هو أكثر بكثير مما يتحرك داخل بطنها! . ولا مجال للمقارنة بين عدد الأفكار والخواطر التي تتهاوى عليها، وبين عدد الهزات والركلات التي تباغت سكينتها وهدأتها، آناء الليل والنهار! . ويكفيها أن تعيش حالة من الصراع بين إكراهات المرحلة القادمة، التي تتوعدها بالانزلاق في شرك الإهمال ونكران الذات، وبين أمانيها وأحلامها الوردية.

أصبح إذن، من باب أولى، أن نسأل عن أوان الأمومة، وظروف نشأتها، ومواسم رحمتها؛ لأنه يبدو أن الحديث عنها أثناء الحمل، يوشك أن يكون حديث خرافة في بعض الأحيان!.

ولا ينبغي أن تشعرنا هذه الحقيقة بالخجل أو الصدمة. فلو كان مكان الأمومة الرحم وموطنها البطن، لما أقدمت حامل، وهي «أم بالفطرة»، على قتل جنينها بالإجهاض!. ولو كانت الأمومة واهبة للرحمة والرأفة، لما ضربت أمٌّ بطنها انتقامًا من جنين الشؤم!. ولو كانت الأمومة تنمو موازاة مع نمو الجنين، لكفتها شر الإحساس بالاكتئاب وهذيان الوحم خلال الشهور الأولى!. ولو كانت كل حامل أمّا بالفطرة، منذ أمنا حواء وحتى آخر النساء، لما تخلصت بعض النساء الغربيات من أجنتهن ابتداء من الشهر السادس، ودون أعذار طبية، لا لشيء، سوى لربح الوقت و العودة المبكرة إلى العمل!، أو لَكُنَّ امتنعن عن التدخين أو تعاطي المخدرات أثناء الحمل، بوحي من «الأمومة الفطرية!».

حين سألت الشاب الذي أجرى له الجراح المغربي النابه، البروفيسور وجيه المعزوزي، أول عملية زرع قلب في المغرب، إن كان لا يزال يحب خطيبته كما كان يحبها بقلبه القديم، قال لي: «ما زلت أحبها، ونحن نستعد للزواج». وفي الحقيقة، هذا ما كنت أتوقعه من سؤالي؛ لأني كنت أعتقد دائمًا أننا نحب بعقولنا، لا بقلوبنا، عكس الطاقم التقني الذي كان يرافقني والذي اندهش لجوابه؛ لأنه كان يعتقد بأن موطن الحب هو القلب!.

وحجتي في ذلك بسيطة؛ وهي أن العاقل قد يتمادى في عشقه حتى الجنون، كما حدث للشاعر ديك الجن الحمصي، الذي هام على وجهه في الفيافي، حسرة وندمًا على قتله لزوجته وحبيبته إثر وشاية كاذبة. أما المجنون فلا يستطيع أن يعود إلى قواعد عقله سالمًا؛ لأنه لم يعد بوسعه سوى مراوحة زنزانته من حيث هو. وحتى إذا أحب بعقله المعتل، فإنه لن يسعفه على التعبير عن مشاعره بالشكل الذي يتقبله المحبوب العاقل، لأنه لا يتواصل إلا مع عالمه الخاص والمغلق، بعدما فقد التواصل مع العالم الخارجي. وبذلك سيكون حاله مع هواه، كحال المختلة أو المتخلفة عقليًا، التي تعرضت إلى اعتداء جنسي، فحملت. فلا عقلها أسعفها على فهم المصيبة التي حلت بها، ولا «أمومتها الفطرية» ألهمتها التواصل مع جنينها أو سبيل العناية بوليدها. فمتى يبدأ أوان الأمومة؟.

***

١٤ / ٢ / ٢٠٠٤م

نظرية الصراصير!

شاءت الصدفة أن تتفق دعوتي لصديقتي إلى تناول العشاء في مطعم «لاماما» الإيطالي، بفندق الشيراتون في أبوظبي، مع الاحتفال بعيد القلوب الحمراء!.

كان الجو بهيجًا، دافئًا، غربي السمات والنكهات، وكأننا في أحد مطاعم ميلانو الجميلة. و قد ازداد انشراحي وانتعاشي حين قدمتني صديقتي لإحدى زميلاتها الطبيبات، حيث أوصتها بي خيرًا، إذا ما قادتني الظروف يومًا ما إلى المستشفى الذي تعمل فيه وكنت في حاجة إلى خدمة أو مساعدة.

رغم أن صديقتي طبيبة، إلا أنني لم أسألها يومًا عن معلومة تخص الحمل والولادة، وذلك تجنبًا وتحاشيًا لمعرفة حقيقة، إن بدت لي تسؤني!. لذلك فضلت الصمت على مدى خمسة أشهر، وهو عمر صداقتنا، اللهم إلا سؤالاً شرعيّا، كنت مضطرة للاستفسار عنه، وقد طرحته عليها بطريقة غير مباشرة، ومن وراء حجاب، كي لا تفضحني ملامح وجهي!.

فكان أن بعثت إليها رسالة هاتفية، عشية شهر رمضان المبارك، كتبت فيها: «أخت في الله تظن أنها حامل، وحجتها في ذلك، استمرارها في أداء فريضة الصلاة، فهل تصوم غدًا، الأول من أيام الشهر الفضيل، أم تفطر خوفًا على سلامة وصحة الجنين؟». فجاءَ ردها فوريّا وساخرًا، ناصحة «أختنا في الله»، أن تتقي الله في نفسها، وتؤدي فريضة الصيام، وأن تتجنب الإفتاء في أمور دينها بغيرعلم!!.

قبل الدخول في أجواء الحمل، كنت قد بدأت بتنفيذ مشروع الامتناع عن طرح أسئلة تخص العقيدة أو العاطفة، لأني اقتنعت، بما لا يدع لي مجالاً للشك والتجاهل، بأن الخوض في أمور عقائدية وعاطفية متلفة للوقت ومضيعة للود والجهد أيضًا، بل مدعاة للبغضاء بين المتجادلين. فلن يرتد ذو ملة أو عقيدة عن عقيدته، كما لن يتخلى عاشق عن معشوقه!.

واليوم أضيف محظوراً آخر: الامتناع عن مفاتحة الحامل بشأن حملها، إلا إذا جاءت المبادرة منها، خاصة إذا كانت مثلي، يؤذيها الحديث عن مخاوفها!.

وفي الحقيقة، لست أدري، حتى الآن، ما الذي حمل صديقتي على الامتناع عن مُباغتتي بالسؤال، وهي الطبيبة!. فقد دأبنا على الحديث في شتى المواضيع، العامة والخاصة، ما عدا الحمل والولادة!.

هل كانت تقرأ الخوف الجاثم في عيني، ورأفة بي، تحاشت إزعاجي؟ ربما. لكن «ربما» هذه، كانت سارية المفعول، حتى اللحظة التي عَزَمت الصديقة على اختراق الحواجز دون مقدمات!. وهكذا ومن غير استئذان، أخذت في الحديث عن اليوم الموعود!، ذلك اليوم الذي تنتظره كل حبلى بفيض من الخوف والرجاء. وأغرب ما في الأمر أنها استهلَّتْ حديثها منذ البداية بأسلوب مذهل، جمع بين التحدي والسخرية. وهذا ما لم أكن أتوقع حدوثه أو سماعه حتى في أمتع الأحلام!.

لقد أخبرتني أنها أثناء المخاض، لم تصرخ ولم تبك كباقي النساء، ولم تستنجد بالأولياء الصالحين، بل اختارت أجمل أسلوب وأشيكَهَ!. لقد استنجدت بالرحمة الإلهية، وتحلت بأجمل ما في الصبر، وأبهى ما في الجَلَد، وأروع ما في الشجاعة، وأعظم ما في التحمل، ثم استحضرت سيدتنا مريم، عليها السلام، حين كانت «وحدها»، قرب جذع النخلة. لذلك تعاملت مع اللحظة، بما يليق بها من قدسية وقدرية، وجبرية أيضًا؛ إذ لا فائدة من الصراخ أو العويل، أو العض على الأيدي، فكلها لا تجدي نفعًا ولا تقي من ضُر. وهكذا ظلت صابرة، متماسكة، إلى أن قضى الله أمرًا كان مفعولاً.

وكذلك كان الحال في ولادتها الثانية. فكانت أعجوبة زمانها، ومثالاً مثيراً للدهشة والغبطة، حتى لزميلاتها الطبيبات وهن يولدنها. أما عدتها وزادها لمواجهة ذلك اليوم العصيب، فكان دعاء والدتها، بأن يعجل الله عليها بالفرج، والتخفيف عن محنتها، ولم يكن معها لا زوج ولا أخ ولا خالة.. وإنما كانت في معية الله.

لا شك أنها وهي تحكي لي مثالها الرائع، لم تكن تدري أني كنت أحتاج إلى معجزة كي تنقذني من براثن ذلك الوحش المخيف. والمعجزة بالنسبة لي لا معنى لها عندي،

سوى أن أسمع امرأة تتحدثُ بسخرية عن مصيبة أصابتها! تمامًا مثلما كنت أعجب لسماع مفكرين ومبدعين وهم يتحدثون عن سنوات سجنهم وتعذيبهم، بحس ساخر متعال عن أهداف المعذبين والجلادين! . وها قد تحققت معجزتي في هذا اليوم الأغر! .

قلت في نفسي: «هكذا حتمًا سأكون، ولن أقبل بغير هذا المثال بديلاً! . هكذا يكون التعامل مع الأهوال وإلا فلا. الخوف لا تهزمه إلا المواجهة، وأنا أهل لها!» . . سيكون مخاضي راقيًا، صامدًا، حكيمًا، عاقلاً! . لن أكون أقل منها شأوا وثباتًا، كما لن أكون كسائر النساء الباكيات، الشاكيات، اللائي من كثرة ما يبكين، فقدت دموعهن الوقع والتأثير! . وإن لم تكن لي من قبل قدوة في الحياة، فها هي ذي قدوتي في المخاض! . يا سلام! . مخاض دون استدرار شفقة الطاقم الطبي! .

لن أصرخ ولن أبكي، وإنما سألوذ بالصمت والكبرياء. بل لمَ لا أكون أفضل من صديقتي؟، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون! . سأوظف ما أتمتع به من حس فكاهة ودعابة، لإضفاء جو البهجة والمرح على أعضاء الفريق الطبي المكلف بتوليدي، حتى يشهد لي الجميع بندرتي في الوجود! .

ودَّعْتُ الصديقة بفرحة تخفي حجم فرحتي الحقيقية؛ ذلك لأنها لم تكن تدري، وأنا أتذوق أشهى الأطباق الإيطالية، تحت نغمات حكاياتها البطولية، أنني كنت أنتقمُ، في صمت ساخر، من تلك النظرية الاتقائية التي أسميتها، ذات مواجهة: «نظرية الصراصير!»، والتي تقتضي من معتنقها توقع الأسوأ، تخفيفًا وتقليلاً من حجم الخسائر أو الكوارث المتوقعة. إنها، إلى حد ما، نظرية نافعة لمن لا يقوى على الصبر عند الصدمة الأولى، بحيث تؤهله، نفسيًا، إلى تقبل ما لا يمكن أن يتقبله على حين غرة، مما قد يعرضه، لا قدر الله، إلى شلل نصفي أو عجز عن الكلام.

لكنها، في الوقت ذاته، سلاح ذو حدين، بالمعنى السلبي للعبارة، إذا ما تم التركيز فقط على الحد المظلم من السلاح، إذ يصبح ضررها أكثر من نفعها، بحيث لا يمكن لصاحبها التفكير إلا في الأسوأ! . وبالتالي فهي، أي نظرية الصراصير، تُقصي وتُلغي كل الاحتمالات التي قد تسعفه على توقع الأحسن، أو على الأقل، تريح دماغهُ من التفكير في حتمية وقوع الأسوأ! .

ولأنني محتاجة إلى الاستئناس والتكيف مع توقع الأسوأ، فقد غاليت في اعتناقها، حتى ألغيت تمامًا إمكانية الولادة الطبيعية! . لذلك ما حدث اليوم، باغتني وهز قناعتي ورجرج نظريتي، إذ فتح لي أحد احتمالات الأمل التي كانت موصدة إلى الأبد! . لقد استطاعت صديقتي، ليس فقط أن تزيح عن ذهني حتمية القيصرية، بل استطاعت أيضًا أن تبيع لي حلمًا مرفهًا ما كان يخطُر على احتمالاتي الضيقة؛ وهي أن ألد ولادة طبيعية وبدون أوجاع اعتيادية! .

وهكذا أحسست، ولأول مرة منذ بداية الحمل، أنني أنعتق من نظريتي البائسة التي ابتكرتها ذات يوم، حين كنت طالبة أقيم في أحد أجمل بيوت الطالبات في الرباط . وذلك بعدما دعتني الضرورة القصوى للبحث عن حل أواجه به الصراصير المقيتة، التي كانت، بين الفينة والأخرى، تفرغ عليَّ، أنا وصديقاتي، وابلاً من الذعر والنفور، حين كنا نهم بفتح غرفة الحمام أو أحد الدواليب! . فرغم كل التدابير الممكنة لإبادتها والقضاء عليها، كانت الصراصير مصرة على مباغتتنا بقفزاتها الشنيعة. ولم يبق لي سوى حل واحد، لتخفيف بُغض رؤيتها وصرخة لقائها: توقع الأسوأ!، وما يقتضيه من استعداد مستمر ومتواصل لتوقعها متأهبة للتملي في وجهي العزيز!، ليس فقط في أماكنها المعتادة، وإنما في كل سنتيمتر مربع داخل الغرفة! . لأني كنت ولا أزال أتساءل عن جدوى وجود الحشرات «الأليفة» داخل الغرف والمنازل، غير مقدرتها على استنزاف مخزوني من التقزز والاشمئزاز منها! .

أيهما أسلم: «نظرية الصراصير» أم «بيع الأحلام؟» . سَنرى .

***

١ / ٣ / ٢٠٠٤م

ثورة الإعلام العربي!

إن أنْسَ، لا أنسى يوم امتدت إلى وجه صديقتي، على حين غفلة ودون مقدمات أو أسباب، يد والدتها، وكأنها لسان أفعى تلسع كرامتها أمامي. لا لذنب اقترفته، سوى لأنها انتبهت إلى زر قميصها العلوي الذي كان مفتوحًا، سهوًا، حين التقيناها صدفة، ونحن نعبر الطريق المفضي إلى بيت إحدى صديقاتنا، للاحتفال بعيد ميلادها الرابع عشر..

لم أفهم، وأنا عائدة إلى البيت، متأثرة لجرح الكبرياء، أن أم صديقتي كانت مدركة، كمعظم الأمهات اللائي كن يحرصن على مراقبة شكل بناتهن وملابسهن وسلوكهن، بأن الأنوثة قنبلة موقوتة وجب اتخاذ كل الإجراءات اللازمة لمنع انفجارها، بدءًا بإلزام الفتيات على ارتداء ملابس محتشمة، لا تشف ولا تصف.

ولم تكن الأمهات الطيبات يدرين أنه سيأتي يوم قريب، يجدن فيه أنفسهن وحيدات، وهن يهللن لعروض الأزياء المحتشمة، فيما تشرئب الأعناقُ، وتجحظ العيون، نحو عروض الأزياء المثيرة، عبر الشاشات الصغيرة، ليدركن أن ما كُن يخشين انفجاره صار هو ذاته ما يرجى تفجيره!!!.

لم تكن الأمهات حاضرات حين اتفق بعض «رواد الفضاء» العربي في بداية التسعينيات، وبعدما خضعت لهم الأبصار في كل بيت عربي، على خلع ثوب الحياء عن بنات الأعمام والأخوال والخالات، طالما بقيت القرابة بعيدة ولا تتعدى الشاطئ الفيروزي!... ولم يسألوا الأمهات ذلك السؤال الذي، قبل أن يستكمل طرحه، سال له اللعاب: «ماذا ستفعل الصبايا وهن واقفات أو مستلقيات أو متكئات على سرر مرفوعة أمام الكاميرات؟!».

لذلك جاء الرد مناهضًا لقيم الأمهات، فكان بمثابة ثورة حقيقية على مبادئ وتعاليم بعضهن، حين كن يغالين في طمس معالم الأنوثة وسحقها عند بناتهن. وأيضًا، انتقامًا

للأحفاد من الأجداد، الذين كانوا لا يألون جهدًا في وأد الأنوثة الغراء! . فكانت الشاشة الصغيرة أسرع وسيلة وخير منبر لنشر تعاليم القيم الجديدة، الثائرة على أعراف القبيلة! .

إن أنْسَ، لا أنسى يوم جاءني أحد الأتباع المخلصين، لنشر تعليمات رواد الإعلام العربي الجديد، وقد وجدني أراجع إحدى التقديمات أمام الكاميرا، وكان همي الوحيد هو النطق السليم والتشكيل الصحيح، المراعي لقواعد اللغة العربية. ولم يثنني عن مواصلة القراءة سوى ما لمحته من نظرات كانت أقرب إلى الإشفاق منها إلى الثناء. وكنت أظن أنه سيشيد بجمال صوتي وحسن إلقائي، إلى أن قطع الشك باليقين، حين أفهمني، بسرعة وبدون مواربة، أن ما يهم في حضور المذيعة على الشاشة، هو كفاءة صدرها، لا لغتها أو صوتها!!! .

رغم أن ما قاله الخبير المحنك كان صدمة معرفية جديدة في حياتي، إلا أنه كان صادقًا وواضحًا. فقد تبين لي بعد حين، أنه لم يكن ينطق عن هواه، وإنما عن هوى مسوقي السلع والإعلانات عبر الشاشات العربية الجديدة. لذلك لم أندهش كثيراً، حين كانت المشرفات على ملابس المذيعات في إحدى المحطات الفضائية الشهيرة، ينصحنهن بحشو صدورهن بلفائف القطن أو الإسفنج المخصص لذلك الغرض. إلى أن بدأت بعض المذيعات يزهدن في تلك الطرق البدائية، من خلال إجراء عمليات جراحية لنفخ صدورهن بمادة السيليكون المحببة! .

لكني في مرحلة لاحقة، فهمت أن حتى النهود المتدفقة لا تكفي كي تتمتع المذيعة بكفاءة عالية في الإغراء، ولا حتى جمالها، وإنما ما تنضح به من إشارات شبقية وموجات حسية، حتى لو كانت تمثل الجدية وهي تقرأ نشرة أخبار سياسية!!! .

لقد أصبح من صميم عمل ثلة من المذيعات «الفضائيات»، إحياء خلايا الجواري النائمة في أجسادهن وجوارحهن! . وهذا بالضبط ما كان ينميه ويصقله أحد مروضي المذيعات، الذي وكلت إليه مهمة تشذيبهن وتطويعهن، وفق مواصفات وأحكام الشاشة الجديدة! . فقد كان يحارب فيهن التلقائية والبسمة الطبيعية، بينما كان يحرضهن على الإثارة والتهييج، مع الإصرار على الاحتفاظ بقدر ضروري من الغباء المحبب. عساهن ينلن رضى المشاهد العربي، تاج رأس المحطة ومدللها الغالي! .

لقد كانت وصيته السرية لكل مذيعة، مطيعة ومطواعة، أن تدخل في حالة قصوى من الشبق والهيجان أمام الكاميرا، كما لو كانت في خلوة مع عشيقها، بحيث ما أن تنتهي من وصلتها الهوائية، حتى يُدمن مشاهدها وصالها عن بعد، ويقسم بالثلاث، إن لم يجدد اشتراكه فوراً مع القناة!.

عبثًا، يوهمنا مروضو هؤلاء الفتيات الطيبات، ومَن خلفهم في الكواليس، بأنهم أبدعوا سُنة حميدة لتمشي على هديها فتيات المحطات العربية الأخرى، أو أنهم ابتكروا شكلاً جديداً لمخاطبة الجمهور العربي، يرتقي إلى مرتبة الريادة والإبداع؛ لأن ما يطمحون إليه لن يصل حتى إلى أدنى درجات التقليد المعتوه، لما نشاهده في الفضائيات الغربية. فحتى لو كان في مخططهم إمتاع المشاهد العربي بما يرضي الشكل الفني، فإن معظم ما قدموه لنا، حتى الآن، كان يولي عناية فائقة بالمضمون على حساب الشكل، وهذا هو الإعجاز المعجز!. فمنذ انتشار هذه القنوات، كالوباء، وهي تزود فتياتها بروح الذل والخنوع، حتى تحولت بعض شاشاتنا العربية إلى سوق نخاسة، لتحيي من جديد ميراث الاستعباد البائد!.

ليس صحيحًا أن المشاهد العربي عاجز عن التمييز بين جودة ما يُقدم له ويعرض عليه من برامج ونشرات إخبارية، سواء عبر الفضائيات العربية أو الغربية. كما أن المشاهدة العربية ليست قاصرة عن التمييز بين فتيات أكرهن على الإغراء على الهواء، وبين مذيعة منوعات تظهر على الفضائيات الغربية، وهي تنضح بما وهبها الله من مواهب حقيقية في مختلف المجالات، فضلاً عن خفة الروح وحسن التخلص، والقدرة على الإصغاء، وسرعة البديهة، ناهيك عن الذكاء والفطنة والجمال. لكنها، مع ذلك، لا تتعدى حدود وظيفتها، فلا تنساق مع نعرة الإغواء، لتتماهى فجأة مع ممثلات أفلام الإغراء!. ذلك لأنها ابنة ثقافة عقلانية، تحتكم إلى العقل، والعقل نور ومقياس. كما أن الفن حس وإحساس بما ينبغي من جرعات. فلا إفراط ولا تفريط، حتى لا تختلط الأدوار، فتبغي مهنة على أخرى!...

قد يدعي أحد هؤلاء القيمين على هذه القنوات الفضائية، أنه باختياره التعيس لنموذج الفتاة العربية، التي لا تُحسب عصرية ومتحررة في نظره، إلا إذا ألبسها ثوب

الغباء وكساها بحلة الإغواء، أنه بصنيعه هذا، سيُسدي خدمة لصورة المرأة والفتاة العربية في الغرب، أو أنه سيحررها من الأيدي الآثمة التي دفنتها حية في الشرق!.

كلا يا سادة يا ثوار!. الغرب أعلم وأقدر على التمييز بين المرأة العصرية والمرأة الجارية!. لذلك لا يمكن أن تتمتع المذيعة الغربية، وهي تدير البرامج الحوارية، إلا بالكفاءة والاقتدار؛ لأنها محررة فقط لخدمة «صاحبة الجلالة» وليس لإرضاء نزوات الحاشية و خدام البلاط!.

أي نعم، الغرب هو مبتكر العري في الفنون كلها، وهو من أغوى المرأة بلباس ثوب حواء، سواء كانت زوجة رئيس، كما فعلت جاكلين كينيدي حين ظهرت فوق أغلفة الصحف عارية، أو على شاطئ البحر، كما تفعل كل النساء والفتيات في الغرب، لكنه من الصعب أن تُجري مذيعة برنامجٍ ثقافي أو سياسي، حواراً مع ضيفها في شؤون السياسة أو الفلسفة، وهي ترتدي تنورة تبدي مقدمات مؤخرتها!!!.

وحتى لو استطاعت أن توفق بين إعمال العقل وأعمال الإغواء في آن واحد، ولن تستطيع!، فإنها وحدها ستتحمل مسؤولية إدارة الحوار. ولن تعتمد على من يلقنها ردود الفعل والتدخلات المناسبة، والأفكار المربكة، والأسئلة اللوذعية التي يمدها بها مُعد البرنامج، في الخفاء، بواسطة جهاز الواصل السمعي المختفي خلف أذنها!. فتبدو للضيف وللمشاهد بأنها ماردة الإثارة الحسية والفكرية على حد سواء، ليجد الضيف نفسه وحيداً، أعزل في ساحة النزال، وقد تربصت به ترسانة الأنوثة الفتاكة، وترسانة المد اللوجستي الخفي!. وتلك إحدى خصوصيات إعلامنا العربي التي لا يقوى عليها الغرب، مهما تذاكى علينا!!!.

ولأن الغرب قادر أيضًا على فرض ما يجب فرضه على المشاهد، كي يرتقي بذوقه وفكره وعقله، وقادر على تسويق نشرات أخباره السياسية وبرامجه الثقافية والوثائقية، وبيعها بأسعار عالية، دون التذرع بمقولة: «المشاهد عاوز مياصة»، فإن مذيعته الفضائية، والتي تتمتع بقدر كاف من الحرية والاحترام والحق في ممارسة المهنة بمهنية عالية، لن تجد من يلومها على جديتها، وهي تقرأ نشرة الأخبار!. ولن تكون ملزمة على حفر ابتسامة إغراء شفيفة، لا تفارق محياها، متى ما أشعلت الكاميرا ضوءها

الأحمر، حتى لو كانت تقرأ، على «الأوتوكيو»، أخباراً تمزق القلب على فلسطين الحبيبة، وأخباراً مرة على العراق وهو يتفتت.

ليس عُري الفتاة العربية، ولا حتى سعيها نحو الإثارة الحسية، هو ما يزعج الغيورين على الإعلام العربي، من مشاهدين وعاملين، وإنما هي عقلية ما يمكن تسميتها: «من كل بستان زهرة» التي تُضيع على إعلامنا العربي طريقه المستقيم نحو الاحتراف والمهنية، وفق المعايير والمقاييس العالمية، سواء في البرامج المسلية أو الجدية. بحيث يصعب على بعض القائمين والمسؤولين، وضع الحدود والفواصل بين عبير أزهار اللوتس والنرجس والفل والياسمين، لذلك تختلط علينا الروائح، فاقدة نفحاتها المميزة!. إذ يبدو والله أعلم، أن «ولي الأمر» لا يقنع بأن تُبدي مذيعته المحبوبة ما يلزم من الجدية، وهي تقرأ نشرة الأخبار!، وإنما يحبذ أن تمزج بين بحة مذيعة المنوعات، ونظرة مغنية الإغراء الأولى، وبسمة الفنانة الشقية. إلخ... فتكون محصلة الخلطات أن تقمصت مذيعته مجموعة من الوظائف والأدوار، ما عدا وظيفة مذيعة الأخبار!، ناسيًا أن وراءها مهنية تحت الذمة، ومشاهداً لا تهمه الإثارة الحسية، بقدر ما تهمه مصداقية الخبر، على الأقل، وهو يتابع نشرة الأخبار!. و السبب يرجع، والله أعلم، إلى كونه يعتقد بأن كلاّ من المحطة والعاملين عليها والقمر الصناعي، ملكيته الخاصة!.

لذلك وجب على المذيعة أن تأخذ بعين الاعتبار عين المسؤول، حتى ينظر إليها بعين الرضى، لا بعين المهنية!. فلا عجب إذن أن تحاور رجال الفكر والسياسة المحترمين، وهي ترتدي فستان السهرة المنشرح، كي تضفي على «قعدتها» جوّا من الحميمية الدافئة، بحيث تكسر جدار الشاشة الفاصل بين الأستوديو وبين الصالون أو حتى غرفة...!، حتى لا يمل مشاهدها الملول من جدية الموضوع، فيهجرها إلى من تُسليه وتنسيه همومه، على رأي المسؤول.

وما تلك الهفوات إلا نقطة من بحر ما ينقص بعض إعلامنا العربي، من خط تحريري واضح ومستقل، ورقابة مستبدة وتعتيم على مصادر المعلومات، وعبارات الفتوحات الوهمية: سافر واستقبل، ودشن، وعزز، وبحث في القضايا ذات

الاهتمام المشترك، إلخ . . . تلك العبارات المكرورة، التي باتت كأغنية رثة، أبت الإذاعة الرسمية إلا أن تسمعها لمستمعيها كل صباح، غصْبًا عن آذانهم!.

أخيرًا، لا لوم على هؤلاء المذيعات الطيبات إن حرصن على إحياء نعرة الغواية في أنفسهن، وتنافسن تنافسًا مريرًا فيما بينهن، لأنهن أدرى بما ينبغي عليهن فعله، حفاظًا على مواعيدهن الأسبوعية أو اليومية، في غرفة الماكياج، طالما لا توجد منطقة حرة، تسمح للمذيعة العربية بممارسة حقها في المهنية، دون شرط أو قيد. وحتى إن وجدت، فهي نادرة أو بقيود أخرى! . . .

***

١٩/ ٣/ ٢٠٠٤م

الصورة والصورة الأخرى

لم أكن أتوقع أن أعود إلى البيت، في هذا اليوم بالتحديد، دون أن أعرف جنس الجنين. فلم يعد هناك ما يمنع رؤيته بعدما أتم شهره الخامس. وكنت أظن أن حصة الموجات الصوتية خصصت لذلك الغرض، إلا أن الممرضة أفهمتني غير ذلك؛ أي مجرد الاطمئنان على صحة وسلامة الجنين، ليس إلا. وحين سألتها عن سبب احتفاظ المستشفى بسرية جنس الجنين ومنع تسربه إلى علم الأمهات والآباء، أخبرتني بأن بعض الأزواج يستشيطون غضبًا، إذا ما علموا بأن المولود القادم أنثى!. ولا يكظم غيظهم سوى تطليق زوجاتهم أو مضارتهن بأخرى، علها تفي بالغرض، وتأتيهم بولي العهد!.

طمأنتها بأنني متأكدة أن زوجي لن يطلقني إذا أخبرته بأن الجنين أنثى؛ لأنها أمنيته وأمنيتي كذلك، عساها أن تفشي بالسر، لكنها امتنعت. ثم افترقنا على ابتسامة، أولها حلو، وآخرها مرارة على امرأة تجازى بالطلاق، ولا ذنب لها سوى أن مشيئة زوجها تتعارض مع مشيئة الله !!!.

قبل أن ينفتح أمامي الباب الزجاجي، وأنا أهم بمغادرة المستشفى، أدرت وجهي صوب غرفة انتظار الأزواج، والتي كنت أراها بالأمس رمزًا للسكينة والمودة بين الزوجين، فإذا بها تتحول اليوم إلى غرفة لإدارة العمليات الماكرة!.

لم تُخرجني من حالة الغضب والحنق، سوى إشارة رسالة هاتفية، بعث بها أخي ليدعوني إلى فتح بريدي الإلكتروني. وكان ذلك أول ما فعلت حين وصلت إلى البيت، لعل ذلك يخفف عني هول ما سمعت.

كانت الرسالة مختصرة، لكنها مرفقة بصورة رضيع، يبتسم وهو يتحداني بجماله الملائكي وسعادته الغامرة!. فأدركت أن في الرسالة عبرة، وأنها أبعد ما تكون عن

مجرد صورة بريئة! . لقد كانت تذكرة لما ينتظرني، واستدعاءً لحنين داخلي إزاء المولود القادم، وهو لا يزال في أيامه الأولى، كي أميل إليه وأحنو عليه. والأهم من ذلك، كي لا أهاب الاقتراب منه! .

كان من حسنة تلك الصورة أيضًا، أن ألهمتني البحث عن مصدر الثقافة التي أنتجتها، وهي تحتفي بقدوم مولودها الجديد. وكان مفتاح الدخول إلى بوابتها، مجرد تغيير لغة البحث من العربية إلى الفرنسية، في أحد مواقع غوغل على شبكة المعلومات الدولية. فكانت لحظة مذهلة وأنا أشاهد الصور البديعة والجميلة تتلألأ أمام عيني، فوق الصفحات المخصصة للعناية بصحة الحامل الجسدية والنفسية، وكل ما يلزمها من نصائح وتوجيهات لرعاية المولود السعيد. دون أن تتجاهل تلك الصفحات أناقة الحامل وعنايتها بشكلها وهندامها ورشاقتها، منذ أول الحمل وحتى آخره، كي تبدو حلوة مشرقة، وهي تستعد لأعظم دور في حياتها.

لم أكن أتوقع وأنا أتنقل بين الصفحات! ، أنني سأجد في اليوم نفسه، التعليق الشافي للرد على تلك التقاليد الإبادية والأعراف القبلية البائسة، من خلال إشارة أحد الأطباء إلى أهمية دور الزوج في مشاركة زوجته أبسط أمور حياتها، من قراءة وتسوق وأعمال البيت، بحيث يكون لها سنداً وشريكًا حقيقيّا في السراء والضراء، حتى يشد من أزرها ويشعرها بتواجده الفعلي ، فلا تحس لحظة واحدة بأنها وحيدة أو مهمَلة.

كما دعا الزوج إلى تجنب تلك العبارة المكرورة التي يقول فيها لزوجته: «أنا سعيد من أجلك لأنك ستفرحين بمولودك»، واستبدالها بما يُفهم الزوجة بأنه سعيد لنفسه أيضًا بمجيء مولوده هو! ، وذلك حتى يتحمل مسؤولية فرحه وتعبه، منذ إعلان الحمل وحتى ما يشاء الله. وكي لا يقول الزوج لزوجته في حالة غضب: «خذي ابنك!» على غرار تلك العبارة سيئة السمعة التي نعرفها جميعًا! . . .

كانت تلك الصفحات القليلة، كافية كي تفهمني بأن الحمل همٌّ ووعيد فقط في ثقافة بعض أوساطنا العربية، وأيضًا تأهيل لها على إنكار ذاتها وتدريبها على إهمال جسدها وكيانها، كي تتحول، في أقصى سرعة ممكنة، إلى أم مضحية تلعب دور الضحية! . ولم أوت ذلك من تلقاء تخميناتي، وإنما من وحي الصفحات المخصصة للعناية بالحامل في بعض المواقع العربية ، وكأنها تفوح بعبق مستشفياتنا العربية. نفسُ الروح والرائحة!!! .

كان أول ما استرعى انتباهي في تلك الصفحات الكابية، غياب اللون والصورة! . ولعل ذلك راجع إلى قناعة من تكلف بتصميم تلك المواقع على الشبكة، بأن الصورة وأخواتها، رجس من عمل الشيطان! . مما جعلها تبدو وكأنها سجل حكومي، لتقييد شهادات الوفيات! . ناهيك عن بعض المواضيع التي أدخلت على نفسي الكآبة، وهي تصب جام مدادها على تلك الفتاوى الدينية التي تدور رحاها حول «ركن» الجماع: أهميته، فوائده، مناقبه، فضائله. خاصة على الزوج، حتى لا يكون به خصاصة!، فيعرض عن بعله أو ينكح غيرها! . أما إذا كان الجماع سيشكل خطراً على الجنين، جاز التخفيف منه! . لكن لا مناص منه، أي الجماع، بُعيد دم النفاس مباشرة، أثناء الرضاعة، خلال سكرة الموت، قبيل قيام الساعة، رغم جنون البقر! . . . حتى بعد انقضاء فترة الوحم، وجدتني مجتاحة بموجة جديدة من الاكتئاب والغثيان! . .

قلَّبْتُ ما تبقى من الصفحات التي أرغَمْت نفسي على قراءتها، حتى أتمعن أكثر في الإختلافات السبعة بين الصورتين والثقافتين!، فإذا بغياب اللون والعافية، يُذكرني بملابس الحامل التي كانت تنفرني من شكلها، حين كانوا يخيطون لها تلك الموديلات الفضفاضة، فتبدو ضخمة الجثة، حتى لو كانت في شهرها الثاني! . مما جعلني أعتقد أن بطني سينتفخ منذ شهري الأول، وكذلك سائر أعضاء جسدي، لولا أني شاهدت سيدة حاملا، تبدو أنيقة ورشيقة في بنطالها وقميصها، اللذين كانا يسعان حجم بطنها، وفي الوقت نفسه يحافظان على المقاس الطبيعي لأطرافها العليا والسفلى. هناك فقط، اكتشفت أن أحد أسرار البدانة، يعود بالأساس إلى بدانة الثياب المخصصة للحوامل في معظم بلادنا العربية! .

لا شك أنني لو لم أحافظ على رشاقتي حتى الآن، وأنا في شهري السادس، لكنت انبهرت بتلك السيدة الأمريكية، وهي تتمختر في خفة ودلع، في ملابسها المثيرة، والتي تعمدت أن تكون سافرةً، كي تعرض للناس نصف بطنها الأسفل ليخمنوا، على راحتهم، إن كانت دخلت شهرها التاسع أم لا تزال في منتصف الثامن! . لكن الذي حيرني أكثر من إصرارها على حقها في الإثارة، حتى وهي على وشك المخاض، حالتها البهيجة وهي تدفع أمامها عربة التسوق المحملة بالهدايا والألعاب واللوحات

والمشغولات الفنية، وكل ما يضفي على غرفة المولود الجديد لمسات الفرح والسعادة، وقد غلب عليها اللون الوردي، دلالة وإيذانًا بقدوم ولية العهد! . . .

ورغم أن الأميرة النائمة في بطن الطمأنينة والصفاء، لن تستمتع بغرفة الجمال من حولها، ولا بالصور والألوان الملائكية التي تغمر أرجاء غرفتها الوردية، إلا أن السعادة كانت تسبقها إلى حياة تنتظرها بالوعود السارة والطفولة السعيدة، وسط أحضان أسرة عاشقة، وقفت حياتها منذ إعلان النبأ العظيم، على تكريس حبها وجهدها، من أجل رعاية أميرة العز والهناء. على أمل أن تتذكر في يوم من الأيام، كم كانت محظوظة، لكونها نشأت في كنف أسرة أمريكية، تعدت بسنوات ضوئية أمنية العدل والمساواة بين البنين والبنات ولو في أدنى مستواه.

إذا قلت: «هنيئًا لك يا أميرة والديك»، فإني أقولها من قلبي، دون أدنى ذرة حسد من نفسي؛ لأني أعلم علم اليقين أن جهود المجتهد وكفاحه، مباركة من الله، حتى لو ترصدتها أعينُ قبيلة الإنس والجان! . سترعاك العناية الإلهية والألطاف الخفية؛ لأن الله عدل وحق، وأنت ابنة ثقافة عادلة، لا تُبيدُ البنات كما تُباد الحشرات! .

نامي مطمئنة، قريرة العين يا أميرتي الرومية؛ لأنك لن تكوني أبدًا سفيرة الشقاء إلى قلب أمك. وذلك من حسن حظها، فلن يتحول يوم مولدك إلى بداية أيام الشؤم والتعاسة في حياتها! . لأنها لن تُهجر ولن تُهدد ولن ينكل بها ولن تفكر في ضرب بطنها، علها تتخلص من مصيبتها الموقوتة! .

كلا، ما كل كآبة، أو حالة أسى تمر منها الحامل في بلادنا العربية، هي أمارة مس شيطاني أو نشوز موسمي أو حزن وهمي، كما يدعي المهرجون، وإنما هي ميراث وعيد، يتربص بكل أنثى لا تفي بأشراط القبيلة. وإهمال حقيقي من قبل بعض الأزواج لزوجاتهم، حتى لتشعر الواحدة منهن بأنها تعيش هي وجنينها في جزيرة نائية، وكأن لا علاقة لبَعْلها بما في بطنها! . ناهيك إن كانت تنام إلى جوار إنسي، بات هو الكابوس الذي تُمسي وتصبح على تهديده. خاصة إذا أخذته العزة بالإثم وأبى إلا أن يتبرأ من زوجته، على «خطأ» يصر على إنكار تورطه فيه، رغم ثبوت مسؤوليته، بالأدلة القاطعة والقرائن العلمية، التي تؤكد أن «كروموزوم Y» الذي يحملُ جينات الذكر التناسلية، هو المسؤول الوحيد عن تحديد جنس الجنين!!! .

الآن يا من ينصحها بالاستماع إلى الموسيقى الهادئة، والتواصل مع جنينها، الأنثى، بصوت يبعث على الطمأنينة والسكينة، أو مشاهدة مناظر طبيعية خلابة، أو أفلام «رومانسية»، ألا تبدو كما لو كُنْتَ تتهكم عليها، حين لا يكون بوسعها إلا أن تترقب أبشع الصور؟!.

***

١٥/ ٤/ ٢٠٠٤م

١٥ إبريل

ما زلت أحتفظ بصورتي وأنا واقفة في حصة اللغة العربية، وخلفي السبورة السوداء، وقد كتبت عليها بالطباشير الأبيض: «١٥ نيسان، عيد ميلادي»!. وكأنه تاريخ مجيد في سجل الأمة العربية، أو عنوان لدرس اليوم!. وأمام ذلك الإعلان الصريح، كانت زميلاتي في الصف لا يملكن إلا أن يقدمن لي واجب التهاني والتبريكات، سواء كن مخيرات أو مجبرات!. أما صديقاتي فيكن على علم بهذا التاريخ السعيد، شهرًا قبل أوانه، حتى يتهيأن على مهل، للتفكير في الهدية المناسبة!، وشهرًا بعد حلوله؛ لأنه كان يعز عليَّ أن ينتهي الاحتفال به بسرعة، فأضطر إلى تعويض ساعاته الأربع والعشرين، بما يوازي عددها أيامًا!.

وما كنت لأحظى بذلك الاهتمام، لولا قدرتي على جلب محبة صديقاتي!، وذلك لعدة أسباب، منها ما دوَّنته أختي على إحدى مذكراتي ساخرة: «نوار عاشقة نفسها»!. ولم تكن تفتري عليَّ كذبًا، بل كانت على حق؛ لأن إعجابي بنفسي، هو بالذات ما كان يغري صديقاتي بالاقتراب مني!، وما أن يتعرفن عليَّ، حتى يكتشفن ذلك المخزون الهائل من المحبة والمودة واللطف، الذي كنت أكنه لهن وأخفيه وراء زهوي بنفسي!. ولا أنكر أني كنت أتمتع بقدر من القبول والكاريزما، فكنت لا أرُى إلا وأنا مبتسمة، ضاحكة، منكتة، متعاطفة مع مشاكلهن. ولا أبالغ إذا قلت بأني كنت «شيخ القبيلة» الذي كان يدخل بخيط أبيض بين المتخاصمين ويهادن ويصلح ذاتَ البين. بل حتى خارج «مجموعتي الشمسية»، كنت أنعتُ بصفات الزعامة والريادة، مثل: القائدة، والأستاذة، والثورية، وأنا لم أتعد بعد الخمسة عشر ربيعًا!.

ولم يكن جانب من ذلك الإشعاع راجعًا لكوني كنت ذكية أو جميلة فوق العادة، ولكن لأنني كنت أملك أحلامًا فوق العادة!. كنت أقيس درجة تفوق وتميز الآخرين

بقدرتهم على ابتكار الأحلام الخارقة والعظيمة. فكان يكفي أن أسأل الآخرين عن أحلامهم، حتى أعرف قدرهم عند أنفسهم، وعندي أيضًا!.

أما حلمي أنا، فكنت أظنه يفوق كل الأحلام عظمةً ونبلاً. لذلك لم أكن أحسب مغرورة، وإنما كنت جديرة بالإعجاب، كما كان يخيل إليَّ آنذاك!. فقد كنت ابنة رجل، كلف ابنه وابنتيه، وهم لا يزالون صغارًا، بالقيام بثلاث مهمات، حين يكبرون:

أولاً: طلب العلم على مدى خمسين سنة.

ثانيًا: تحرير فلسطين.

ثالثًا: استرجاع الأندلس.

و لم يكن أبي يفرق بين الذكر والأنثى من أبنائه في تحقيق المهمات المستحيلة، والتي كانت تبدو لي ممكنة حينها!. لذلك كنت أشعر أحيانًا أنني على وشك الطيران فوق سماء مدينتي!.

في صيف ٢٠٠٣م، سألني المفكر السوري د. طيب تيزيني عما أريد أن أكون في المستقبل، متجاهلاً، عمدا أو سهوًا، أنه يحل ضيفًا على البرنامج الذي أعده وأقدمه!. فكان أن أجبته عفو الخاطر: «أريد أن أكون عظيمة!». ولم أدر كيف انبعثت نعرة الأحلام القديمة فجأةً، وكنت أظنني تخلصت من خلاياها. لكن يبدو أن الذي أيقظها في نفسي، ذلك التشابه الروحي بين د. تيزيني وبين والدي يرحمه الله!.

على الصعيد الكوني، كان من البديهي أن يكون ١٥ إبريل تاريخًا أنيقًا ورشيقًا، فهو المنتصف، أي الكمال في اعتداله والاعتدال في كماله. وواسطة العقد التي يكتمل عندها البدر، فيضيء من حوله الكون!. ناهيك عن كونه شهرًا يتربع على عرش الفتنة والجمال. فإذا كان مارس أمير الشهور، فإن إبريل، حتمًا، هو سيدها وملكها. لذلك، ليس في الأرض من لا يُثني عليه إعجابًا وامتنانًا. ولا يضيرنا أن يحكم بشهوته الخاصة، فيشرق متى يريد ويبرق متى يشاء؛ ذلك لأنه متقلب، ملول، حتى قيل عن يومه: أربعة فصول في يوم واحد!.

ولكن لله ما أعطى، ولله ما أخذ. كل ما عشته من سرور وحبور، لم يبق لي منه سوى الذكرى، بعدما حَطَّت الغربة من قدر هذا اليوم الفريد، حتى أصبح يومًا من أيام الله العادية! . لكنه مع ذلك، ظل عند أسرتي وبعض صديقاتي، تاريخًا مشهودًا، حتى الآن!، لذلك كان متوقعًا أن أتلقى التهاني عبر رسائل المحمول، أو البريد الإلكتروني، إما وفاء للذكرى أو جبرًا للخواطر! . . .

لم أعمل هذا اليوم كما كان «متوقعًا»، منسقة حفلات، أو مشرفة على مراسيم الاستقبال، أو مخرجة تنفيذية لسيناريو حفل السهرة اللائقة بالذكرى المجيدة، وإنما عملت سكرتيرة لمدام نادية، وهو الاسم المستعار الذي أداوله بين الناس، خارج العمل. وذلك بعدما أعلنتُ قبل يومين في جريدة «جولف نيوز»، مشكورة على خدماتها الطيبة، عن حاجتي لمساعدة تعمل نصف دوام، بعد أن فاجأني غياب المساعدة الإيريترية، دون سابق عذر أو إنذار. ولم أتمكن من معرفة السبب إلا بعدما جاءتني صديقتها بدلاً منها، تطلب نصف مرتبها. فعلمت منها أنها محتجزة في مكان ما؛ لأنها تجاوزت مدة الإقامة، وبأني لن أراها أبدًا.

وهكذا انهالت عليَّ المكالمات الهاتفية، كما هي العادة حين كنت أبحث عن مساعدة جديدة، كما تنهال خيوط السماء في يوم ماطر. ولم أنزع سلك الهاتف إلا بعدما اكتفيت بمواصفات المساعدة الجديدة، التي بالرغم من كثرة الفيليبينيات والهنديات، شاءت الصدفة، أن تكون فوزية، الفتاة الحبشية ذات البشرة الفاتحة، هي من تفوز برفقتي. فكان الاتفاق على مباشرة العمل في اليوم التالي، بعدما استلطفنا بعضنا البعض. وازداد تقديري لها حين اشترطت عليَّ أن أصبر عليها وأسير بسيرها، إذا ما لمست بطأ في أدائها، ريثما تتعود على إيقاع العمل الجديد. فوعدتها خيرًا وصبرًا جميلاً. ثم ودعتها وأنا أقول لها: «لعلك هدية عيد ميلادي!».

ولم أكن أجاملها؛ لأني تعبت كثيرًا خلال اليومين الماضيين، بين التسوق والطبخ وأعمال النظافة والتنظيم والدراسة في معهد الكمبيوتر، ومنتصف الشهر السابع، حتى ازددت يقينًا بأن قاسمي المشترك بيني وبين معظم الذكور، هو كراهيتي للطبخ، وتبديد الوقت والجهد في أشغال البيت الشاقة!.

رغم أني لن أحتفل بذكرى خروجي إلى النور، مما يشعرني بالتآكل والتدهور، إلا أنني آليت على نفسي، ألا أسيئ إليها في هذا اليوم بالتحديد، تقديراً لنعمة الحياة. وذلك بالتصدي على الأقل، لأسباب الغم والاكتئاب!. وعلى رأسها المكالمات الهاتفية، الخارجة عن سياق الأفراح وآدابها، حتى لا أعيد ما جنيته على نفسي قبل سنتين، حين سمحت لغيري أن يُسمعني في يوم عيد ميلادي ما مزق فؤادي!.

فقد بلغني بأن جارنا العزيز، الذي كنت دأبت على التواصل معه بنبرة أصوات الأطفال الأصغر مني سنّا، حتى بقيت في نظره نوارة الصغيرة، رغم اجتيازي فرحة الطفولة!، والذي كان يحفظنا أنا وإخوتي وأبناء الجيران أجمل الأناشيد وأعجب القصص، ويشنف أسماعنا بأغاني عبد الوهاب وأسمهان، بلغني أنه حُقِن بإبرة ملوثة أودت بحياته!.

ولنحس حظي، ما إن استفقت من وقع الصدمة الأولى، حتى تلقيت الصدمة الثانية، التي لم تقل عنها حرقة ومرارة، أي بعدما علمت أن ابن الجيران الذي كان صغيراً وجميلاً، ولم يكن يتجاوز عمره ثلاث سنوات، حين كان يملأ الفضاء شقاوة وطعامة، والذي كنت أستلهم من حشرجة صوته بعداً آخر للطفولة، وأقتبس من كلماته، الأكبر منه سنًا، قاموسا جديداً لإثراء رصيد كلماتي وعباراتي المخصصة لتقليد الأطفال الصغار!. والذي كان يغمرني أيضًا فرحًا وتفاؤلاً بمستقبل اللغة العربية، حين كنت أسمعه وهو يلعب الكرة مع أصحابه، مردّداً عبارات وجملاً حفظها عن ظهر قلب، من أفلام الرسوم المتحركة باللغة العربية الفصحى! بلغني أنه لم يتعلم حرفًا ولا أقر عينًا، وإنما أصبح مدمن مخدرات!.

فأقسمت بالله العظيم، ألا أمَكِّنَ أحداً من إسماعي أخباره السادية، ظنّا منه أنها ستسعدني في يوم فرحتي!. لذلك قررت أن أبارك للآخرين عيد ميلادي!، حتى إذا ما انقلب الحديث إلى «شجون»، ساعدت القدر فوراً على إفراغ بطارية الجوال!!!.

لولا ذلك الحادث الحزين والأليم، لما استطعت أن أكتشف وأعرف مدى زيفي، حين كنت أدعي عدم الاكتراث للأفراح والاستهزاء بجدوى الأعياد!. وأني لم أكن يومًا من الزاهدين في غنائمها، وإنما كنت مجرد انتهازية وطفيلية!. فلو كنت معارضة صادقة لطقوس الأعياد، لما كنت أول من ينقض على أفراح المائدة المحتفية بالعيد

السعيد! . ولم أقف عند عتبة الزهد إلا بعد حرمان، حين وجدتني وجهًا لوجه أمام الجدران الخالية والدار الخاوية، لا صوت ولا غناء، ولا أطباق أمي الشهية! .

مع الأيام، اتضح لي أيضًا، أنني كنت واهمة حين كنت أظن أن ١٥ إبريل، هو الفرح بعينه. وأنني مكتفية بذاتي. أفرح متى أشاء، وبقدر ما أشاء، وحيثما أشاء، وأن ليس للصُحبة والصديقات والأسرة، نصيب الأسد في خلق أجواء الفرح! . إلى أن أدركت بالصوت والصورة وأنا أستقبل كل الأعياد، بما فيها عيد ميلادي، بوجه حيادي، أنه على قدر استعدادك للفرح، يكون فرحك. وعلى قدر احتفائك به، يكرمك العيد بمباهجه وبشائره. وأن الاستعداد للعيد هو العيد. وأن ليست له عصا سحرية تُحيل شقاء الأيام إلى سعادة، وإنما نحن نسعدها أو نشقيها.

فلله دَرُّهم فلاسفة التشاؤم، الذين يصدون الناس عن التداوي بالأفراح! . فلا هم داووا أنفسهم من عمى الحواس، حتى تشابهت عليهم الأيام، ولا هم بشوا في وجوه الناس، يوم تبيض أوجه وتسود أوجه! .

* * *

١٨/ ٤/ ٢٠٠٤م

الإغماءة

أعترف أنه لا يمكن لي أن أقوم بمهامي كمعدة برنامج فكري، أو حتى كوزيرة في حكومتي الإلكترونية، ما لم أوف مهمة الحمل حقها!. ولا يجب أن أشعر بالحرج إزاء هذه الحقيقة العارية، وإنما ينبغي أن أرضخ للأمر الواقع، شأني في ذلك شأن الملوك والرؤساء، الذين يضطرهم مرضهم إلى التوقف عن مواصلة مهامهم السامية، من أجل السفر في رحلة علاج إلى حيث الأمل في الشفاء!. لذلك من الطبيعي والإنساني جدّا، أن يكون لي الحق في نصيبي من الإعياء والغياب مثلهم!. مع الفارق طبعًا، وهو أنني لن أتوقف من أجل الشفاء والنقاهة، وإنما من أجل الشروع في عملية إبداع وخلق من نوع آخر، هي حتمًا وبكل المقاييس، أهم عملية إبداع في الوجود، لولا شيوعها بين معظم النساء!!!.

لقد صحَّت مقولتهم حول تعب الشهور الأخيرة. ولا يمكن أن تضللنا حامل، مدعية بأنها تُكلف نفسها ما لا تطيق؛ لأنها بمجرد أن تبذل مجهودًا فوق استطاعتها، أو كما اعتادت فيَ الشهور الأولى، حتى تجد من يقف لها بالمرصاد ويشلها عن الحركة. لذلك نراها راكنة تحت ظل شجرة، أو نائمة فوق منضدة مكتبها أو خلف شاشة حاسوبها، أو متكئة على جدار وهي تنتظر سيارة الأجرة، إثر نوبة اختناق في التنفس أو فشل في الساقين، وقد غمرها شعور بالعجز التام عن مواصلة السير خطوة واحدة، وهو ما يجبرها على التوقف فوراً. هذا إن لم تخر على الأرض، ريثما تسترجع الطاقة والأنفاس!.

لقد بدأ الإعياء يدب إلى جسدي منذ أواخر شهر مارس، وهو غير مصحوب بشحنات التوتر، كما هو الحال في الشهور الأولى. وإنما هو إعياء شامل، يتنزل على الجسد ليطرحه الفراش، في غالب أوقات النهار. فأنهض لأجد قدمي مثقلتين دون أن

أدري كيف تسرب الإجهاد والتعب إليهما. ومع ذلك أقاومه وأحَمِّلُ نفسي فوق حدود طاقتها، كيلا أعترف بانهزامي، إلى أن لقيتُ جزائي!.

كنت في حصة «الويندوز» بمعهد الكمبيوتر، حين شعرت بدوخة تتصاعد نحو صدري، وغثيان كالموج يغمرني. فجأة أحسست أنه لا بد أن أتوجه إلى الحجرة الأخرى. فسألت الأستاذ إن كانت هناك حجرة شاغرة، بعدما أخبرته أني أوشكُ على الإغماء. وقبل أن يستوعب كلامي، فقدت وعيي!. وما كنت لأصدق ما حدَث لو لم أجد نفسي مسندة ظهري إلى جدار بهو المعهد. على يميني الأستاذ حائرًا، وزميلتي وهي تقرأ على رأسي المعوذتين؛ وعن يساري السكرتيرة وهي ترشني بالماء، وأصوات متداخلة تتشاور فيما بينها حول الكولونيا والليمون والمفاتيح!.

وفيما كنت أتحسس تورمًا في رأسي، والعرق يتصبب على جبيني، أخبرتني زميلتي أني وقعت على ظهري وضربت رأسي بمفتاح الكهرباء. وقد حدث ذلك السيناريو البارق، حين هممت بالمشي تجاه باب الحجرة، وقبل أن أصل إليها، وقعت الواقعة، وكانت وقعتها شديدة، لدرجة أنها أصابتها بالذعر. فهي مثلي، لم يسبق لها أن شاهدت إنسانا يغمى عليه بالعرض البطيئ!، اللهم إلا في المسلسلات والأفلام!. أما أنا فقد كنت فاقدة للوعي والإدراك، لدرجة أنني لم أتذكر حتى لحظة تنقلي من مكاني، بحيث مشيت وما شعرت!.

مباشرة بعد استرجاع الوعي والذاكرة، فكرت في ضرورة إتمام حصتي الدراسية، ومن بعدها التوجه إلى المستشفى من أجل المراجعة الدورية، وهو موعد مقدس لا يقبل التأخير. إلا أن الجميع نصحني بأن أعود فوراً إلى حال سبيلي. فاتبعت رأي الجماعة، التي كانت على حق. فما أن أوصلتني زميلتي إلى البيت، حتى بدأت أشعر بآلام التورم في رأسي. فلزمت فراشي وأنا أترقب استرجاع العافية ومجيء فوزية.

قبل أن أسرح في تفاصيل الإغماءة الأولى، تأملت قليلاً هذه العلاقة الفتية والقوية التي صارت تربطني بها. فلم يمضِ على معرفتنا سوى يومين، ومع ذلك حين اتصلتُ بها كي تأتي قبل موعدها لترافقنيَ إلى المستشفى، أحسست بأني أستنجد بأختي أو صديقتي، وبأني أعرفها منذ عصور. فقد كانت من الأشخاص المخلصين في عملهم،

الذين يجيدون الصمت. لذلك أحسستها قريبة مني. ولست في حاجة إلى عمر كي أعرفها. إنها كما هي: رفيعة الروح، سامية الأخلاق.

كنت في القاهرة، أرافق زوجي في رحلة عمل، حين أغمي عليَّ لأول مرة في حياتي، وذلك قبل ثلاثة أسابيع. وقد كنا في السيارة لمّا بدأت أشعر بمغص في المعدة، حسبته من شرب عصير البرتقال المخلوط بماء غير معدني، في اللحظة التي اقترحت على زوجي أن نذهب إلى خان الخليلي ومنه إلى المطار. ولم تمض سوى ثوان حتى شعرت بإعياء يدب في كتفي، قاومته في صمت وتماسك. إلى أنَ طلبت من زوجي أن يجلس جنب السائق كي أتمدد قليلاً، وما أن أكملت جملتي حتى كنت في عالم الغيب!. ثلاثون ثانية فقط، هي التي فصلتني عن الوعي، ومع ذلك حلمت حلمًا نسيته لحظة استفاقتي، حين وجدتهما يتداولان أمر نقلي إلى المستشفى.

لم أُقَدِّرْ أهمية الحادثة إلا بعدما أغمي عليَّ اليوم، وللمرة الثانية. فقد كنت أظن أني سأجد دائمًا مكانًا آمنًا للإغماء وبجانبي زوجي أو أحد الأخيار ممن أعرفهم!. لكني الآن، وبعدما ألح زوجي عليَّ بمراجعة طبيب مختص، بدأت آخذ الموضوع مأخذ الجد. لا سيما حين تبادر إلى ذهني احتمال أن يُغمى عليَّ في قارعة الطريق، ولا من يرش عليَّ الماء، أو يتلو فوق رأسي المعوذتين، اللهم أعناق عمال أفغان دانية، تطبق الهواء على «حُرمة» رماها القدر في طريق مجهول!. أو من يدري؟، قد لا أكون محاطة بسياج بشري، فتدوسني سيارة مجنونة.

ولو وقعت، هل سأقع على ظهري أم على بطني؟. فكرت أنه لا بد أن أجد حلاّ سريعًا لا يتجاوز ثلاث ثوان، أي المسافة الزمنية الفاصلة ما بين الوعي واللاوعي، على أن يتم تنفيذ الحل في حركتين اثنتين؛ أولاً: تجنب الاعتداء على الضوء الأخضر؛ ثانيًا: الجلوس فورًا فوق الأرض. لا ثالث لهما، إذا كنت في الشارع طبعًا!. وبذلك سأكون أسرع من مدير عام تلك الشركة اليابانية العملاقة، الذي يتخذ قراراته في عشر دقائق!. والحمد لله أنني في بلد آمن، فإن غبت عن الوعي لمدة ثلاثين ثانية، أو حتى دقيقتين، فلن أتعرض خلالها إلى السلب والنهب!.

كم كنت ساذجة حين ظننت أن إغماءتي ستكون ورقة ضغط فوق مكتب الموظفات المكلفات بتنسيق المواعيد، مثلما كانت سببًا رئيسًا كي يقطع زوجي رحلة عمله ويحجز

تذكرته في أقرب طائرة. فقد كنت أظن أنه من حسن حظي أن تتصادف إغماءتي مع مراجعتي الشهرية في المستشفى، فأطمئن على صحة الجنين وعلى صحتي أيضًا. لكني فوجئت بأن ما حدث لي، لم يكن ذا أهمية ووقع إلا خارج أسوار المستشفى!، وذلك لاعتباره أمرًا عاديًا وشائعًا بين الحوامل. فكان عليَّ أن أنتظر ثلاثة أسابيع، كي تنظر أخصائية الطب الباطني في حالتي، كما لو كنت قادرة أن أنام هذه الليلة، دون أن أعرف سر إغماءتي!.

في الحقيقة، كادت الإغماءة أن تكون ورقة رابحة فوق طاولة إحدى الموظفات، لولا لؤمها!. بحيث لم تأل جهدًا من أجل إحباط جهود الطبيبة الشابة، التي رقت لحالي وحاولت أن تؤمن لي موعدًا قريبًا؛ لأنها كانت خائفة عليَّ أكثر مني!. لكنها كلما ألحت على مساعدتي، زادت الموظفة تعنتًا وخبثًا. لكن، وكما يقول المثل المغربي: «إذا طردك البخيل، آواك الكريم!».

في تمام الثامنة والنصف مساء، كنت على موعد مع صديقتي الطبيبة، التي كانت تنتظرني في الباب الخارجي لإحدى العيادات. وهناك لم أجد داعيًا كي أشرح وأعلل للموظفات بأني مرهقة، وبأني لا أقدر على الانتظار ساعة أخرى، فيغمى عليَّ من جديد!. فما إن وصلتُ، حتى أجرى لي أحد الأطباء تخطيطًا للقلب. كما خضعت لعدة فحوصات، إلى أن جاء دور الطبيب الذي وصف لي الحالة تمامًا، مثلما مررت منها. وأوضح لي بأن الإغماءة تأتي نتيجة تمدد الأوعية الدموية، وذلك حين يضغط الجنين على المعدة، فيمنع وصول الدم إلى الرأس، مما يترتب عنه نقص الأوكسجين في الدماغ، وهو ما يتسبب في الإغماءة. كما نصحني بأن أجلس فوق الأرض، متى ما شعرت بأعراض الإغماءة، وأن أرفع رجليي لتسهيل وصول الأوكسجين إلى الدماغ. وهكذا أرحت دماغي، ونمت قريرة العين، بفضل ورقة الواسطة المربحة!.

***

٥/ ٥/ ٢٠٠٤م

البحث عن المعلومة!

لأني كنت أدرك قيمة الوقت المتبقي لي، والذي قد يضيع أو يُهدَر مجدداً في أي ظرف طارئ، سارعت إلى تسجيل نفسي في أحد معاهد تعليم الكمبيوتر، في بداية شهر مارس. وكان من بين حسناته، أنه لا يفصلني عنه سوى دقيقة وخمسين ثانية، مشيًا على الأقدام، إذا حالفني الضوء الأحمر!.

كان أطرف ما استرعى انتباهي، وأنا أخرج من أول حصة لي في المعهد، رفقة زميلتي، ونحن نعبر بهو الانتظار، ارتباك طلبة تعلو رؤوسهم غترة مشدودة الأطراف، دلالة على العزوبية، وهم يغضون الطرف خجلاً وحرجًا أمام مرور موكب الحريم!.

لم يكن حياؤهم مصطنعًا؛ لأن المشهد تكرر عدة مرات. فكان كلما تقاطعت خطواتنا مع خطواتهم، تنحَّوا جانبًا وأفسحوا الطريق، بنفس الارتباك ونفس الاحترام، تاركين وراءهم عبق العطر الكمبودي المخلوط بأجود العطور الفرنسية، وسؤالاً لا أعرف له جوابًا: «في أي مكان آخر، على كوكب الأرض، يمكن أن يمر موكب النساء في جو من المهابة والخشوع؟».

خلال حصص «الوورد» المشوقة، والتي كان يشرف عليها باقتدار أحد الأساتذة المخلصين، اكتشفت أن أهدافي كانت مختلفة عن أهداف زميلاتي. فقد كانت إحداهن مجبرة على تعلم نظام «الوورد»، بعدما وجدت نفسها الوحيدة التي لا تعرف العزف على الآلة الكاتبة!. ورغم تخلفها عن الركب، وعَدَتْها الإدارة بالترقية، إرضاء لمكانة أهلها. ولكن، شريطة أن تجتاز امتحانًا يؤهلها لذلك ولو شكليّا. لكننا لا نشهد زوراً إذا قلنا بأنها كانت ذكية، وسريعة التعلم، وبأنها تستحق الترقية عن جدارة!.

أما الثانية، فقد اتخذت تقريبًا الأسباب نفسها ذريعة، كي تقتلع إذنًا من زوجها، يُخوِّلها تعلم الكمبيوتر، ولو في أبسط مستوياته، لتواجه بعبع العصر وجهًا لوجه.

وحتى لا يبقى «سي السيد» هو القادر الأوحد في البيت على تطويع هذا الكائن العجيب، الذي صيَّره بعض الرجال، رمزًا جديدًا من رموز الذكورة!، حتى تهيبته بعض النساء وتحاشين ولوج غرفة جلوسه، إذا كُنَّ سافرات!.

أما أهدافي الشخصية، فكانت محددة في ثلاث نقاط: اختصار الوقت والجهد أثناء البحث عن المعلومة؛ اكتشاف دُرر الشبكة بطريقة منهجية؛ توظيف إحدى برمجيات الكمبيوتر في تقديم البرامج التليفزيونية.

مع مرور الوقت، بدأت تكتشف الزوجات بعض الأسرار والمفاتيح والحقائق التي لم تكن مبرمجة في الحسبان!، وإنما ساقتها محاسن الصدف وحسن النوايا. فقد اكتشفت إحداهن، ونحن نتجول في مواقع الشبكة أثناء حصة الإنترنت، أن زوجها الذي كانت تعتقده يقضي بياض نهاره وسواد ليله بحثًا عن المعلومة أمام شاشة الكمبيوتر، لكي تساعده في ترقية أو إنجاز بحث قيم، أو دراسة كلفه المسؤول بإنجازها، أو على الأقل، كي يثقف نفسه بنفسه، استكمالاً لتكوينه المستمر، لم يكن سوى طفل يلهو ويلعب كسائر الأطفال!. وأن رب الأسرة المصاب بنوبات الغرق المزمنة داخل الشبكة، لم يكن يفتح نوافذ الكمبيوتر، كما تُفتح الدمى الروسية، إلا ليتنفس هواء غربيًا ينسيه واجب تحمل مسؤولية البيت ورعاية الأولاد!.

وكان لا بد أن تصاب بصدمة المعلومة، شأنها كشأن أية ربة بيت طيبة، لا تعرف مزالق ومسالك الشبكة، ولم يسبق لها أن شاهدت عن قرب كيف يستخدمها بعض الكبار والصغار، سواء في البيت أو في المقهى أو في العمل، خلال وقت الفراغ الوفير. حتى صرت شخصيًا، أبتسم كلما رأيت ظهراً مقوسًا أو ملويًا أمام شاشة الكمبيوتر. أرثي لحاله ولحالي، حين كنت أحسب، أنا الأخرى، أن كل من يزور المواقع، يقسم بمواقع النجوم ألا يبرحها، حتى يصير بحرًا من العلوم!.

لكني أدركت كما أدرك السابقون، أنه حتى في الحالة التي لا يدمن فيها مستخدم الشبكة مواقع التسلية، بمختلف درجاتها، والتي يكون تركها أو مقاومتها أحيانًا أشد من مقاومة الشيطان، أنه سيتيه حتمًا وهو يبحث عن المعلومة، حتى لو كانت محددة وواضحة الهدف والجدوى!.

يكفي أن يكون الباحث من الذين يميلون مع هوى الأسواق ولا يتقيدون بورقة المشتريات، أو ممن يتحكم فيهم جهاز التحكم عن بُعد أمام شاشة التليفزيون، حتى يعاني الأمرين وهو يجاهد نفسه على الثبات والاستقرار في الموقع نفسه، ريثما ينهي ملاح الشبكة الخدوم جولته الاستطلاعية، لجمع كل ذي صلة بالمعلومة المطلوبة، خلال ما يسمى بفترة التحميل، وهي الفترة المثالية التي يمكن أن يختبر فيها «الباحث» قدرته على الصبر وضبط النفس، ونهيها عن الميل مع الهوى!.

لا شك أنه إذا لم يسبق له أن درب يديه ورجليه على التوقف التام عن الحركة، فإنه قطعًا، لن يصمد طويلاً أمام شاشة الكمبيوتر الفائرة بالدرر والغامرة بالعجائب!. وكيف لا تخونه يده أو تزل قدمه وعشرات الصور والإعلانات والتلميحات والأسعار الزهيدة، تتراقص من كل حدب وصوب، تغريه بالفضول وتعده بالسرور، وكأنها تفاحة المعصية!. فما هي إلا كبسة واحدة، حتى يجد «الباحث» المفتون نفسه قد زحف إلى مواقع أخرى، في غفلة من أمره. فاتحًا عليه عشرات النوافذ، مخلفا وراءه أكوامًا من التفاحات المقضومة، كلما تراءت له تفاحة أحلى، همَّ بها على عجل، فما أن يلمسها، حتى يلمح من جديد مُنافسة أقوى، فيسلو التي بين يديه، لتنال الطارئة الجديدة، المصير نفسه، بعد حين!.

وهكذا لا يجنى «الباحث»، من رحلة الغواية سوى قشور الثمار وسطحية العناوين!. بعدما يكون قد أنساه التيه بين خدود التفاح، العودةَ إلى موقعه الأصلي، من أجل ملاقاة معلومته المزعومة!. وحتى في حال عودته محملاً بعشرات الأمتار من المعلومات، فمن أين سيجد الجهد والطاقة والصبر على قراءة تلك الأكوام من الصفحات والعناوين، وقد هدَّهُ طول الترحال، وشهقة الافتتان!. فلا يلقى من وراء هدر الساعات الطوال أمام شاشة الكمبيوتر، سوى لعنة قضم التفاح!.

لقد أدركت زميلتي أخيرًا، أن زوجها وأمثاله، حتى لو كان هدفه البحث عن المعلومة، فإنه معرض باستمرار لغواية شيطان الشبكة، وهو ينثر له التفاح وألغام الغواية. وازدادت يقينًا أن الدردشة بالصوت والصورة مع الأصدقاء، أو ما كان يعرف «قديمًا» بركن التعارف، هو أسهل بكثير من التصميم والتركيز وإجهاد العقل، الذي لا يُفضي بالباحث، إلا إلى متاعب القراءة والفهم، وهي مصيبة ومهمة شاقة، لا يصبر عليها إلا ذو حظ عظيم!.

لكن سؤالاً طارئًا كاد يقض مضجع زميلتي، لولا أن اهتدت إلى طرحه على وجه السرعة: «وما هي الأمور التي يتحدث فيها المدردشون فيما بينهم؟» فجاء الرد فوريّا: «لا شك أنها أمور تتعلق بالسياسة أو بالدين!» ثم حمدت الله على سرعة البديهة، التي لا تسعفني إلا مرة واحدة في السنة! . مع العلم أنه من الطبيعي ألا يجازف المدردشون بدردشاتهم الخاصة جدّا، تحت أعين أهل البيت! .

لذلك يبقى ادعاءُ البحث عن المعلومة، أحيانًا، خير شفيع لمدمن الشبكة؛ لأنه مهما طال غيابه، لا بد أن يعود ومعه عذره في يده، حتى لو كانت السلة خاوية! . يكفي أن يراه الآخرون محدودب الظهر، أمام شاشة الكمبيوتر، كي يظنوا أنه كان مستغرقًا في البحث عن ضالته الضالة! .

أحيانًا تعتبر فتنة البحث عن المعلومة، فتنة صغرى مقارنة بفتنة من يدمن ترقب بريده الإلكتروني. فما أن تخبره العصفورة بأن رسالة ما في طريقها إلى عنوانه الإلكتروني، حتى تبدأ علامات الفتنة الكبرى! . بحيث يتسمر أمام جهاز الكمبيوتر، لاعنًا بطء «الياهوو» تارة وتارة أخرى، بطء خط الاتصالات. ولا يعلم بحاله إلا من خلقه! . فلو كان جالسًا بحذاء باب بيته منتظرًا مرور ساعي البريد، بالساعات الطوال، لكان حالهُ أهون ألف مرة! . فلا يهنأ له بال حتى تصله بشائر الخير. وسيان عنده إن كانت الرسالة مصيرية أو بالغة التفاهة، المهم أن يخلق لنفسه ولمحيطه طقوس استقبال بريده الموترة! . وهكذا تصبح الرسالة المرتقبة، على نفس الدرجة من الأهمية والتشويق، من تلك الرسالة التي ربطها مرسلها برِجل الحمام الزاجل، أو ألقى بها الملاح، داخل قنينة في أمواج المحيط ! .

في حصة «الويندوز» التحقت بنا زميلة جديدة، وكانت تحدثني باستمرار، عن نبوغ طفلها الذي يجيد استخدام الكمبيوتر! . ولست أدري لماذا هذه المرة بالذات، توانيت عن ادعاء انبهاري بعبقرية ابنها، تصعيدًا لزهوها بنفسها. وإنما سعيت لإفهامها بأنه من المزعج للغاية أن يتحدث الآباء والأمهات عن نجابة أولادهم ، وكأنهم سيكونون عباقرة العصر وأبطال الأمة، ما دامت العبرة بالنهاية لا بالشقاوة ! .

سألتها وأنا أدعي الجهل بوجود الشمس! : «هل يوجد أطفال في عمر ابنك يتعاملون مع الكمبيوتر؟». قالت: «طبعًا، هنا في الإمارات، معظم الأطفال يلعبون

به». قلت: «آه، هم أيضًا يلعبون مثل الكبار؟!». قاطعتني مستنكرة: «لا، أنا زوجي، الله يكون في عونه وايد يشتغل على الكمبيوتر، لدرجة أنه ينسى نفسه وعياله». قلت: «إذن، هو أيضًا يبحث عن المعلومة!». قالت: «إي والله!». قلت: «عظيم!. ولكن لا تنسي أن تتعلمي في حصة الإنترنت، كيف تقتفين آثار من يهمك أمره، وهو يتنقل بين مواقع الشبكة؛ لتعرفي كل صغيرة وكبيرة عما كان يفعله، أثناء بحثه عن المعلومة!». قالت: «صدق والله؟»، قلت: «إي والله!، لكن لا تُطلعي أحدًا على سرك وإلا ضاعت عليك المعلومة!...».

***

٩/ ٥/ ٢٠٠٤م

البشـرى

لم أفارق عالم اليقظة ليلة أمس إلا في حدود الرابعة صباحًا، لذلك نمت وأنا أفكر في احتمال إلغاء موعد المستشفى. فحين لا أنام أزيد من ثماني ساعات، يصبح مخي كالبيضة المترجرجة داخل جمجمتي. مما يشعرني بألم في عقلي وليس فقط في رأسي!. وهذا ما ينعكس سلبًا على طاقتي وإنتاجية نهاري.

وقلة النوم هذه، غالبًا ما تؤهلني إلى الصحو على مزاجين متناقضين، لا يمكن التنبؤ بهما، فإما مزاج سيئ لا ألوي به على أحد. أو مزاج مرح كمرح الحشاشين الذين يضحكون على أتفه الأسباب!. وأحمد الله أنني استيقظت هذا الصباح على المزاج الثاني، على الأقل كي أستهل يومي بشيء من التفاؤل والتجاوز، لما ينتظرني من روتين ممل داخل المستشفى، بحيث صار بإمكاني توقع حتى الاحتمالات الخارجة عن التوقع!.

كان لي موعدان هذا الصباح، الموعد الاعتيادي الشهري، والذي سوف يقدم عن موعده بأسبوع، اعتبارًا من اليوم، وذلك حتى تصبح المراجعة الدورية أسبوعية. وهي التفاتة طيبة من إدارة المستشفى؛ لأن الحامل تصبح بحاجة أكثر إلى العناية. أما الموعد الثاني، فهو ما كان من المفروض أن يتم قبل ثلاثة أسابيع يوم الإغماءة المشهود!. والذي لم تعد له أية أهمية عندي بعدما عرفت السبب. خاصة بعدما تكررت أربع مرات وفي المكان نفسه، أي أثناء حصص تعليم الكمبيوتر. فقد لاحظت أنني حين كنت أجلس أكثر من ربع ساعة فوق الكرسي، كنت أشعر بأعراض الإغماءة تدنو مني، فأستأذن من الأستاذ بالوقوف أو التمشي قليلاً أو الاستلقاء على ظهري في حجرة شاغرة. ثم أعود لاستئناف الدرس.

واكتشفت أنه كان من الممكن جدّا أن أتعرض للإغماءة في البيت لو كنت أهيئ لها نفس الأسباب!، إلا أنني في الوقت الذي لا أكون فيه ملزمة بالذهاب إلى المعهد؛

أكون إما مستلقية على ظهري، بعد أن أكون تناولت وجبة الإفطار على مهل، أو دائمة الحركة. ولا أكون مضطرة إلى الجلوس فوق كنبة أو كرسي لمدة ربع ساعة أو أكثر. لذلك كان المعهد هو المكان المناسب للإغماءة! . وهذا ما حال دون مواصلة مشروع «التعمق» في علوم الحاسوب.

بعد سلسلة ألقتها عليَّ الطبيبة الپاكستانية، المختصة في الطب الباطني، طلبت مني أن أجري أربعة فحوصات للدم، على أن يتجدد موعدي معها بعد شهر. فقلت في نفسي وبصوت شبه مسموع: «أليس بعيداً هذا الموعد..؟» ولم يكن قصدي بُعده وإنما قُرب موعد الوضع، الموافق ليوم التاسع والعشرين من شهر يونيو، والذي طُبع بكل ثقة و«دقة» فوق دفتري الأبيض، منذ اليوم الأول الذي التحقت فيه بالمستشفى!.

حين توجهت إلى غرفة فحص الدم، أخبرت الممرضة الفيليپينية بأنني في المرة الماضية، عدت إلى البيت وأنا محملة بالوساوس؛ لأنني لم أنتبه إلى إحدى زميلاتها وهي تزرع الإبرة في مرفقي، بسرعة فاقت حتى سرعة تساؤلي إن كانت أخرجتها من الكيس البلاستيكي المعقم، أم كانت معرضة للهواء والأهواء!؟. لذلك قررت اعتباراً من يومه، ألا أغفل لحظة واحدة عن مراقبة يد الممرضة!. فقالت واثقة: «كل شيء هنا معقم». قلت لها: «تفهمين ما أقصده؟». قالت: «طبعًا». ثم رجوتها بشيء من البلاهة الممزوجة بالدعابة، ألاّ تستنزف دمي النفيس؛ لأنه من الفصيلة «النبيلة» كما يطلق عليها؛ واهبة الحياة لكل الفصائل. فقالت: «أنا أيضًا مثلك» ثم أضافت «إنها أكثر الفصائل شيوعًا بين الناس!» فضحكت بوفرة على نفسي لسببين اثنين؛ أولاً: لجهلي؛ ثانيًا: لاستمتاعي بالسخرية من نفسي!.

مباشرة بعد فحص الدم، توجهت إلى حجرة المراجعة الدورية وفيها تعرفت على طبيبة جديدة، كعادة كل زيارة!. وأول ما لفت انتباهي خاتمها الجميل، فأثنيت عليه وعلى ذوقها الأجمل. وكادت جلستنا تتحول إلى دردشة حول حلي ومجوهرات «سالم الشعيبي» أو «داماس»، لولا أن أوقَفَت شرودي بسؤالها عن حال الجنين!. فقلت: «والله أنت أعلم به مني». ثم نظرت إلى نتائج ورقة الموجات الصوتية التي أجريت لي يوم الإغماءة بالصدفة، وكنت استغربت حينها لصغر حجم الجنين الذي كنت أتوقع أن أراه كبيراً!. فقالت: «لا..لا.. وضع الجنين سيىء. لا بد أن أفحصهُ

الآن». قلت مذعورة ومُجادلة في الوقت نفسه، لعلي أستطيع أن أضللها أو أموه الحقيقة: «ولكن الممرضة أخبرتني يومها بأنه تمام. فهل كانت تكذب علي؟».

لم تأبه لكلامي وقامت بواجبها. ولم يعد قلبي إلى مكانه حتى قالت: «الحمد لله، رأسه الآن أسفل، وهذا هو الوضع الطبيعي، حين يكون الجنين في أسبوعه الثالث والثلاثين». قلت: «صحيح؟!!!. بشرك الله بالجنة!». ثم أضفت: «هل هذا يعني أن القيصرية مستبعدة؟». فقالت: «تفاءلوا خيراً. طبعًا إذا بقي رأسه تحت. ولكن لو كان بقي على وضعيته التي كان عليها يوم أجريت فحص الموجات الصوتية، لكانت القيصرية حتمية!». أردت أن أعرف إن كانت وقعتي القوية يوم الإغماءة، هي التي تسَبَّبَتْ في وضعيته السيئة، لكنها لم تنسبها إلى سبب محدد وتركَتْها مفتوحة الاحتمالات.

لم أشأ أن أتركها وشأنها. إنها المرة الأولى التي أطبق فيها على أنفاس طبيبة!. وأحمد الله أنها كانت طيبة القلب، واسعة الخاطر، وفوق ذلك، عربية؛ إما من الإمارات أو من عُمان أو من البحرين!. فأنا لا أزال حتى الآن لا أميز بين اللهجات الخليجية، تمامًا مثل معظم الخليجيين الذين يخلطون بين لهجات أهل المغرب العربي!.

حين كنت في غرفة الانتظار أدردش مع حامل سودانية جميلة، تنضح حيوية وسروراً، رغم مرضها بالكلى، علمت منها أنه لا يمكن تحديد كيفية خروج الجنين حتى آخر لحظة. ولذلك لا شيء يضمن، مائة في المائة، أن تكون الولادة طبيعية أو عن طريق القيصرية. فكان لا بد أن أسأل الطبيبة إن كان سيغير وضعيته أم لا. فقالت: «لا، أبدًا». قلت: «أمتأكدة؟». قالت ضاحكة: «طبعًا متأكدة».

لحظتها فقط عادت إليَّ الروح!. وفرحت للمرة الثانية؛ أي منذ أن بشرتني الطبيبة الهندية بيُسر الحمل. وليطمئن قلبي سألتها: «كيف أساعد القدر حتى يبقى الجنين في وضعيته الحالية؟». قالت: «إنه لن يغيرها». قلت: «هل أمشي مثلاً؟». فقالت: «المشي جيد».

كنت أعرف أنها بدأت تضيق بي ذرعًا، رغم أنها لم تُبْد لي ذلك. ولولا أن رقت لحالي وأحست بفرحتي غير الطبيعية، لكانت فتحت الباب وصاحت بأخفض صوتها: «برا. . . برااااا!» لأني فعلاً كنت ثقيلة الظل! . لا بل، لقد كنت مثل قوم موسى وهم يسألونه عن ألوان البقرة! .

أما حين سألتها كيف أنام كي يحافظ الجنين على وضعيته، أدركْتُ أنني بدأتُ أخرف! . وكأنني لم أكن أعرف كيف أنام خلال الثمانية أشهر الماضية ! . وهل كنت أتوقع أن تقول لي: «نامي على بطنك مثلا؟!» .

* * *

١٦ / ٥ / ٢٠٠٤م

أقواس الفرح

قبل يومين أو أكثر أكلت كثيراً لدرجة الاختناق! . وكانت هي المرة الأولى في حياتي التي لم أستطع فيها التنفس بشكل طبيعي . لقد كنت أشعر أني محاطة في سائر أنحاء بطني بوخز الإبر أو السفافيد، وأنه كان على وشك الانفجار! . وعبثًا حاولت أن أخفف من حدة التشنجات سواء بالحركة أو بتدليك طفيف على مواقع المغص .

ولأول مرة أيضًا فكرت في التواصل مع الجنين بقصد الاستنجاد والغوث، عسى أن تسعفني حركة يديه أو رجليه على التنفس . لكنّه، وعلى غير عادته، نام مبكرًا في تلك الليلة، زاهدًا في سمر الليالي! ، فباءت كل محاولات إزعاجه وإيقاظه بالفشل! . حتى بدأت أتساءل إن كان سيتحرك من جديد بعد ذلك السكون الطويل؟! . والعجيب أني كنت أظن قبل هذا الحادث، أنه بإمكاني التحكم في توجيه حركة الجنين كيفما أشاء، ما دام تحت السيطرة، إلى أن اتضح لي أني عاجزة حتى على إيقاظه من نومه، فبالأحرى أن أعبث بتغيير بعض أعضائه عن أماكنها! .

وهكذا قضيت الليلة أتقلب مع أوجاع بطني الشبيهة بأوجاع الدورة الشهرية، وبين الخوف على سلامة الجنين؛ إلى أن ردت الروح مع أولى حركاته، بُعيد إشراقة الصباح . فنسيتُ متى سكنت أوجاعي .

طبعًا، لا أبرئ نفسي من تورطي فيما حدث لي . ولا شك أن إقبالي النهم على الأكل، هو السبب الرئيسي! . وقد ذكرتني حالتي بإحدى البائعات الفيليبينيات، حين أخبرتني بأنها تحاول أن تُلهي نفسها في العمل، رغم الإرهاق والإعياء، وذلك حتى لا تأتي على الأكل الموجود داخل الثلاجة إذا بقيت في البيت! . وكانت مثلي في شهرها الثامن، فرغم تصميمي على ضبط وزني، أفشل أحيانًا في لجم رغبة الأكل . ربما لأنني أصبحت أنتقم من اللحظات الكثيرة التي كانت تمنعني منه؛ بسبب الحموضة أو حتى

قرحة المعدة. والدليل على ذلك أن وزني ارتفع إلى ٦٤كجم. ولم أكن أخطط أن أصل إلى هذا الوزن إلا في نهاية الحمل، بحيث لا يضاف إلى وزني الاعتيادي إلا عشرة كجم. حتى تكون عودتي إلى الرشاقة ميسرة ومبكرة.

لكن ما يثلج صدري هو أن جسدي لم يسمن، تمامًا مثل تلك الحامل التي رأيتها في بداية حملي. اللهم بطني، الذي كلما لاحظت فيه انتفاخًا، قلت هذا هو حده الأقصى، منذ أن أدركت الشهر السادس، لأفاجأ به يزداد انتفاخًا ولا أعرف إلى أين ينتهي بي هذا التصعيد! . لتتضاعف دهشتي حين أرى بطن سيدة أخرى يساوي ضعف بطني!! .

في ظل تلك المتغيرات ووفاء لجسدي بالحفاظ على وزنه، كان من الطبيعي أن أشعر بحاجة ماسة إلى المشي، لأواصل الخطى قدمًا نحو الرشاقة. هذه الكلمة الرشيقة التي كلما سمعتها، ذكرتني بإحدى زميلاتي المرحات، حين كانت تقول مازحة، كلما رأت زميلة زائدة الوزن، بطيئة الحركة: «لا عليك يا فلانة، فإن الرشاقة في القلب!»؛ على غرار من يذنب أو لا يصلي ويقول: «الإيمان في القلب!». وعلى غرار أيضًا زميلنا الذي كان زاهدًا في كل المواد والحصص التي تستلزم جهدًا جسديًا. والذي كان كلما دعته الأستاذة الأجنبية للانضمام إلى حصة الرقص أو التعبير الجسدي، بادر بالقول، بعد تقديم أسفه الشديد، وكأنه شيخ ناهز السبعين: «أنا يا أستاذة أمارس الرياضة الروحية! . ليس مثل الأطفال، وهو يشير إلينا برأسه، الذين ينطون ويقفزون. لكن هذا لا يمنع أن قلبي معكم!». وهو سامحه الله، لم يكن معنا لا قلبًا ولا قالبًا، وإنما كان كسولاً، كسولاً، كسولاً. (كتأكيد الأزهريين على نعت أو صفة ما!!!).

قبيل مغيب شمس هذا اليوم، اقترحت على زوجي أن نتمشى على الكورنيش، بعدما كنت أكتفي في الأيام الأخيرة بالمشي أثناء التسوق، وهو مشي أكرهه لأنه أشَقُّ عليَّ من الركض. فالعقل مشغول والجسد موتور بالبحث عن قائمة المشتريات وتقليب العلب والمعلبات، وكل ما يقع بين يدي للتحقق من تاريخ صلاحيته. فضلاً عن الضوضاء والزحمة، والتنقل السريع بين صفوف وأرفف السوبر ماركت، واختيار الخضراوات واللحوم. . إلخ.

كان مشهد البحر ساحراً كعادته ما بين العصر والمغرب، رغم الحرارة والرطوبة. وكنا قد قطعنا مسافة عشرين دقيقة من المنزل حتى الكورنيش. لمَّا لفتت انتباهنا أنابيب مياه متوازية تروي الخضار، متصاعدة من الأرض نحو السماء على شكل زوايا متداخلة فيما بينها، وكأنها أهرام مقلوبة. ناثرة في الفضاء ما يشبه غمام أعلى الجبال.

كان المنظر مغريًا بالاقتراب منه، لدرجة أن زوجي قال لي: «لو كان الأطفال هنا لدخلوا تحت هذه الأقواس المائية». فشعرت بالحسرة على الطفولة التي لا تمنح البطاقة البيضاء لاجتياز الحدود، إلا للصغار. لكني قلت فجأة: «لماذا لا نكون أطفالاً الآن؟». وما إن ارتد إليَّ صدى صوتي، حتى توكلت على الله ودخلت تحت أقواس المياه، منتصرة لرغبة الطفولة!.

كانت الأرض مبتلة. ولم أفكر لحظة اندفاعي أني سأغرق في البلل من رأسي حتى قدمي، في أقل من ثلاثين ثانية!، لكن إحساس التحدي كان أجمل من التفكير في عاقبة الاستحمام تحت الغمام!.

***

١/ ٦/ ٢٠٠٤م

الهلال التاسع

أخيراً وبعدما ثبتت رؤية الهلال التاسع! . بدأت أشعر بوضوح تام، عدم القدرة على النهوض بسرعتي المعتادة. وهو شعور ربما يشاركني فيه أصحاب الوزن الزائد. كما لاحظت انتفاخًا في رجلي ويدي، فضلاً عن بروز الأوردة والعروق في مرفقي، لكن دون دوالي في الساقين كما يتوقع الخبراء! .

وهكذا صار بإمكاني أن أعطي تفسيراً خاصّا لمشية الحوامل، والتي كنت أظنها إحدى أعراض الشهور الأخيرة التي لا مناص منها ! . إلى أن اتضح لي بأنها تتغير نتيجة لعاملين اثنين؛ أولهما: الزيادة في الوزن، وذلك ابتداء من الشهر الخامس حين يبدأ الجنين ينمو بسرعة ملحوظة، فتتثاقل مشيتها؛ وثانيهما: طريقة وأسلوب مشيتها أساسًا، والتي تتبروز أكثر بفعل الوزن الزائد والبطء في الحركة. ناهيك عن الإعياء الشامل الذي يصيب جسدها من رأسها حتى قدمها، فتجره جرّا! . لكن بالتأكيد كلما حافظت على وزنها، وواظبت على المشي، استطاعت أن تتماسك أكثر، وأن تتحكم في مشيتها بشكل أفضل.

أما البطء العام الذي يطبع حركة الحامل، والذي كنت أعتقد أنها تتقصده تلطفًا بالجنين. لم يكن سوى رضوخ فوري دون قيد أو شرط، لأوامره الصارمة! . لأنها إذا لم تبطئ في حركتها، ستجد فوراً من يلكزها أو يضربها من داخل بطنها! . وأدنى حركة مباغتة منها، تُحَوِّلُ الجنين إلى كومة صلبة، من أجل إحباطها والدفاع عن حدوده وراحته. لذلك ليس سهلاً، بل ليس ممكنًا أن تنحني بسرعة أو تنهض من مكانها بخفة ونشاط. إلا إذا اتبعت خطوات تراعي الوضع أو الموقع الذي يكون الجنين قد اتخذه لنفسه. وبالتالي وجب عليها أخذ الإذن قبل الشروع في أية حركة، مراعاة لحرمته واحترامًا لخصوصيته وقوانينه الداخلية! .

عند الرؤية التاسعة أيضًا، ترتفع وتيرة الضربات والركلات من قبل الملاكم اللامرئي! . فتارة يصوب لكمة نازلة نحو فم المعدة، وتارة أخرى صاعدة نحو أحد الضلعين. فيخيل لي أن التمساح الذي كان نائمًا، والذي لا أستطيع أبدًا أن أعرف أين كانت رجله أو يده مختبئة، قبل أن يستفيق على حين غرة، ينوي بي شرّا ! . لا سيما بعدما علمت أن المشيمة، التي كنت أظنها من فولاذ!، قابلة للتمزق في أي حين. ليس فقط من جراء ضربة حادة، أو اختراق لا قدر الله، وإنما بسبب الحالة النفسية التي تمر بها الحامل. وهذا أكبر دليل على رهافتها ووهنها! . إلا أن ما يطمئنني حتى الآن، هو أني لم أسمع من قبل جنينًا قام بإخراج يده أو رجله من بطن أمه! .

كما أحمد الله تعالى أن وهبه القدرة على الحركة بميقات معلوم وقدر. فقد كنت أترقب في شهري الأول، بتوجس وقلق، ذلك اليوم الذي سأشعر فيه بمثل هذه الحركات المباغتة والعنيفة. ولم أكن أعلم أنه يتحرك بالتدريج، لدرجة أنني لم أكن أشعر به، خلال الشهور الأولى، من شدة لطفه ووداعته. حتى كنت أتساءل إن كان موجودًا حقيقة أم وهمًا؟، إلى أن بدأ يتحرك بأساليب مختلفة وجرعات خفيفة. فأحيانًا على شكل فقاعات ماء متدفق من بركة موحلة! . أو على شكل رعشات أو رفرفات كروان؛ كما هو الوصف الشائع على كل لسان! . وأحيانًا أخرى، على شكل ذلك الشعور المُريح الذي يحسه الجالس فوق كرسي الاسترخاء، وآلة التدليك العذبة تدغدغ جسده! .

لكنه الآن، كلما تحرك بسرعة جنونية، خشيتُ فورًا أن يغير وضعيته فينقلب الرأس إلى عقب! . فالبارحة مثلاً اشتدت وتيرة حركاته في عمق الليل، مما جعلني أنهض من فراشي وكلي عزم على مساعدة القدر كي ينقذني من قيصرية، كادت أن تكون محققة، لولا أن توقف عن الحركة! . ربما ليس لأني أوقفته، ولكن لأنه نادرًا ما يتحرك أثناء مشيي! . وهكذا واصلت نومي مكذبة كل التوقعات التي تُنذر الحوامل بالأرق في الشهور الأخيرة. لأن الشيء الوحيد الذي يوقظني من نومي، هو ضرورة الذهاب إلى الحمام. شأني في ذلك شأن كل الحوامل. وذلك بسبب ضغط رأس الجنين على المثانة، مما يعطي إحساسًا متواصلاً بالحاجة للحمام.

بعدما تجاسرتُ على تقليب الصفحات التي كنت أتجنبُ قراءتها في الشهور الأولى، بدعوى أنها لا تعني لي شيئًا في ذلك الوقت. أحسست أنه سيغمى عليَّ بمجرد أن أصل إلى عتبة المستشفى، لهول ما قرأت! . إذ كيف لي أن أواجه تلك الصعاب الموصوفة بدقة متناهية وأنا وحيدة، رغم تأكيد الكاتب على ضرورة اصطحاب الزوج أو الأم أو الصديقة، أثناء عملية المخاض. والصديقة التي وعدتني بالوقوف إلى جانبي داخل غرفة الولادة، خلفت وعدها جداولُ الإجازة الصيفية! . وأمام ما تملكني من رعب، لم أجد ما يماثل شجاعة الحامل لحظة الوضع، سوى شجاعة المحارب أو المجاهد لحظة المواجهة والاستشهاد. لذلك أعْفيت المرأة من الجهاد، فيكفيها جهاد الحمل والمخاض! .

في انتظار ساعتي، لا يسعني سوى ترقب أشراطها، والتي كان من المفروض أن أشعر بإرهاصاتها منذ الشهر السادس، كما أخبرتني إحدى الطبيبات. لكني قلت في نفسي: كيف أعرفها وأنا لم أخبرها من قبل؟ . اللهم إلا إذا كانت تعني بها تلك الأوجاع الخفيفة التي تمهد أو تسبق العادة الشهرية. وهذا ما جعلني أكون في وضع كل فتاة تنتظر أول عادة شهرية في حياتها! . فلا تدري متى ستتفجر فجأة: هل ستكون جالسة فوق مقعدها في المدرسة؟ . أم واقفة أمام السبورة، فينفضح أمرها بين البنين والبنات؟! . أم ستكون في باحة الاستراحة ولا تنتبه إلى المصيبة التي حلت بها، إلا بعدما تنهال عليها الأحجار ترشقها من كل حدب وصوب؟ . وهل يجب عليها أن تحمل معها فوطًا شهرية كل يوم في حقيبتها، مثلما تحمل كشاكيلها، درءاً للفضيحة؟!؟ .

ذات الحيرة تُغرقني الآن وأنا أنتظر أشراط المخاض! . هل سأكون في السيارة الرحبة أم في سيارة الأجرة؟ . أم سأكون في سوق السمك أم في سوق الذهب؟ .

وأنا أقلب الصفحة تلو الصفحة، أبحث عما يشفي غليل تساؤلاتي، علمت لأول مرة أن القيصرية ليست العملية الوحيدة التي تستلزم المشرط والغُرز، وإنما الولادة الطبيعية أيضًا. ففضلت الأولى على الثانية! . وهكذا بتُّ لا أعرف كيف سيخرج هذا الجنين إلى الوجود، ولا بأي الطرق والوسائل. وأيهما سيكون الأفضل بالنسبة لي؟ . لأنام على قلق جديد! . . .

٦/ ٦/ ٢٠٠٤م

من تكونُ قابلتي؟

كنت حتى هذا اليوم، لا أعرف كافة الحقوق والصلاحيات التي تُخول لي بوصفي حاملاً، رفاهية انتقاء الطبيبة التي ستكون «في حوزتي» ذلك اليوم. وهذا ما جعلني أشعر في الأيام الأخيرة، بنوع من التشرد والتشتت في أروقة المستشفى. وذلك راجع لسببين اثنين؛ أولاً: عدم السماح للحامل بمداومة المراجعة الدورية مع طبيبة واحدة. وهو ما يترتب عليه خنق قنوات التواصل بين الحامل والطبيبة. فحتى حين تنشأ بينهما علاقة مودة وألفة، رغم ضيق الوقت ووفرة الحوامل، فإنها تُمسي بلا غد ولا أمل، ما دامت فرصة اللقاء يتيمة! . وهذا ما كان يشعرني بالغربة وعدم الانتماء، وأنا في أمس الحاجة إلى راعية أو عرابة تسندني وتقويني في يوم لا همس فيه إلا بإذنها. ثانيًا: الجهل التام بأشراط المخاض وبالتدابير التي يتوجب عليَّ اتباعها إذا ما باغتني فجأة. فلم يفاتحني أحد حتى الآن في الموضوع، رغم أنه بيت القصيد! ، مما دفع بي للتساؤل إن كانت هناك مؤامرة كبرى تُحاك ضدي في صمت! .

لكني لو أردت الإحسان، يجب الاعتراف بأن هناك أسبابًا أخرى تقف وراء حيرتي، غير التي ذكرت. فأنا أي نعم، كنت أتحين الفرصة لطرح ذلك «الموضوع» للجدال، منذ أول يوم جئت فيه إلى المستشفى قبل ستة أشهر، لكن، لا «اللباقة» ولا «السياق» كانا يسمحان لي بإقحامه أثناء الحديث مع الطبيبة أو الممرضة! . لأني ببساطة كنت أنتظر أن تأتي المبادرة من إحداهن، ما دمت لا أجرؤ على اغتصاب السياق، مثلما كنت أفعل حين كان يتعلق الأمر برهاب القيصرية! .

وهكذا مع الأيام، أظن أنني أعطيت الانطباع بأن ساعة الصفر لا تعني لي الكثير! . لذلك لا ألوم أحدًا وإنما ألوم جُبني الوخيم، الذي عطل في نفسي القدرة على السؤال، كي لا أواجه الحقيقة! . وإمعانًا مني في إنصاف الغير، لو كنت واظبت على

الحضور إلى دروس التأهيل للولادة والرضاعة منذ البداية، لكنت أخذت فكرة واضحة عن «الموضوع» غصبًا عني!.

لكن الآن بعدما اقتربت الساعة، وبات الموعد على الأبواب. لم يعد بالإمكان تجاهله أكثر مما كان!. لذلك وجدت نفسي مجبرة على التحرك بسرعة، من أجل اتخاذ التدابير اللازمة للخروج من الظلام إلى النور. فكان أول حل خطر على بالي هو اللجوء إلى عيادة خاصة، لعلّي أجد فيها ما يُشفي غليلي من عناية خاصة ومركزة، تعويضًا عن ذلك الفتور العام..

لكن قبل أن أقْدمَ على تنفيذ الفكرة، اتصلت بإحدى زميلاتي العزيزات قبل يومين، كي توجهنيَ إلى اختيار أفضل عيادة، تكون الأريح والأنسب لي، كي أشعر بأني في أيد آمنة ساعة الشدة. لكنني لم أكن أتوقع منها على الإطلاق، أن تنصحني بالبقاء حيث أنا!.

فكانت شهادتها الرابعة أو الخامسة التي تشيد بعناية الأسرة الطبية بالحوامل داخل المستشفى، خاصة أثناء وبعد الولادة. وهكذا تغير الحال فجأة، لأكتشف أنني كنت أنتظر من يصلح ذات البين، بيني وبين جدرانه!. أو يحبب إليَّ البقاء فيه. ووجدت أنني حقّا ألفته كما ألفت ابتسامة إحدى الممرضات الهنديات، التي كانت لا تبخل عليَّ بها، رغم تعبها البادي على وجهها من أثر الوقوف.

هكذا ملأت نفسي حماسة وإيمانًا، وعدلت عن قرار استبداله. لكن زميلتي لم تنته عند هذا الحد، بل نبهتني إلى ضرورة اختيار القابلة التي ترافقني يوم الولادة؛ لأنها ستمضي معي وقتًا أكثر من الطبيبة. لذلك وجب التعرف إليها والاستئناس بها منذ الآن. كما نصحتني بمرافقة زوجي لي أثناء الولادة. وفورا استرجعت منظر الحامل وهي تلد في شريط الڤيديو، الذي شاهدته في حصة التأهيل للولادة!. لكن زميلتي التي قرأت أفكاري، اقترحت أن يكون زوجي جهة الرأس، فضحكنا!. ثم أضافت أن الأزواج في أمريكا لا يستنكفون أن يكونوا جهة الأقدام، كما لا ينفرون من رؤية الجنين وهو مطل برأسه إلى الحياة!.

حملت زادي من التفاؤل والشجاعة، وتوجهت هذا اليوم إلى المستشفى ونُصب عيني هدف واحد: كسر جدار الجبن وسؤال كل من يمكن سؤالها عن قابلتي!. وذلك

من خلال استعراض قائمة أسمائهن، وربما سيرهن الذاتية!، حتى يتسنى لي الاختيار وفق رغباتي واحتياجاتي!!!.

قبل أن أسأل الطبيبة، اهتديتُ إلى سؤال الممرضة حتى آخذ قدرًا أكبر من المعلومات، علَّها تساعدني أثناء المرافعة!. لكني قبل أن أكمل سؤالي، ردت عليَّ بملامح آلية: «هنا لا يُسمح للحامل أن تختار قابلتها». تقبلت الحقيقة بصمت وكبرياء، وتظاهرتُ بأن جوابها، لم يكن ضربة من يجرؤ على طرح السؤال ومواجهة المجهول!.

بعد أن طمأنتني الطبيبة على وضعية الجنين وعلى صحتي، سألتها ذات السؤال. فسمعت منها ذات الجواب!. خرجت مذهولة أبحث عن سر الأبواب الموصدة. وأول ما وقعت عيني على موظفة، سألتها إن كان بالإمكان التعرف على قابلتي، فردت عليَّ بابتسامة تتنقط سمًّا وعسلاً: «غير ممكن». سألتها عن السبب، فقالت: «كلهن زي بعض، طيبات ومتعاونات». قلت: «ولكني سأكون وحيدة». قالت: «الله معك». قلت: «تقولين ذلك لأنك لم تجربي أن تكوني وحيدة في تلك الساعة». ثم سكتُّ والحنق يجرح حنجرتي.

بعد الانتهاء من حصة التأهيل للولادة مع القابلة جاكلين، اعترضت عيني موظفة طيبة، كانت قد تعرفت عليَّ بصفتي مذيعة. فسألتها بكل ثقة عن الموضوع. فقالت: «والله يا نوار كل القابلات كويسات، بس إنتي شوفي الفريق الذي تنتمين إليه. ومن خلاله يمكن التعرف على الطبيبة التي ستكون معك».

واستغربت أن لي فريقًا وأني منتمية، وكنت أحسبني دائمًا مستقلة!. انتهزت الفرصة لأسألها عن أشراط الساعة وما يتوجب عليَّ فعله، قالت: «بسيطة، حين يأتيك الوجع تأتين إلى قسم الطوارئ». قلت: «هكذا وبهذا العري واليتم، لا حجز ولا ترتيبات»!.. قالت: «نعم، هكذا ببساطة، فإذا كان وجعك حقيقيًا ستدخلين إلى غرفة الولادة، وإلا ستعودين إلى بيتك!».

لم يكن العجيب في الحكاية ما بلغني من معلومات، خَيَّبَتْ أفق انتظاري. ولكن أن تمر ولادتي، رغم علو قدرها ورفعة شأنها عندي، في أجواء بسيطة، مثلي كمثل معظم

النساء في هذا المستشفى! . والأعجب من ذلك، أنني تقبلتُ الواقع بكل استسلام وانهزامية، دون احتجاج أو اعتراض. بل لم أبذل أدنى جهد للتعرف حتى على فريقي! . ولم أفكر في ضرورة الاستعانة بوسيط أو واسطة، حتى أحظى برفاهية اختيار القابلة، كما تحظى بها من تلد ولادة قيصرية.

على هذا الحمل أن يواصل سيره العادي، وفق الروتين الطبي المتبع لدى المستشفى. فولادتي ليست مهمة إلا في خاطري. فقط يجب أن تكون السيارة في كامل جاهزيتها، وأن يكون خزان بنزينها مليئًا! . ذلك أقصى ما يمكن أن أتخذه من تدابير لذلك اليوم المجهول! .

* * *

١٣ / ٦ / ٢٠٠٤م

خطوات التواصل

منذ بداية الحمل كان التواصل مع الجنين لا يعدو أن يكون حالة من الترقب لقضاء الله في صمت واحتساب؛ ذلك لأني لم أتخيله لحظة واحدة بنتًا! . ولم أكن في حاجة لإجراء فحص الموجات الصوتية لتأكيد صحة حدسي؛ اتقاءً لأمرين اثنين قد يكون أحلاهما مر: فإما أن أتحقق بالدليل القاطع من جنسه، فتفتر فرحتي قليلاً، أو أن أبشر بالأنثى فأهيم بها فرحًا. لكن ما أن يتبين لي بالعين المجردة، أني كنت ضحية فراسة طبية عاثرة، حتى أكون مثل تلك الأم التي، حين بُشرت بالأنثى، اسود وجهها وصاحت في من حولها: «أبعدوها عني، لا أريد رؤيتها!». وأنا لا أريد أن أكون مثلها، إذا كان المولود ذكرًا.

حالة البين بين هذه لازمتني إلى غاية الأسابيع الأخيرة. وكنت أتعايش معها بالتجاهل والإنكار!؛ وذلك بتجنب الحديث عن الجنين. خاصة حين كنت أتخيل كيف يمكن لحياتي أن تنقلب رأسًا على عقب بين عشية وضحاها؛ أي من الهدوء والصمت، إلى التوتر والضجيج بسبب المولود القادم. ويا ليتها كانت بنتًا فتستحق مني ذلك العناء والتضحية!. فإنجاب الولد لن يكون سوى أداء لواجب الإنجاب وتحقيق للذات الأنثوية. أما إنجاب البنت فمتعتهُ وحلاوته.

وقد خبرت هذا الإحساس من قبلُ، من إحدى صديقاتي التي لم تنجب سوى الذكور. الأمر الذي حرمها من تذوق فرحة الإنجاب. بل حتى آخر صديقة تعرفت عليها، تمنت لي بنتًا. وحجتها في ذلك أن الأولاد حين يكبرون، يُهملون آباءهم وأمهاتهم، عكس البنات.

أنا لا أكره الأولاد بطبيعة الحال!. لكنها مسألة ميل وارتياح بالدرجة الأولى. والدليل على ذلك أني كنت دائمًا أقلد حركات وأصوات الأولاد الصغار. وأفرح معهم وأحبهم كثيرًا. لكني لحظة الحلم كنت أتخيلني رفقة بنت في المقام الأول. إلا أنني، طوال فترة الحمل كنت عاجزة عن الحلم، عملاً بنظرية الصراصير!. وكم كنت

أستغرب لزوجي الذي كان يتحدث عن الجنين بصفته بنتًا! . فكانت اللحظات الوحيدة التي كنت أستطيع فيها أن أحلم كما أشاء، وأتخيلها كما أريد: حلوة الروح، فاتنة الحضور، تشرق فرحة وسروراً، وتملأ الدنيا شقاوة وطعامة! وما عداها، كنت لا أحسن سوى تكميم خيالي! .

في العمق، ما يجعلني أتوجس خيفة من أن يكون الجنين ولداً. هو أن ينشأ في ثقافة تعتبر الوداعة واللطف ورقة المشاعر، انتقاصًا للذكورة أو حتى وصمة عار فوق جبينها! . أو أن يفهم الرجولة على أنها عنف وتشرد في الشوارع وتوحد مع الذات! . وأيضًا كيلا يتصور نفسه بطلاً أو لاعبًا محترفًا، تلهث وراءه الأندية الكبيرة. وهو قابع في ركن من أركان البيت، لا يفعل شيئًا سوى التنقل بين قنوات كرة القدم؛ يعرق، يتعب، يصرخ، يغضب وهو لا يحرك رجلاً! فلا هو أراحني من ضجيج الملاعب المزعج، ولا هو تريض قليلاً في أرض الله الواسعة! .

من البديهي القول إن جنس الجنين لم يكن شغلي الشاغل! . لأنني بمجرد ما كنت أفكر في ذلك الاحتمال الممكن، لا قدر الله، والذي يقض مضجعَ الآباء والأمهات بين الفينة والأخرى، حتى أدعو الله أن يمن علينا بمولود سليم، وأن يجود عليَّ بولادة طبيعية. لذلك ما إن بشرتني الطبيبة الخليجية بإمكانية النجاة من القيصرية، حتى شعرت بأن غمّا كان جاثمًا على نفسي وانزاح. فكان ذلك الخبر السعيد أول خطوة حقيقية نحو عملية التواصل والتحاور فيما بيننا. ولم يمض على البشرى سوى أسبوعين، حتى جاء ذلك اليوم الجميل، الذي رأيت فيه وجهه جهرة من عمق الغيب والغياب. فكان بحق صدفة قدرية بالغة الروعة! .

كنت في قسم الموجات الصوتية أطمئن على سلامة الجنين برفقة الممرضة الفيليبينية، حين أشرق وجهه الوضاح مكتسحًا شاشة الجهاز، عكس كل التوقعات والاحتمالات؛ لأنه نادراً ما تمنح الصدفة رفاهية رؤية وجه الجنين بوضوح تام. وفي غالب الأحيان لا يُرى سوى جزء من أطرافه، أو صورة بانورامية عنه. لذلك قلت حين رأيته: «عمدًا أراد أن يريني وجهه الصبوح، عمدًا!» . وكأنه يتحداني إن كنت سأتجنب الحديث عنه بعد ذلك اليوم! . لقد كان أجمل من قسمات وجهه الحلوة، ذلك

الإحساس المنبعث مباشرة بعد رؤيته، والذي جعلني أشعر لأول مرة أنه ليس غريبًا عني، وأنه ليس ذلك الولد الذي لن أحبه!.

هكذا طويت الصفحة على فترة صمت، دامت زهاء ثمانية أشهر، أي مذ كنت أسرع الخطى، كلما مررت بالقرب من الأجنحة المخصصة لملابس الحوامل وحديثي الولادة، متحاشية إلقاء نظرة عليها ولو من بعيد، رغم أني كنت في شهري الثاني!. ولم أفطن إلى تغلغل خوفي من كل أيقونات الحمل والولادة، إلا بعدما أشحت بوجهي، بشكل لاإرادي، كي لا أرى الجنين، حين كان الطبيب يعاين حالته الصحية في أحد المختبرات الخاصة في أبو ظبي. ولو لم ينبهني أخي في محادثة هاتفية، في نهاية شهر نوفمبر، إلى ضرورة فهم سلوكي غير الطبيعي، لمررت عليه مرور الكرام أو لاعتبرته طبيعيًا!.

لم أفكك شفرة نفوري من الجنين ومن عالم الولادة برمته، إلا حين شاءت الصدفة الجميلة أن أرى وجهه. لحظتها أدركت أن الذي يقف وراء علاقتي المتوجسة والمريبة بالجنين، كوني «أحَمِّله مسؤولية» خضوع بطني إلى قيصرية محتملة أو محققة!. ذلك لأن رؤيته تحيلني رأسًا إلى الجنين الذي مات في بطن أمي، وكان السبيل الوحيد لإخراجه، بعد أن أتم شهره الرابع، هو القيصرية. وهذا ما يفسر أيضًا نفوري من ملامسة الوليد؛ لأنه يكون خارجًا لتوه من بحيرة الدماء، تاركًا وراءه نهرًا من الآلام وجرحًا لا يلتئم مع الأيام!. لذلك أيضًا، كنت مُعرضة عن قراءة كل ما يتعلق بحياة الجنين. ولولا جهلي بها، لما استغربت من سؤال الطبيب، الذي بدا لي ساعتها بديهيًا وهو يعاين الجنين، إن كنت أسمع دقات القلب. فجاء جوابي بكل ثقة: «نعم، إنها دقات قلبي!». لكنه بدوره استغرب من جهلي بأمور بديهية، قائلاً: «كلا، إنها دقات قلب الجنين!».

يوم رأيت وجهه، نسيت تعب الرحيل، ما قبل الأخير، الذي كان بانتظاري، والذي دام أكثر من عشر ساعات دون توقف. وهزمت كل المخاوف المحتملة، بعدما أقنعت نفسي بأني سأجد الوقت الكافي للنوم والراحة والكتابة، عكس كل التوقعات المنذرة بالسهر والتعب والضجيج. وبدأنا نركز فقط على الجانب الوردي من المرحلة المقبلة، وكُلُّنا شوقٌ للعب معه أو حتى به، ويقين بأنه لن يلعب على أعصابنا!. إذ لا

يعقل أن أستسلم كما تستسلم كل الأمهات! . فحسبُه أنه سيكون مصدر سعادة وفرح . ولأول مرة شعرت وكأنني في انتظار وصول عزيز إلى البيت .

قضيت أوقاتًا سعيدة وأنا أشاهد ملابس الأطفال الشبيهة بملابس الدمى! . وكم كانت حلوة ومتنوعة، مقارنة مع ندرة وقلة ملابس الحوامل الجميلة! . وكُنَّا نُركِّزُ خلال جولات التبضع فقط على الألوان المحايدة كالأبيض والأصفر والأخضر، بدرجات ألوان الباستيل المريحة للنظر . وكدت أتعدى الحدود الفاصلة بين اللونين الأزرق والوردي، لولا أن لفت انتباهي وجود زركشات وتطريزات ودانتيلا على الملابس الوردية المخصصة للبنات، فضلاً عن أن معظم الملابس الوردية كانت أساسًا في شكل تنوارت وفساتين . فأدركت أن القرار آتٍ من فوق! . وأنه لا يجوز أن يبغي لون على لون! .

أمر آخر كدت أن أقع فيه، وهو الانسياق وراء شهوة شراء تلك الملابس الفاتنة، التي لا تقاوم إلا بشق الأنفس، لولا أني كنت أتذكر بين الفينة والأخرى، نصيحة الطبيبة الباكستانية، التي أوصتني بشراء ما قل ودل . على الأقل حتى أتبين إن كان المولود ولدًا أو بنتًا! . وألا أفعل مثلها حين أنجبت بنتها الأولى، واشترت لها كمية هائلة من الملابس، وما إن مر أسبوعان حتى صارت أصغر منها! .

لكني ما إن كنت أسلم من إغراء الملابس، حتى أقع في شرك إغراء الألعاب التعليمية! . فينصحني زوجي ، من جديد بالتريث؛ لأن الوليد لن يستمتع، مثلي، بها منذ اليوم الأول! . وهذا دليل على أن الألعاب التي تملأ غرفة المولود الجديد، لا تعكس سوى أذواق وأهواء الآباء والأمهات! . وكنت كلما عدنا محملين بأغراض وملابس جديدة، أنشرها حيثما شاء لها النشر . أتأملها، وأفرح بها كما لو كان الوليد بداخلها! . لكني سرعان ما أتذكر أنني لن أراه فيها إلا بعد اجتياز محنة الصراط! . .

اليوم وأنا أشاهد شريطًا بصريًا في حصة التأهيل للأمومة والرضاعة تحت إشراف القابلة جاكلين، التي كنت أتمنى أن تكون قابلتي . اكتشفت لأول مرة أن الوليد يفتح عينيه منذ اليوم الأول! . أي منذ خروجه من بطن أمه، وليس بعد مرور عدة شهور، كما كنت أعتقد! . وكم كان منظره وديعًا ولطيفًا وهو يبحث بالفطرة عن ثدي أمه، ليرضع رضعة لا يظمأ من بعدها أبدًا! .

أثناء المشاهدة، خطر ببالي لأول مرة ذلك السؤال الدفين: «ماذا لو كان المولود القادم بنتًا؟!. وشعرت فوراً بشلال من الفرح والانشراح يغمرني. فعلى مدى تسعة أشهر، لم أسمح لنفسي، ولو لحظة عابرة بطرح هذا الاحتمال. وكل ذلك بسبب نظرية الصراصير، سامحها الله!. أو قد تكون اللغة هي أيضًا أحد الأسباب؛ لأن كلمة «جنين» مذكر. وهذا ما جعل الحديث عنه دائمًا في صيغة المذكر. مما سهل ترسيخ الاعتقاد عندي أنه ولد وليس بنتًا!.

هذا المساء، وأنا أضع ملابسه بجانب ملابسي داخل حقيبة السفر الصغيرة، فكرت في جرح محتمل، في آلام قد تحول دون فرحتي، في خوف جديد من المجهول، في ليلة أولى أقضيها في بياض المستشفى. وأني سأعود بالمولود الجديد، ولن أجد في البيت من يحتفي بقدومه. وفي غياب المحتفين: من سيحتفي بمن؟...

***

٢٠/ ٦/ ٢٠٠٤م

آخـر الصـور

الأيام تمضي بسرعة، ليس على الزمن المتبقي من موعد الولادة، وإنما على المُقام الطيب في هذه الإقامة الجميلة، الذي يصيبني تذكر فراقها، بعد ثلاثة أشهر، بوخزة الحزن. فما بالك بفراق البلد الذي لم أرتو من حبه بعد.

أنظر عبر النافذة المترامية الأطراف، لأرى في المدى، ما بين البنايات العالية، فجوة تطل على الشاطئ الفيروزي وهو يغريني بفسحة بحرية فوق دراجة مائية، توقظ الموج الهادئ من غفوته الصيفية. لكني، أجد نفسي كما كنت ولا أزال؛ أكتفي بالحلم أو التمني!. ليس كسلاً أو تهاونًا، وإنما هي الأقدار التي تشاء ما لا نشاء في غالب الأحيان.

خلال السنوات الأربعة الماضية، أوقفت الزمان والمكان في جزر ثلاثة: غرفة مكتبي، أستوديو التصوير وغرفة المونتاج، من أجل برنامج كان اسمه في يوم من الأيام«مبدعون». وهكذا تجمدت كل مشاريع الفرح والابتهاج في كنف بلد، يعز على المرء أن يحبس فيه نفسه بين أربعة جدران. حتى أبيدت كل الخلايا المطالبة بالاستقلال والحرية. وحذفت من قاموس أيامي كل الكلمات التي تدل أو تحيل إلى معنى الفراغ أو التسلية. وصرت أقسم لمن يجادلني في الوقت، بأني لا أملك يومًا واحدًا للراحة. ولا حتى ساعة في الشهر لممارسة الرياضة. الآن لي نصيب من الفراغ كمعظم الناس، لكن نصيبي الأوفر في العجز والعياء!.

مع تقدم الحمل صرت أشعر كما لو كنت سأفارق الحياة في غضون أيام. وهو شعور ذو حدين، فمن جهة ألمس في نفسي إقبالاً غير عادي على الحياة. ومن جهة أخرى، أشعر بأن شيئًا ما سيتغير وهذا ما يصيبني بالحزن والأسى. لكني، رغم إحساسي بدنو الأجل، لا أملك سوى أمنيات بسيطة!؛ كأن تكون بجانبي رفيقة أو صديقة، تشاركني

السير على إيقاع ساعتي الخاصة، أقرأ معها، أتفسح معها، أتسوق معها، أستمتع معها بما تبقى لي من هدوء وسكينة، تمشي معي سير الضعفاء، ولكن شريطة ألا يتبع صداقتها مَنّ أو أذى، مما يجعل أمنيتي، على بساطتها وتفاهتها، مستحيلة!.

فمن هي هذه الإنسانة التي ستتنازل عن حياتها وشؤونها الخاصة لتكون رهن إشارتي؟، وأنا لا أجرؤ حتى على إزعاج مساعدتي كي ترافقني أثناء المشي على الكورنيش أو التسوق، أو حتى تدشين مسبح الإقامة، الموجود فوق رأسنا في الطابق الخامس عشر، خوفًا من إحراجها أو إرباك برامجها الخاصة، كي لا تظن أني أستغل نفوذي!.

لذلك، سرعان ما أوصد باب التمني، وأكتفي بدعاء التعجيل بالفرج، حتى أكفل نفسي بنفسي، وأعود إلى مشيتي السريعة وحيويتي، دون قيد أو شرط. وأهم من ذلك، أن تنتهي مهمتي بسلام مثلما بدأت. وكما يقول المثل الذي يضحكني: «كم حاجة قضيناها بتركها!». لذلك عدلت عن نزوة السباحة واستبدلتها بما هي أبقى: الصور الجميلة. وعلى غرار ما فعلت في شهر مارس ونهاية شهر إبريل، عدت إلى آلة التصوير لالتقاط لحظات مشرقة وسعيدة، تخليدًا لذكرى هذا الحمل المجيد!. لم أكن طبعًا خلف عدسة آلة التصوير كعادتي، وإنما أمامها. فيما وُكِلَت المهمة الفنية إلى زوجي، مشكورًا على صبره، ممدوحًا على حسه الفني.

وهكذا تمكنت من أخذ صور بهيجة على «ضفاف» مسبح الإقامة، متنقلة بين أجهزة قاعتها الرياضية، كي أدَّعي في يوم من الأيام أني كنت أمارس رياضة حمل الأثقال، وأنا في شهري التاسع!. وكم كنت أتمنى التقاط صورة أنثر فيها رمال الخليج عاليًا في السماء، وقدماي تلامسان أمواجه الصبية، إلا أن الرطوبة العالية كانت تغمر العدسة بخارًا وندى.

لكن مع ذلك، استطعت أن أقدم لنفسي بالصورة الحلوة، الدليل القاطع، على أني لم أكن تلك الحامل، التي كانت تنفرني من الحمل أو من شكل الحوامل!.

وهكذا تمكنت من تجاوز تلك اللحظات الشجية، عن طريق خلق واقع أجمل وربما أبقى؛ لأن الذاكرة نسَّاءة. فلا «أحد» سيعرف ما الذي كنت أتوق إليه، أو ما الذي كان ينقصني، وهو ينظر إلى تلك الصور السعيدة، المشعة نضارة وحياة!.

حفاظًا مني على روتين المشي الضروري بالنسبة لي، بصفتها الرياضة الوحيدة التي تقدر عليها الحامل في شهرها الأخير، ذهبت هذا اليوم إلى «أبو ظبي مول» خلال فترة الصباح، فلم تعد الحرارة ملائمة ولا مشجعة على المشي بعيداً عن المكيفات. لكن ما يفقد متعة المشي، أكثر حتى من الإعياء والإحساس بالثقل، تلك الضرورة الملحة للذهاب إلى الحمام، بين الفينة والأخرى. وهذا يستلزم من الحامل قبل أن تخطو خطواتها الأولى، أن تبحث، أولاً وقبل كل شيء، عن مكان الحمامات! . لأنها حتماً بعد مرور عدة دقائق سيراً على الأقدام، ستضطر للذهاب إليها.

طبعًا هناك رياضة أخرى أقل تعبًا وأخف وطأ، وهي الصلاة بالنسبة للحامل المسلمة. والآن فقط أقف عند نصيحة أخي لكبار السن، حين كان يعدد فضائلها ليس بوصفها عماد الدين فحسب، وإنما أيضًا بوصفها رياضة متكاملة وقائمة بذاتها، مثل الرياضات الآسيوية الحكيمة، كاليوجا والتايتشي وغيرهما! . وكم كانت تضحكني نصيحته؛ لأن الرياضة التي كنت أعترف بها، هي التي تنهك الجسد، وتسيل العرق، وتمزق العضلات إربًا إربًا! . وما كنت لأصل إلى قناعته، لولا تجربة الحمل التي علمتني قبل أوان الكبر وعوادي الأيام، أن للجسد طاقة محدودة، لا تسعفه في كل الأحوال على تبديدها أو تصريفها كما يشاء.

كان إذن من الطبيعي أن أتوجه إلى الحمام، حيث التقيت فيه بسيدة كانت تجلس فوق كرسي مخصص للمُرضعات، وهي ترضع ابنتها ذات العينين الخضراوين. إستلطفنا بعضنا البعض. أثنت عليّ بقولها إنه لا تبدو عليّ أمارة الشهر التاسع والأخير! . كما أثنيتُ على جمال ابنتها، ثم سألتها عن أشراط الساعة. لم يكن عندها شيء يذكر، ما عدا الإشارة إلى ماء أو دم ينزل فجأة، يعقبه وجع. وليس هناك ما يبشر أو ينذر بها غير هذه العلامات. ثم روت لي أشراط ساعتها: كانت تتبضع في إحدى الأسواق ذات مساء، حين بدأت تشعر بعد عودتها إلى البيت بانسيال ثم وجع خفيف، إلى أن توجهت إلى المستشفى برفقة زوجها.

حملت هذه المعلومة وتوجهت إلى حصة التأهيل للولادة والرضاعة، تحت إشراف القابلة جاكلين. وكان موضوع درس اليوم، كيفية غسل الوليد.

عند نهاية الحصة حييتها قائلة: «نيكست ويك». فردت عليَّ بابتسامة ترسم تساؤلاً بعينيها وحاجبيها، معناها: «هل سنراك حقّا في الأسبوع المقبل؟!».

***

٢١ / ٦ / ٢٠٠٤م

نهاية مرحلة

قبل يومين امتنع الجنين عن الحركة لساعات طويلة، لدرجة القلق على حالته. إلا أنه عوَّض ذلك السكون المفاجئ بحركات جنونية ومتواصلة، منذ منتصف ليلة البارحة وحتى الرابعة صباحًا. بعدها بساعة استيقظت إثر نزول ماء بلون الماء. كدت أتساءل عنه، لكنني قلت لنفسي: «أهذا وقت النعامة؟!».

كان زوجي نائمًا حين أخرجت الحقيبة لأضيف إليها بعض الأغراض الناقصة. كنت أتحرك سواء في اتجاه الحمام أو المطبخ أو داخل غرفة النوم ببطء تام وبرجلين شبه مقيدتين، خوفًا من أن ينزل الجنين قبل الأوان!. استعنت بالمناديل الورقية في غياب الفوط الصحية، التي لم يخطر على بالي أن تكون عدتي في ساعة مماثلة!.

ارتديت ملابسي ثم اتجهت إلى المطبخ. وضعت الكوارع التي اشتريناها ليلة أمس من سوبر ماركت مدينة زايد في المجمد، والتي كان من المفروض أن تكون وجبة غداء اليوم!. وضعت الحمص المنقوع في الماء داخل الثلاجة، وأنا أعرف أنه سيتسنى إذا بقي هناك أكثر من يومين. أقفلت الحقيبة. فكرت في الاتصال بالمستشفى. بعثت رسالة إلى فوزية كي تأتي في موعدها المعتاد إلى البيت، ثم رسالة أخرى إلى أخي كي يدعو لي. أيقظتُ زوجي، الذي أخبرني بمجرد أن فتح عينيه، بأنه لم يتفاجأ لإيقاظه!.

قبل أن نغلق باب الشقة، أخذ لي صورة على الشرفة، تأريخًا لنهاية مرحلة...

توجهنا إلى مول «دانة بلازا» لشراء الفوط الشهرية، ومنه إلى المستشفى. كانت الساعة تقارب السادسة صباحًا. دخلت إلى قسم الطوارئ، وكان نشطًا يدب حياة وحيوية. وحدهم النائمون يشعرون بأن الكون نائم مع نومهم!. فجأة انفصمت إلى اثنتين: أم وطفلة. أخذت نفسًا عميقًا. رسمتُ ابتسامة قبل أن أصبِّح بالخير على ممرضة أجنبية، كانت بالصدفة هي التي أعطتني شهادة السماح بالسفر، تحسبًا لأية

مساءلة من قبل موظفي المطار، قبيل السفر إلى القاهرة في شهر مارس الماضي. وقالت لي وقتها: «إنك لا تحتاجين إليها، فلا أحد سيعرف بأنك حامل!». ثم سألتني مازحة: «أين هو الجنين؟. أين؟ داخل خُفِّك؟» فضحكنا حينها بانتعاش!.

ذكرتها بالحادث لتزداد بشاشة ولطفًا. وحمدت الله أنها ستكون قابلتي. غمرتني بالتشجيع والابتسام وهي تُجري لي بعض الفحوصات. ثم قالت وهي تزرع محرارًا: «لو تغير لونه إلى الأسود، سيتوجب عليك البقاء إلى أن تلدي. وإلا ستعودين إلى بيتك». فتمنيت الخيار الثاني!.

بعد ذلك رافقتني إلى غرفة، جلست فيها بجوار شاشة ترسم ذبذبات الانقباض. كنت مسترخية، مستمتعة بالعملية، وإذا بحامل إماراتية تدخل متكئة على كتف صديقتها، تصرخ وتبكي. رثيتُ لحالها لأنها من النساء اللائي يحتجن لمن يرثي لحالهن!. ثم أثنيت على شجاعتي وعلى التزامي بالهدوء، وأنا أقود عملية المخاض!!!.

لم أكن أشعر بأية آلام، وهذا ما أثار استغراب القابلة، رغم أن الذبذبات المرسومة فوق الشاشة، كانت تدل على أن هناك انقباضات مؤلمة. فازددتُ سرورًا و زهوًا!.

بعد مضي نحو نصف ساعة على ذلك الحال، أدركت القابلة بأن الجنين كان نائمًا!. فاقترحت عليَّ أن ألتحق بجناح الولادة!.

في تلك الأثناء كان التواصل مستمرًا بيني وبين زوجي عبر رسائل المحمول، وهو يترقب الأخبار في غرفة الانتظار. وما كنت لأتركه لولا قوانين المستشفى الصارمة التي تقضي بأن يلزم الأزواج أماكنهم ما داموا خارج جناح الولادة. لكن رغم الخوف وارتعاد فرائصي كنت أوهم الموظفات والممرضات من كل ألوان الطيف البشري، بأنني متماسكة ومنشرحة. فكان حالي كحال مريض الأعصاب الذي يحاول جاهدًا أن يقنع الآخرين بأنه هادئ وطبيعي!.

دخلنا أنا وزوجي رفقة إحدى الممرضات إلى جناح الولادة. تماديت في تمثيل الحيوية والنشاط. رميت الوسادة التي نصحتني زميلتي باصطحابها معي إلى المستشفى، ثم أتبعتها بصرخة الفرح وكأنني نجحت في امتحان!.

خلف الستارة الفاصلة بيني وبين شريكتي في الغرفة. كانت ترقد نفساء هندية وقد وضعت ابنها البكر. كانت هادئة، وحيدة. تمشي على أصابع من حرير. لم تظهر عليها آثار المخاض، حتى بدت وكأنها تحمل بين ذراعيها رضيع امرأة أخرى!.

بعدما تركني زوجي لينام قليلاً، عاد محملاً بباقة ورد رائعة، وسلة فواكه شهية، وأنواع فاخرة من الشوكولاته، أقبلت على بعضها بنهم. لم ينس أن يحمل معه آلة التصوير. مما سمح لي بممارسة هوايتي حتى وأنا في جناح الولادة!. تناولتُ الشيء القليل من وجبة الغذاء حتى أظل خفيفة ولائقة، اتباعًا لنصيحة العارفين والعارفات.

بدأت أشعر بمرور الوقت دون إنجاز يذكر، خاصة أن أوجاعي الطفيفة لم تكن مُرضية بالنسبة للممرضات. إلى أن جاءتني الطبيبة الباكستانية، التي نصحتني من قبل ألا أتورط في شراء كمية كبيرة من الملابس للمولود الجديد. فرحتُ جدّا لرؤيتها، وكانت كعادتها مبتسمة ومنشرحة. فحمدت الله أنها ستكون الطبيبة المداوية!. لكنها أبدت لي أسفها، حين أخبرتني بأنها لن تكون معي. فشعرت بشعور طفلة تتخلى عنها أمها في قارعة الطريق، لتهرب إلى قدرها المجهول. كلما أمسكت بيد، انسحبت من يدي بلطف وأدب!.

بلطف أيضًا أبلغتني الطبيبة أن الطاقم الطبي ينتظر أن تشتد آلام المخاض، التي مضى عليها عشر ساعات دون أن تبشر بشيء. وبناء عليه، إذا جاءت الساعة الخامسة مساء، ولم يأت الوجع سَيَلْجَأنَ إلى «التحميلة» كي تعجل بالولادة.

مباشرة بعدها جاءتني طبيبة عربية، لتسألني إن كنت أتوجع. فأعدت عليها ما قلته للپاكستانية: «أتوجع، ولكن لا أريد أن أصرخ أو أبالغ كما تفعل النساء». ثم حاولت إقناعها بأن مخاضي طبيعي، لكنه يختلف عما عهدَتْهُ من قبل!. لكنها أوضحت لي بأن الوجع الذي تنتظره هي، ليس هو الذي يمكن أنَ أسيطر عليه بأريحية وهدوء!. فصرت أدعو الله أن يعجل بالآلام!. وبعدما فحصتني بعنف وأعطتني مضادًا حيويّا، رجوت الله ألا أراها مجددًا!.

عند حوالي الرابعة مساءً، بدأت أشعر بالوجع المشابه لوجع الدورة الشهرية. بعدها بساعة لم يتغير طعمه، ولكن زادت حدته، حتى لم يعد باستطاعتي الثبات على

وضعية واحدة، خلال أكثر من عشرين ثانية. فتارة راكعة، وتارة نائمة على أحد الجنبين. وأخرى ما بين الوقوف والركوع.

بقيت على ذلك الحال لمدة ست ساعات، وزوجي معي يشد من أزري، ويخفف عني دون كلل أو ملل. زارتني خلالها عدة ممرضات وقابلات، كل واحدة منهن تدلو بدلوها، بين مشجعة ومبشرة بالفرج بعد الصبر، وناصحة لا تبدو نصيحتها مقنعة حتى بالنسبة إليها!، كأن آخذ حمامًا ساخنًا وأنا لا أقوى حتى على الوقوف دقيقة واحدة!.

لكن من جملة النصائح، التي كانت تبدو لي ساعتها لا تليق إلا بامرأة خارقة، أو أن الهدف منها تدبير مكيدة للحامل كي تقع داخل سيراميك الحمام، تعجيلاً بالولادة أو النهاية!، اخترت نصيحة المشي بين ممرات الولادة، ذراع متكئة على عواميد وضعت ربما لذلك الغرض، والذراع الأخرى يسندها زوجي.

أثناء مشيي، وأنا مطوية على اثنين، لمحت على بُعد خطوات، أولادًا يضحكون عليَّ. قلت في نفسي: «لو كانوا رأوا سجناء جوانتانامو، لضحكوا عليهم أيضًا». واستغربت لآبائهم وأمهاتهم الذين بلَّدوا حواسهم، حتى ما عادوا يميزون بين ما يستدعي الضحك وما يستدعي . . . الحياد.

في تمام العاشرة ليلاً، كان على زوجي كسائر الأزواج، مغادرة جناح الولادة. فكان قرارًا صارمًا ومؤلمًا بالنسبة لي. لكني اضطررت وأنا أودعه أن أوهم نفسي بأن الأوجاع خفت؛ لأنها كانت تجود عليَّ بين الفينة والأخرى باسترجاع الأنفاس. كما طلبت من الممرضة الهندية التي كانت ترافقني، أن تستعمل هاتفي المحمول لإبلاغ زوجي بضرورة الحضور، إذا ما تفاقم الوضع، وألا تبتعد عني كثيرًا، على أن أواصل المشي في ممر الجناح، إذا ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

لم يبلغ زوجي الباب الخارجي للمستشفى، حتى تلقى اتصالاً من الممرضة الهندية!. وذلك بعدما انفجرت غضبًا في وجه كل من كانت تنصحني بالجلد والثبات، وتُثيب على آلامي الصامتة!. وقد نبهتني إلى ضرورة التمرد والثورة، إحدى السيدات الإماراتيات، التي كانت في عمر الحكمة، والتي ما إن رأتني في تلك المحنة، حتى ثارت ثائرتها وصاحت في الملأ دون مبالاة أو خجل: «حرام عليكم تخلوا الحرمة في هذه الحالة، ودوها لعنبر الولادة».

لقد علمت بخبرتها الأنثوية، أنه لم يعد بإمكاني مشي خطوة واحدة على رجلي. لذلك أجلسوني فوق كرسي متحرك وأدخلوني المصعد، ومنه إلى سرير الولادة. ثم ألبسنني بدلة المخاض الزرقاء. .

رغم سكرة الألم، نفذ إلى سمعي ضجيج كرة القدم المنبعث من غرفة الانتظار، فلعنتها في صمتي، ودعوت الله أن يقبح سعيها، حيثما وُجدت خارج حدودها الخضراء!.

* * *

٢٢ يونيو ٢٠٠٤م

كان الطاقم الطبي مكونًا من قابلة هندية شابة، وطبيبة عربية، وممرضات غربيات، يزرنني بين الفينة والأخرى للاطمئنان على سير المخاض. أما غرفة الولادة، فكانت تفتقر إلى كل ما يجعل ولادتي ميسرة؛ من حقن مهدئة، وأقراص مسكنة، وتحميلات تعجل بالمخاض.. إلخ.. على غرار ما قرأت في الكتيبات الصغيرة التي تفضل المستشفى بنشرها وتوزيعها على الحوامل، كي يزيح عنهن شبح المخاض، ويجعل منه ساعة من ساعات الجنة!.

شيء واحد كان يدل على أني في غرفة ولادة عصرية، وأني لست في قرية نائية: سلك المحلول السكري الذي كان يذكرني بالمستشفيات العراقية، وهي تقاوم انهيارها تحت القصف الأمريكي المجنون!.

أدرك زوجي التقصير، فعمل جاهدًا على تحريض الطاقم الطبي كي يتحرك بأسرع وقت لتأمين ما نقص من ضروريات وإسعافات أولية، وتصحيح الأخطاء والهفوات. فكان الرد العام يتراوح ما بين الإحساس بالذنب و«التحرك السريع من أجل إنقاذي»، رغم أنهن كن يعلمن أن مخازن الأدوية قد أرخت ستارتها!، وأن لا صوت لمن تنادي بعد منتصف الليل، حتى لو كنت في مستشفى الولادة!.

لهذا السبب لم أكن أسمع من الطاقم الطبي سوى كلمة واحدة: ادفعي!. فكنت أدفع بكل إخلاص وتفان؛ لأني أدركت مع مرور الوقت، أن لا أحد سيخلصني من محنتي سوى جهدي وعزيمتي. ولم يكن لدي الحق في استرجاع أنفاسي بين الدفعة والأخرى، حتى دخلت في حالة من السكر والهذيان. وفي عمق الدوخة، وجدتني أردد مقطعًا شجيًا من أغنية «أحيان» لنبيل شعيل، يقول فيها: «الحلو فيهم ألم والمر تدري به»!. فكانت أكبر دليل على أني استعضت بتخديري الذاتي عن تخدير المستشفى!.

كان ذلك على صعيد الدماغ، أما على صعيد الجسد، فقد تحولت إلى كتلة من الأسلاك الكهربائية العارية، أرتعش من رأسي حتى قدمي، ولا أطيق من يمسح العرق عن جبيني، ولا حتى مشبك شعري في رأسي. أنا التي كنت أظن أنني سأستعين بسماع القرآن لتحمل الآلام، على غرار ما فعله الصحابي الجليل، الذي طلب من الطبيب أن يتحين لحظة خشوعه في الصلاة، كي يبتر ساقه، بدلاً من تخديرها!.

نعم كنت أصرخ!. ولكن ليس فقط ألمًا؛ وإنما احتجاجًا واستياءً على التقصير، وعلى وجوههن المتعبة من وجهي، وعلى اكتفائهن بتشجيعي على الدفع والصبر، بدلاً من إسعافي بالمسكنات!.

كنت أصرخ من الإهمال والندم، ومن القابلة التي كلما خرجت، توسلت إليها بالبقاء إلى جانبي، على الأقل حتى يعود زوجي من الحمام أو من تدخين سيجارته. ولم أكن أبغي تدللاً على أحد، لأني كنت أشعر كما لو ألقي بي فوق جبل، في ليلة ماطرة، لو بقيت دقيقة واحدة!.

لم أكن، يا صديقتي، لا شجاعة ولا متخشعة مثلك، ولا صامتة. بل كنت ضئيلة، قليلة، كامرأة نكرة، جرفها السيل من بعيد!. لذلك يؤسفني أن أقول لك، بأني كنت مجرد إنسانة ضعيفة وخائفة!.

بعدما عتبنا على يوم جديد، أبدى الطاقم الطبي ارتياحه لكون المولود سيولد في يوم زوجي الأعداد، وهو ما يتناسب مع الشهر والسنة أيضًا!. لكن، بعد منتصف الليل بساعة، بدأتُ أشعر بأني تأخرت أكثر من اللازم، وبأني قصرت في حقهن؛ لأن وراءهن أعمالاً وأزواجًا وأولادًا ينتظرونهن!!!. ولم يكن ذلك الإحساس من وحي المخاض، وإنما سمعته جهرًا من قِبل الطبيبة التي سألتني في حزم، إن كنا سنبقى هناك يومًا آخر!.

ليس فقط من أجل سلامة الجنين، كُنَّ يدفعنني للولادة بسرعة، ولكن كي يتخلصن من زيارتي الثقيلة ويرتحن من أناتي!. لذلك كانت الطبيبة العربية تكشر في وجهي وتستكثر عليَّ الابتسام، رغم عظيم أجره عند الله!، ظنّا منها أنها لو بشَّت في وجهي، استطبت المقام في حضرتها وقتًا أطول!. فكانت كلما دخلت علينا، ازدادت

استياءً وتجهمًا. ولم أَنَلْ رضاها حتى أخبرتنا برؤية شعر الوليد! . وبعدها بحوالي نصف ساعة أو يزيد، فرج الله كربتي. وكانت ساعتئذ، الثانية وخمسًا وأربعين دقيقة، من صباح اليوم الثاني والعشرين من شهر يونيو، عام ألفين وأربعة.

لحظة البشرى لم أفكر في جنس الجنين، وإنما في سلامته؛ لأني كنت أريد فقط أن أتخلص من الخلاص، وأخلص من جناح الولادة! . لذلك كانت لحظة خروجه إلى النور ووضعه في الميزان، لحظة بياض أو فراغ. لم أفكر في شيء، إلى أن أخبرتني إحداهن بأن المولودة بنت!!! . سألتها إن كانت حقّا كذلك. فقالت: « نعم، انظري إليها». ثم طلبت مني أن أضعها على صدري كي ترضع. فقلت: «وماذا ترضع، ألا يستحسن حتى نغتسل ؟». فقالت: « بل الآن». ثم سألتني إن كنا فكرنا في اسمها. فقلت فوراً: «نعم، نوران»! .

فرحتي بنوران كانت عميقة عمق المحيط الأطلسي، وهادئة هدوء المحيط الهادي. فلم يُبق لي المخاض جهداً للتعبيرعن الفرح. لذلك كان من الصعب أن أنتقل من برْكة الدم إلى رحيق الزهر، دون أن أستحم في النهر. فكان تأجيلها كمن يؤجل قراءة رسَالة جميلة في يوم حزين.

لم تَمْض سوى بضع دقائق على مرور العاصفة، حتى جاءتني الطبيبة منذرة بعاصفة أخرى، ما كانت لي في الحسبان! . بعدما اعتقدت أني لن أحظى برؤية وجهها أبدًا! . لكنها خيبت أملي، وعادت لتخبرني بما ينبغي من غُرز! . قلت: «ماذا؟!» .

لم يكن أحد معي في الغرفة حين نظرت إليَّ نظرة شذراء، ملأتني رعبًا وهي تسألني: «أتريدين أن تبقي هكذا؟» . قلت لها مرعوبة: «طبعًا لا». وأنا لا أعرف بالتحديد معنى «هكذا»، ولا أريد أن أعرف أبدًا معناها! .

حين سألتُها عن زوجي، قالت «أتريدين أن يحضر معنا؟» . قلت: «لا»، وأنا أقول في نفسي: «أيْ كابوسيَ الجديد، أيُّ خيال عاثر ألقى بك في سريري هذا؟!» .

لقد كانت صارمة وحاسمة، مثل أم اضطرتها العادة القبلية أن تجر ابنتها إلى عملية الختان، دون رحمة؛ ذلك لأن لحظة الختان، هي اللحظة التي تقول فيها الأم لابنتها: «ما فيش يامَه ارحميني!» .

ارتعبت منها، وتساءلت ماذا ستفعل هذه المرأة بي؟. هل ستنتقم من ثقافتي التي تحرم ختان البنات؟. استعنت بالله ورددت في نفسي عدة مرات: ﴿**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [البقرة: ١٣٧]. ثم أتبعتها بـ ﴿**لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأنبياء: ٨٧].

في تلك الأثناء، جاءت ممرضة أجنبية، تداولت معها أمري دون أن أقرأ حرفًا واحدًا على صفحتي وجهيهما. لقد كانتا بارعتين في إخفاء تعابير وجهيهما، كلاعبي البوكر المحترفين!.

حين هَمَّتْ بتخديري، شرعت في الدعاء المحبب إلى قلبي: «**اللهم استرني بردائك الذي سترت به ذاتك، لا عين تراني ولا يد تمتد إليَّ**». وكان يكفي أن أنهار مع فكرة الغُرز، دون حتى أن تؤلمني. لكن الألم لم يكن وهمًا حين صرخت في وجهها، كي تتلطف بي أو تُزود كمية البنج، بعدما فقد التخدير الأول مفعوله. ولم أشعر بفظاعة الأمر، وجناية لساني عليَّ، إلا بعدما توَقَّفَت لحظة لتشعرني بنظراتها الموبخة، بالخجل من نفسي. ولتذكرني بأني تحت رحمتها، فإن أسأت الأدب من جديد، فَعَلَتْ بي ما تريد!.

هناك احتد شعوري بالخطر!. وكان لا بد من الاعتذار والتوسل إليها، بكل ما أوتيت من ضعف وهوان، كي ترأف بحالي. قلت لها: «أعلم أن جسدي وحياتي بين يديك الآن. أسألك الرحمة لوجه الله. لا أراك الله مكروهًا».

قَرَأتُ في ملامحها بعض الانفراج. وهو ما أعاد لي الثقة في وقع الكلمة على النفوس. وبأني قادرة على إنقاذ جسدي، ربما، من خطأ طبي محقق. شريطة أن أشهر ورقة أشدّ وقعًا من استدرار العطف: الإفصاح عن هويتي المهنية، وهو ما لم أفعله، منذ أن بدأت تقديم البرامج التليفزيونية، وأنا لا أزال طالبة في الثانوية العامة. بل كنت دائمًا أضلل من يسألني، إن كنت أنا من شاهَدَها البارحة على شاشة التليفزيون، قائلة: «أنت أيضًا تشبهني بتلك المذيعة؟!».

كانت خير وسيلة للوصول إلى تلك الغاية، استدراجها للفضول، كي تسألني هي من أكون، دون أن أُعَرِّفَ نفسي بطريقة فجة، في سياق لا يليق لأي معنى!. قلت لها:

«أتعلمين أني أكتب كتابًا عن الحمل، بما فيه هذه اللحظات؟». فجأة نظرت إليَّ نظرة جديدة ومختلفة، نظرة من كان في غيبوبة ثم استفاق. لقد جعلتها معلومتي تعي بذاتها أكثر، وبمن حولَها. فصارت تراقب ملامح وجهها، أناملها، حركاتها. لقد تغيرت تمامًا، وبدأ الحوار!.

سألتني عن مهنة زوجي ومهنتي. وما أنْ ذكرْتُ القناة التي كنت أعمل فيها، حتى قالت: «ألست أنت التي كنت تقدمين برنامج...؟». قلت: «بلى!». قالت: «لقد شاهدت لك حلقة مع الشاعر...» الذي كان مواطنًا لها.. إلخ.

لا شك أنها وهي تتذكرني، كانت تتذكر أيضًا كل لحظة تعيسة قضيناها معًا... ولا شك أنها شعرت بالخجل والندم!.

أما أنا، ففكرت في نساء إثيوبيات، وأفغانيات، وإندونسيات، وفيليبينيات، كُنَّ تحت رحمتها. ولم يَكُنْ بإمكانهن الإفصاح عن هويتهن!.

تذكرت البروفيسور وجيه المعزوزي، وهو لا يترك مناسبة، إلا وذكَّر الأطباء من طلبته وزملائه في المهنة، بواجب الرحمة. إن لم تكن مهنة الطب هي مهنة الرحمة بامتياز، فأي مهنة بعدها أحق بهذه الصفة؟!.

بعدما مرت العملية بسلام، تمنت لي الطبيبة الشفاء العاجل وانصرفت لتتركني رفقة القابلة كي تهتم بنظافتي. في تلك الأثناء بعثْتُ رسالة هاتفية لأخي وأختي، أخبرهما بمجيء ولية العهد: للا نوران. فأبديا لي سعادتهما العميقة.

كانت الساعة الخامسة صباحًا، حين خيرتني القابلة ما بين العودة إلى جناح الولادة فوق الكرسي المتحرك أو فوق السرير. فاخترت الأخير، الذي كنت فوقه قبل أن يرتد إليَّ طرفي!.

وهناك ودعت زوجي، الذي مدني بعون لم أكن أتوقعه في ذلك اليوم العصيب. لقد كان حالي سيكون أسوأ بكثير مما كان عليه، لو لم أكن في معيته. والاعتراف في محراب الولادة بألف!.

عدت وحدي أنا ونوران، لأجد خلف الستارة سيدة، رغم آهاتها العالية، ترد على رنات جوالها، المبرمجة على أعلى مستوى للصوت!. لم يكن السياق مناسبًا كي

أطلب منها تخفيض صوت الهاتف الجائر، خاصة أنها كانت البادئة بالشكوى، ليس مني، وإنما من الفريق الطبي الذي تركها على ذلك الحال أربع ساعات. لكني حمدت الله من أجلي ومن أجلها، لأنه مباشرة بعد شكواها، جاءت الممرضات ليحملنها إلى مربع العمليات!.

رغم ما مر بي، لم أستطع النوم مباشرة. ربما لشدة الإجهاد أو لإزعاج النور الوهاج، الذي لا ينطفئ في جناح الوالدات على مدار الأربع وعشرين ساعة!. ورغم ذلك، حين أوشكت على إغماض عيني، صرخت نوران في سريرها الزجاجي، ثم أخذت في البكاء!. وأنا لا أعرف ما الذي يجب عليَّ فعله، ولا كيف ينبغي أن أتصرف في مناسبة كهذه. ولا كيف أمسكها وأهدئ من روعها. وقبل ذلك، كيف أتحرك من فراشي، وأنا لم أوضَع في السرير، على الحالة التي كنت فيها، إلا على أمل أن أجد من يُنهِضُني منه، أو يُعيدني إليه!.

لكن الوقت لم يكن وقت تأمل وتفكر، وإنما وقت إطفاء النار. كان عليَّ أن أحرك جثتي الهامدة بأي وجه كان، تجاه سريرها الصغير. ولم أشعر كيف اقتلعت جسدي من السرير، ولا كيف جرجرتني رجلاي، حتى احتضنتها وقبلتها وهدهدتها وأنا أراوح مكاني، إلى أن هدأت ونامت. وما إن أعدتها إلى سريرها الزجاجي، حتى عاودت وصلة البكاء!. فعلمت أنها لن تنام ليلة واحدة، وهي وحيدة في صندوقها الزجاجي، أو في سريرها الصغير، الذي ينتظرها في البيت!.

وكم سخرت من نفسي، حين ظننت أنها ستكون مستقلة بذاتها منذ الليلة الأولى، وأن نومها وهي بعيدة عني، سيدربها منذ سن مبكرة على الاعتماد على نفسها!.

***

٢٢/٦/٢٠٠٤م

عيادة المريض!

لم أنم أكثر من ساعة، حين استيقظت على رنات الأجراس الأولى، في تمام السابعة صباحًا. ففهمت أنه موعد الإفطار، حين أشرقت ممرضة هندية بابتسامتها الحلوة وهي تخيرني بين الشاي والقهوة. لكني قبل أن أختار، قلت في نفسي: ربما هذه هي فرصتي الوحيدة في التمتع بحق الاختيار، أما عدد ساعات النوم وتحديد أوقاته، فهي من حق قانون الضيافة!.

كانت مهمة النهوض من الفراش لا تزال بالغة الصعوبة؛ لأني بالكاد، كنت أتحرك داخله برجلين مغلولتين، كيلا أوقظ الجرح. فكان لا بد من الاستعانة بالممرضة التي تحمَّلتني بعجزي وبطئي، إلى أن أوصلتني إلى دفة الحمام. ثم أعادتني إلى الفراش وهي تمشي معي بسير الضعفاء. فتمنيت من جديد، أن تظل معي وألا تستبدل بأخرى!. وقبل انصرافها سألتها إن كان بإمكاني أخذ حمام ساخن. فقالت لي: «إنه ليس فقط ممكنًا، وإنما ضروري». ثم عَرضَتْ عليَّ مساعدتها، لكني فضلت أن تقوم فوزية بالمهمة.

مباشرة بعد تناول الإفطار، بدأتْ وفود القابلات والطبيبات تتوافد على جناح الولادة، للاطمئنان على سير اليوم الأول بعد الولادة. ولم ألمح منهن وجهًا من وجوه الأمس القريب... وكان ذلك من حسن حظ الجميع!.

حين أخذت الطبيبة نوران لتفحصها، وهي ترتعش بين يديها كالطائر الصغير. سألتُها عن سر بكاء الرضّع، فقالت ببساطة: «مثلما يتكلم الكبار يبكي الصغار!». ثم عدَّدَتْ لي احتمالات الأسباب الممكنة لبكائهم: كالجوع، وقلة النوم، والمغص، أو الحاجة إلى تغيير الحفاضات. وهذا يعني أني بحاجة إلى وقت طويل، وخبرة كافية لمعرفة أي من الأسباب سيكون وراء بكائها!.

وحتى لو استطعت اليوم، على سبيل المثال، أن أستشف من بكائها الرغبة في تغيير حفاضتها، فإني لن أفعل، لأني لا أعرف! . فشتان بين الدروس النظرية، وأنت تمسكين بين يديك دمية صماء، مطواعة، بلا حركة أو روح، وبين احتضان وليدة ترتعشين لارتعاشها، وتخافين أن تؤذيها بالقطن إذا لمس جسدها الحرير! .

لذلك وُكلت مهمة تغيير الحفاضات وتنظيف نوران بالماء والقطن الخالص، إلى الممرضات اللائي كُنَّ يُحلقن حولها في خفة ونشاط، كالفراشات السعيدة. كما كُنَّ يولينها كل العناية والرعاية، بما فيها مساعدتي في هدهدتها ومداعبتها، ما يلزم من الوقت، حتى تنام. فما أن تهم إحداهن بوضعها في السرير الزجاجي، حتى أومئ إليها بتغيير الاتجاه نحو سريري! .

لقد كن جميعهن ودون استثناء، على الدرجة نفسها من الرقة والدعة. ومع كل النزيلات؛ لا فرق عندهن بين ابن الآسيوية وبنت العربية. فَكُنَّ بحق سفيرات الرحمة إلى قلوب الوالدات. كما أن التواصل معهن كان ميسراً وعلى مدى ٢٤ ساعة، بحيث يكفي أن أضغط على زر النداء الموجود قرب مقدمة سريري، حتى تستجيب إحداهن للنداء في أسرع وقت ممكن. لذلك فرحت حين علمت أنني سأبقى ثلاثة أيام أخرى تحت رعايتهن.

كانت نوران نائمة، حين جاءت فوزية وهي تحمل معها الطلبات المحددة، التي كتبتها لها في رسالة هاتفية، صباح هذا اليوم. كنت أعرف مسبقًا أنها مثلي، حين كنت أخشى الاقتراب من حديثي الولادة. لذلك لم تكن في حاجة إلى المجاملة أو تصنع الابتهاج الزائد بالمولودة الجديدة. أو ربما لأنها تأثرت لحالي، وهي تساعدني على أخذ حمامي الأول، بعد تسعة أشهر من الحمل، فلم ترني من قبل في ذلك الضعف.

ليس صحيحًا أن بطن النفساء يعود إلى الحجم الذي كان عليه في الشهر السادس، كما يقول الخبراء! . ذلك لأنه بعدما يهجره الجنين، يتركه متهدلاً، مترهلاً، بدون هوية هندسية. وهذا ما يجعل رؤيته بالنسبة لكل امرأة لم تتعود أن ترى تضاريس أو نتوءات فوق بطنها، مناسبة شقية! . لكني لا أزعم أنني حزنت لشكله؛ لأن ما يهمني الآن، في المقام الأول، هو أن تكفني الآلام شرها المتنوع. فحتى دم النفاس الذي كنت أتخيله كدم الحيض المنساب، ينزل بالأوجاع قطعًا قطعًا كالكبد.

جاءت زيارة زوجي مشرقة من حيث هي، وبالورود وهي تنثر أريجها في أجواء المكان، دون أن تطغى رائحتها الذكية على سلة الفواكه الشهية! . وقبل أن يأخذ صور الحقبة الجديدة، والتي ستكون ضيفة شرفها ونجمتها الساطعة، أميرتنا الغالية للا نوران؛ تساءل زوجي في استغراب كيف سمحت الممرضات لي، أن تنام الصغيرة بجانبي دون التفكير في احتمال حركة عشوائية مني، قد تؤذيها أثناء نومي، خاصة أن السرير الذي نتقاسمه، لا يسع إلا لشخص واحد! . لكنه حين سمع صرختها وهي نائمة، أدرك لماذا لم نفكر في الاحتمال السيئ! .

لولا ملاحظة زوجي، لما انتبهت إلى تشابه صراخها وصراخي أثناء المخاض. ربما ذلك هو الدليل، على أن الجنين يسمع أصوات من في الخارج، إلى درجة المحاكاة! . لكن ما أثار دهشته واستغرابه أكثر، هو ذلك الصخب المتلف للسمع، المنبعث من الغرفة المجاورة، التي لا تفصلني عنها، سوى ستارة من قماش! .

منذ أن عادت السيدة الشاكية وبصحبتها وليدها المصون، حوالي الثامنة صباحًا، وجوالها «أبو بوق» لم ينقطع عن الخدمة! . والذي حتمًا، حين كانت تنفد بطاريته من طول الاستعمال، كانت تشحنها فورًا، خوفًا من تفويت التبريكات والتهاني، التي كانت بالنسبة إليها أهم من ساعة راحة بعد سهرة المخاض! . فكان ضجيجها كافيًا كي يصيبني بالصداع النصفي المزمن، ما دامت تشاركني الجوار! .

لا شك أنه كان بإمكاني أن أحظى بلحظات هادئة ولو هاربة، لولا وفود الزائرين والزائرات الذين أتوا على ما تبقى لي من أمل في الهدوء، الفاصل ما بين المكالمة وأختها! . ليس فقط لعددهم المهول، والذي لم يتوقف منذ الانطلاقة المباركة، في تمام الساعة العاشرة صباحًا وحتى الحادية عشرة ليلاً، متجاوزين بذلك الوقت المسموح به للزيارة بساعة! ؛ وإنما لاصطحاب الزوار الكرام فلذات أكبادهم معهم، والذين في رمشة عين، قلبوا الدنيا فوضى وجنونًا! .

لقد أحالوا حمام الغرفة المشترك، والذي كان نظيفًا ومعقمًا قبل أن يدشنوه! ، إلى حمام عمومي وسخ، تفوح منه الروائح المعمية للأبصار! . كما عاثوا فسادًا في الممر المفضي إلى غرفة مضيفتهم وغرفتي، حتى صارت مثل مخيمات الطوارئ، أو محطة قطار في يوم مزدحم! ولم تكتمل نشوتهم حتى أقدموا على الجرعة الزائدة لقلة الأدب،

وجعلوا من ستارة غرفتي جداراً للعبة الغمايضة! . وهكذا كان عليّ أن أترقب، بين الدقيقة والأخرى، انبطاح أحدهم داخل غرفتي، مبعثرين أماكن الكراسي وكل ما اتفق وجوده فوق مائدة الطعام! .

وبما أن هؤلاء الصبية لم يتعلموا احترام الحدود بمعنييه الحرفي والدلالي، ولا خصوصية الغير أو أدنى فكرة عن آداب زيارة المريض، فقد وُكلت مهمة الاعتذار إلى أمهاتهم! . وكانت إحداهن كلما أعادت الستارة إلى مكانها، شَعَرَتْ بالخجل والذنب، إلى أن ملت من الاعتذار! . وياليتها فقط تركتني عرضة للحائط دون ستارة، بدلاً من أن تتركني عرضة لأعينهن المستغربة لخواء غرفتي من الزائرين والزائرات! . وما كان «ليفتضح» أمري، لو أنهن ربين أولاداً يفهمون حاجة المريض إلى الراحة! .

لم أفلح في تحسيسهن بأني في حاجة إلى الهدوء واتقاء شرهن، أكثر من دعوتهن لي لمشاركتهن في مجلسهن العامر بالغيبة والنميمة! . ظنّا منهن أن ما ينقصني هو الدردشة! . وحتى حين اشتكى زوجي سوء الجوار، لم يأبهن لشكواه. بل حتى المسؤولات على ذلك الجناح، لم يفعلن شيئًا لصد ذلك العدوان، ربما اعتقاداً منهن بأن ذلك هو الأسلوب الأمثل لعيادة النفساء العربية! .

وكي أحاكي أسلوبهن، رفعت صوت المذياع فجأة، بقصد تذكيرهن بوجود إنسية خلف الستارة! . وعقب برهة صمت ونظرات غمز ولمز، عادت النسوة إلى عادتهن القديمة، مع الإصرار هذه المرة على إبلاغي بما يجيش في صدورهن صراحة. وقد تطوعت الزائرة المتضررة من شكواي بالنيابة عن الحضور في الرد على رسالتي «المشفرة»، متبعة أسلوب «إياك أعني واسمعي يا جارة!». منتهزة فرصة التملق إلى مضيفتها بصفتها المسؤولة عنها في العمل! . فأخذت تمدح أولادها الذين تعلموا النوم تحت الأضواء الكاشفة، وسط الضجيج والضوضاء منذ الليلة الأولى، ليس مثل «بعض الناس!» الذين يعودون أبناءهم على النوم في الهدوء والضوء الخافت، وكأنهم في مستشفى، الله يستر!، فيكبرون معقدين ومنطوين على أنفسهم!!! .

كم كان بودي أن تسترسل ضيفة جارتي في السخرية مني! لأنها لم تكن تعلم أنه بمجرد التفكير في أني صرتُ لها عدوة في عشية واحدة، ولو من وراء حجاب، كان أمرا مسليا! . ولكن للأسف، كنت مضطرة إلى وضع سماعة المذياع في أذني، كيلا

أسمع للمرة العشرين مضيفتها وهي تحكي لزائرتها الجديدة، سيناريو الإهمال والاستهتار الذي تعرضت له ليلة البارحة، وهي ممددة على طاولة المخاض. وأنها قبل ولادتها الرابعة، والتي كانت تتم في بلادها، لم تشعر قط بالألم، بحيث كانت تخضع لتخدير نصفي أو موضعي، فتمر عملية المخاض برداً وسلامًا، وكذلك عملية الغرز دون عذاب أو تعذيب. فكانت المسكينة مثل قريب الميت، وهو يحكي للمعزين ظروف وملابسات وفاته، حتى يُغمى عليه أو يلحق به!.

***

٢٤/ ٦/ ٢٠٠٤م

الرضاعة

صحوت البارحة على طعم جديد وموضع آخر للآلام. لقد انتفخ الثديان وتحولت هالة الحلمتين إلى جمرتين من نار. كلما همَّتْ نوران بالرضاعة، سمع صيحتي أبعدُ الجيران! . وحين كادت إحدى الممرضات أن تُحمِّلني مسؤولية آلامي، أوقفتها عند حدها وأفهمتها بأنها الأولى بالعتاب والمساءلة؛ لأنها الأدرى والأعلم بما يجب عليَّ فعله. فمجرد وجودي في المستشفى دليل قاطع على أني في حاجة إلى التوجيه المستمر والتأهيل لدور أجهله. لذلك كان عليها هي أو غيرها، أن تسألني عن سير الرضاعة ما دام الأمر مهمّا.

لم يأت منتصف النهار حتى علمت المسؤولات في قسم الرضاعة بأني أعاني مشكلة حقيقية. لذلك لم يتأخرن عن المجيء لمعاينة حالتي. وبعدهن مباشرة، زارتني مسؤولة، يبدو أن مكانتها مرموقة بينهن، لما كانت تتمتع به من رقة وجلال في الوقت نفسه. لقد أبدت لي تعاطفها. ولحسن الحظ أنها كانت تجيد الفرنسية، لذلك كان التواصل معها سهلاً وسريعًا. فهمتُ من خلال كلامها أن حالتي إن لم تعالج فورًا، ستتفاقم ويصعب علاجها بالطرق المتاحة الآن. لذلك طلبت مني أن أضيف يومًا آخر في المستشفى حتى أحظى بالعناية المكثفة، وأتمكن من إرضاع ابنتي بشكل طبيعي وبدون عذاب. أبديت ارتياحي لاقتراحها وشكرتها؛ لأني كنت أخشى أن أغادر المستشفى، بعدما اكتشفت أن هناك محنة أخرى غير المخاض والولادة تنتظرني، اسمها: الرضاعة.

منذ ذلك الحين، لم تزرني ممرضة أو مشرفة أو عضوة في فريق الرضاعة الطبيعية إلا وأمام عينيها هدف واحد: استخراج الحليب المحتقن من الثديين الملتهبين؛ لأنه كلما ازدادا احتقانا زادا التهابًا واستعصت الرضاعة والعلاج على حد سواء. ولم تكن لديهن

وسيلة لتسكين الآلام إلا الآلام. وكانت من بين الوسائل المسموح بها لاستخراج الحليب: التدليك باليدين. وهو ما كان يجعل العملية شاقة ومرهقة.

من بين كل الممرضات، شعرت بأن «نانسي» كانت أكثرهن حرصًا على إخراجي من آلامي. هذا لا يعني أن الأخريات كن غير مباليات؛ لأنه لا شك أنّ كل واحدة منهن كانت مكلفة برعاية عدد محدود من الحالات المستعصية. ولأنها عملية، فقد علمتني منذ الزيارة الأولى كيفية تذويب الاحتقان، وتحويل الثديين من حالة التحجر إلى الحالة شبه الطبيعية. لكن ما إن كانت تغيب عني ساعة واحدة، حتى يمتلئا من جديد، فتأتي لتعاود العملية مرة أخرى.

في كل مرة، وقبل أن تُناولني نوران، كنت أتملص من العقوبة بشتى الذرائع؛ أبسطها أنها نائمة ولا يجب إزعاجها! أو أنها رضعت كثيرًا قبل أن تنام. أو أن هناك حليبًا مخزنًا سيكفيها لمدة يومين آخرين! لكن نانسي كانت تعرف أني كنت أتهرب من اللحظة المؤلمة، التي سيدخل فيها الثدي إلى فم ابنتي، فتنهال عليه عضًا، لتتوالى صرخاتي المدوية. لذلك كانت تجبرني على إرضاعها! وما أن ترتوي الصغيرة، حتى نشرع في مرحلة تخزين الحليب في أكواب بلاستيكية مبسترة ومرقمة، لتضعها الممرضة فورًا في ثلاجة خارج الغرفة. وما أن تستدعي الحاجة إليها حتى توافيني بها إحداهن.

في إحدى المرات، اقترحت عليَّ نانسي طريقة أخرى لاستخراج الحليب: الشفاط الكهربائي. وما إن ألقيت عليه نظرة حتى بدا لي سفاحًا كهربائيًا! لكني أبديت حسن النية وأقبلت على التجربة، إيمانا مني بأنها الحل الوحيد للخروج من دوامة الآلام. لذلك تركتها تفعل ما تشاء. لكن ما إن بدأت المحاولة الأولى، حتى سمع صراخي من كان يركن سيارته خارج المستشفى!، ولم تُضف إحدانا كلمة واحدة! إلا أنها ذكرتني بضرورة استخراج الحليب وإرضاع نوران قبل أن يستفحل المشكل.

مباشرة بعد ذهاب نانسي، فكرنا أنا وزوجي في حل بديل للشفاط الكهربائي. ألا وهو الشفاط اليدوي. ثم طلبت من فوزية إحضار زيت جونسون لتسهيل عملية التدليك، وكانت أول حالة خرق لقوانين قسم الرضاعة الصارم. أما ثانيها؛ فكانت استعمال كمية وافرة من مرهم الأنولين للتخفيف من آلام الحلمتين. وهكذا باتت

عملية استخراج الحليب أقل ألمًا، بحيث استطعت أن أستخرج كمية محترمة منه، دون أن نضطر إلى المساس برصيدنا الاحتياطي في الثلاجة!.

صبيحة هذا اليوم، جاءتني نانسي وكلها عزم وإصرار على إنقاذ ما يمكن إنقاذه قبل فوات الأوان. وفق ما يمليه عليها ضميرها المهني الصرف. لذلك قالت لي بنبرة صارمة وبوضوح تام، بعدما رأت ثديي الأيمن قد ازداد احتقانًا: «إما أن تتبعي ما سأطلبه منك، أو هذا فراق بيني وبينك؛ لأن لدي حالات أخرى مستعصية. من فضلك، خذي قرارك الآن ولا تضيعي وقتي ووقتك». ثم عرضت عليَّ خطة الإنقاذ. والتي كانت أبرز وأول خطوة فيها؛ العودة إلى الشفاط الكهربائي!. ولم يكن أمامي سوى الرضوخ لأمرها ما دام هو الحل الوحيد. لأني أنا أيضًا كنت في حاجة إلى إيجاد حل جذري لمشكلتي في هذا اليوم بالتحديد!.

كان أصعب ما في العملية تحمل الشفطات الأولى، إلى أن صارت محتملة الآلام. تَلتْها بعد ذلك عملية التدليك. وقبل أن تتركني نانسي أواصل استخراج الحليب بمفردي، جاءتني بطبق ماء مثلج وفوطة كبيرة لأضعها فوق الثديين. كلما حميت، وضعتها في الماء المثلج. ثم انصرفت إلى إطفاء حريق آخر، وهي توصيني بإرضاع نوران من الثدي الأيمن.

لم تكن نانسي حاضرة حين شعرت لأول مرة براحة ولا أجمل، والتي كانت بمثابة تحقيق معجزة بالنسبة لي، بحيث تمكنت من أخذ حمامي دون عناء، ودون خوف من أن تؤذي قطرات الماء الساخن المناطق الملتهبة. كما اهتممت لأول مرة بشأن جمالي. ثم ناديت عليها لأشكرها. لكنها كانت أنهت فترة دوامها.

حين جاء زوجي لم يصدق عينيه، فقد رآني لأول مرة خارج هالة الآلام!. لكن فرحتي لم تكتمل حتى أبلغت نانسي عمق امتناني لها، والتي لم تصدق أنني أرضعت الحبيبة من ثديي الأيمن، إلى أن أعدت عليها المشهد «مباشرة على الهواء!». فَفَرِحَت لأن تعبها معي لم يذهب سدى.

لكن تلك النتيجة المرضية، لم تكن نهاية العلاج كما كنت أظن، بل كانت فقط الخطوة الأولى في مساره الصحيح!.

مباشرة بعد ذهاب نانسي، جاءتني متخصصة أخرى في مشاكل الرضاعة الطبيعية، ترافقها ممرضة هندية في عمر الحكمة. ولو لم أشعر أن الحليب بدأ يحتقن من جديد، لقلت ما فائدة «الثرثرة» من جديد؛ لأنها حتمًا ستنتهي بما أخشاه: إيقاظ نوران وإرغامي على إرضاعها من الثدي الأكثر تحجرًا والتهابًا! . لكني أعترف أنه رغم ما شابت زيارتها من «تعسفات»؛ بحيث كلما اعتصرت حليبًا أبيض، أمَرَت الممرضة بإراقته في الحنفية، بدلاً من الاحتفاظ به كاحتياطي لليوم الأسود! . إلا أنها علمتني ما لم أكن أعلمه، وهو أنه لا يكفي أن أستخرج الحليب وأنام على جانب الراحة، بل يجب أن أواصل العملية حتى يعود الثديان إلى حالهما وحجمهما الطبيعي. وحتى يختفي عنهما التحجر والالتهاب تمامًا.

لاحظت أنا وزوجي أن زائرتنا الأخيرة، كانت أكثر فريق الرضاعة تطرفًا ومناوءة لاستخدام الأدوية الكيماوية! . فهي لا تؤمن إلا بالماء طهوراً وصابونًا، وزيت الزيتون مرطبًا وبلسمًا! . كما أنها من دعاة العودة إلى الطرق البدائية في العناية بحديثي الولادة. وتعتبر أن رضعة الرضيع هي أفضل بكثير من الشفاط الكهربائي أو اليدوي. لذلك أتلفت محصولي الزراعي دون هوادة! .

بعد انصراف الجميع، أزحت الستارة الفاصلة بيني وبين الغرفة الخاوية. قللت من الإضاءة المؤذية للبصر. ثم أغلقت الباب الذي كنت محرومة من إغلاقه خلال الأيام الماضية. وأحسست أخيراً بأني في مكان خاص وأني لست في حظيرة بشرية! . وكانت نعمة من الله ألا أقرأ السلام على جارة مزعجة ثالثة! . لذلك كانت المرة الأولى التي أنعم فيها بالهدوء، في صحبة الجدران الصامتة. بعدما فهمت أن عيادة المريض تعني في غالب الأحيان، في ثقافتنا العربية، إقامة حفل صاخب وساهر في وضح النهار على شرفه، داخل غرفته بالعيادة أو في المستشفى. بغض النظر إن كان جاره يحتضر أو من الألم يعتصر! .

كان من حسن حظي أيضًا في هذه الليلة، أن الممرضة المداومة هي ذاتها السيدة الهندية التي كانت ترافق المشرفة «المتطرفة»؛ بحيث كانت لديها فكرة واضحة عن «تاريخ» معاناتي. وقد وُهبت طيبة ورأفة نادرتين، مما جعلني أفضي إليها بما يحز في نفسي. بدءاً بتعمد المشرفة إراقة الحليب دون أن تفكر في المحنة التي وَضَعَتْنا فيها.

فقد كانت تساعدني على استخراج الحليب، قطرة قطرة، ثم تناولُهُ لنوران الجائعة، في كوبها الصغير، ثم تحاول تنويمها لتتفرغ لرعايتي. فتأتيني بين الفينة والأخرى بلفائف الكرنب المثلج، لأضعها فوق الثديين المتورمين والمحمرين، حتى تنخفض حرارتهما. أو ترعى نوران ريثما آخذ حمامًا تحت الرشاش الدافئ، لعله يساعد على تيسير عملية استدرار الحليب. أو تحتفظ ببعض القطرات من الحليب المستخرج في الثلاجة.

كل ذلك دون أن ألحظ على وجهها أثر التذمر أو التأفف من السهر على خدمتي. وحتى حين وضعتها في مأزق السؤال، دفاعًا عن حقي في الراحة، وحق ابنتي في حليبها الكافي، سائلة: «هبي أن الحليب انقطع من شدة الإرهاق الذي أوصلني إليه فريقك، أو أني متُّ فجأة، وليس معك ما يكفي لإرضاع ابنتي. ألن تضطري إلى إطعامها لبنًا اصطناعيًا؟!». فقالت برحابة صدر المهاتما غاندي، يرحمه الله:

أولاً: أنت لن تموتي الآن!.

ثانيًا: إذا كنت خائفة على كمية الحليب اللازمة لابنتك، فهي كافية.

ثالثًا: إذا لم يكن فريق الرضاعة الطبيعية صارمًا معك، فكيف سيضمن مواظبتك على إرضاع ابنتك رضاعة طبيعية، بعد أن تغادري المستشفى؟، فكما لاحظت هُنَّ لا يسمحن حتى باستعمال الرضّاعة البلاستيكية، حتى لا تنفر من الثدي إذا ما تعودت عليها. كما أنهن لم يتركن لك وقتًا كافيًا للراحة؛ لأنهن يعلمن أن ذلك الوقت بالتحديد، هو الذي سيمتلئ فيه الَثدي من جديد، ويسبب لك مزيدا من الآلام. لذلك ستجدين في النهاية أنهن يفكرن في راحتك على المدى البعيد، حتى تتمكني من إرضاع ابنتك بدون آلام».

سكتت الحكيمة الهندية عن الكلام المباح. ثم ودعتني وهي تتمنى لي نومًا شافيًا. بعدما تجاوزت الساعة الثالثة صباحًا بدقائق.

***

٢٥/ ٦/ ٢٠٠٤م

أبجدية الأمومة

لم يمض اليوم الأول من بعد ولادة الغالية نوران، حتى بدأت أشعر بأني أصبحت مثل العروسة محناة اليدين والرجلين! . فكل ما لا أستطيع القيام به، تقوم به الممرضات على أحسن وجه. لذلك كان عليّ أن أبحث لي عن دور يميزني ولا تقدر عليه واحدة سواي. ومع مرور الساعات، اكتشفت أنني فعلاً مؤهلة للقيام بأعظم الأدوار وأسمى الوظائف في حياة الأمهات: الرضاعة. لكنها هي الأخرى، وجدت نفسي عاجزة عن القيام بها على أكمل وجه! . والعجيب في الأمر أني ما ظننت يومًا أني سأكون معنية بها! . فقد ظلت على مدى سنوات، موضوعًا ثانويّا بالنسبة لي. لذلك حين «توعدتني» صديقتي بالرضاعة حولين كاملين، صحت فورًا: «أعوذ بالله، ليس أكثر من ثلاثة أشهر. فأنا لي عمل ينتظرني. ثم يكفي أنني لن أفعل مثلما تفعل الأمهات اللاتي يفطمن أولادهن في أسبوعهم الثاني!» .

أحيانًا أقول مع نفسي لولا هذه الظروف الدقيقة؛ بآلامها المتنوعة وهزاتها المعرفية المتتالية، لما تغيرت قناعتي إزاء الرضاعة. لذلك كانت كلما مرت عليَّ لحظة موجعة، ازددت اقتناعًا بأهميتها وسخرية من نفسي حين كنت أستهين بها، معتقدة أن الرضاعة والفطام أمران يخضعان لشهوتي الخاصة وإرادتي المطلقة؛ أرضع كيفما أشاء وأفطم وقتما أشاء. ما دامت العملية برمتها، لا تعدو أن تكون وضع ثدي الأم في فم رضيعها! .

من الفضيلة إذن، أن أعترف بأنني كنت سأكون شقية، لو رَمَتْ بي الأقدار بين جدران عيادة خاصة، فيها السرور والإبر والخدر، لكن ليس فيها من يشن الحرب الضروس على كل رضاعة غير طبيعية! . فمن دون أن أدري، تعرضت إلى أسرع وأنجع

غسيل دماغ في حياتي. حتى صرت أحكم على نفسي بالفشل الذريع كأم، إذا انتهى بي المطاف إلى إطعام ابنتي حليبًا اصطناعيًا؛ عن طريق الرضَّاعة البلاستيكية.

لقد استطعن أن يجعلنني أحط من قدري وشأني عند نفسي، إذا ما فشلت في المهمة أو إذا ما توانيت عن أدائها خشية الألم. وبدأت أشعر بأني سأكون أفقر الإناث، إن عجزت عن إرضاع ابنتي مثلما تفعل القطط والأرانب، والمتسولات في الباصات العمومية وأرصفة الطرقات، وهن يكشفن أثداءهن للعامة من أجل إرضاع أطفالهن!.

كما ساهم أيضًا في إذكاء عزيمتي وحشد همتي؛ رؤية ابنتي وهي ترضع إصبعها وهي لم تكمل بعد يومها الثاني. وهو ما اعتصر له قلبي. إذ لا معنى عندي ولا دلالة لذلك المشهد المؤلم، سوى أنها تبحث عن تعويض ذاتي لما ينقصها ولِما قصّرتُ فيه حيالها. فكيف لا أنتصر لها وهي أجمل ما تحقق في حياتي؟.

أخيرًا ومع إشراقة شمس هذا اليوم الهادئ؛ أدركت أنني كنت محظوظة لمجيئي إلى هذا المستشفى، الذي نعيت فيه حظي أول ليلة!، لكنني تعلمت فيه أبجدية الأمومة. وكان درسها الأول: الامتثال إلى الفطرة التي ألهمت الرضيع مشربه، قبل حتى أن يفتح عينيه!. ولا شك أن الدروس مُوصلة إلى ذلك اليوم الذي سأعرف فيه، لماذا كانت الرضاعة توأم الأمومة؟.

رغم ما لاقيته من عناية ولطف من قبل الممرضات اللائي كن معظمهن آسيويات، ورغم أنني سأحتاج إلى المساعدة، إلا أنني شعرت بالحاجة للعودة إلى البيت وإدارة مشاكلي بنفسي، وذلك حتى لا أستطيب الاعتماد عليهن، فأجد نفسي مشلولة بين عشية وضحاها من دونهن. لذلك حين سألتني نانسي إن كنت أود البقاء يومًا آخر، أجبتها فورًا: «كلا، ولكن أريد أن أحضر درسًا نموذجيًا لتحميم نوران، قبل مغادرة المستشفى».

كان أهم ما ميَّز زيارتها هذه المرة، أنها لم تناولني نوران لإرضاعها، ليس إهمالاً أو نسيانًا منها ولكن، لأنني فور وصولها كنت قد أنهيت حصة رضاعتها!. لذلك خاضت في شأن آخر، حيث أجرت لها بعض الفحوصات، ثم أخذت عينات من دمها. ومن ثم ذهبنا بها إلى طبيب الأطفال الهندي، ليعاين حالتها الصحية، والذي

ألح بدوره على أهمية الرضاعة الطبيعية والمواظبة عليها! . فكانت أول مناسبة لأخرج فيها من حدود غرفتي وامتحان قدرتي على المشي، الذي لا يزال بطيئًا ومُجهدًا. لكن رغم ذلك، كان لا بد أن أرى رأي العين والخبرة، الطريقة المثالية لغسل نورانَ. والتي أشرفت عليها إحدى الممرضات الطيبات، تحت أنظار مجموعة من الحوامل وهن ينتظرن ساعتهن .

لا شك أن التغيير كان واضحًا وملفتًا بين حالي وأنا ممدة فوق فراش النقاهة، وبيني وأنا أرتدي القميص الوردي والبنطال الأبيض؛ سواء بالنسبة للممرضات اللاتي أبدين إعجابهن بشكلي المغاير، أو بالنسبة لنانسي التي سُرت برؤية وجهي الآخر. والتي أصرَرْتُ، كما كانت تصر على إرضاع ابنتي، أن تأخذ صورة معنا، تخليدًا لذكرى الإخلاص المهني والاستماتة من أجل الوصول إلى الهدف، حتى لو كان من أجل تحقيق مصلحة الغير! .

قبل أن أودعها وهي تتوقع لي عودة بعد سنتين، سألتها عن أقراص أخرى لتخفيف الآلام. لكنها أخبرتني بأني أخذت ما يكفي وأنها ستختفي مع مرور الوقت. كما ذكرتني بأنه لا يجب أن أنسى بأني كنت محظوظة لأني سلمت من القيصرية، التي كانت كابوس حياتي؛ وأن آلامها كانت ستكون أشد من آلامي الحالية. ثم أضافت في نهاية حديثها، أن نسبة الولادة الطبيعية التي تستلزم إجراء الغرز تصل إلى أكثر من سبعين في المائة!!! .

حين رأيت الشمس لأول مرة، بدت لي معمية، رغم أن الوقت كان عصرًا. صعدت إلى السيارة بسند وبطء شديد. نظرت عبر الزجاج المدخن إلى أبوظبي بعين مختلفة.

كان اليوم جمعة، وكان الناس في بيوتهم. فبدت عودتنا إلى الإقامة كما لو كانت تمر في ظروف غامضة أو شبه سرية! . بارك لنا الناطور العربي مجيء المولودة الجديدة. وقال الآخر الآسيوي: «لقد كنت أعرف أنها بنت!». فسألته: «وما أمارةُ ذلك؟». قال: «لأن الحامل كانت جميلة!». والعهدة على الثقافة الفيليبينية! .

فوق إحدى الطاولات، وجدت باقة ورد رائعة الألوان وهدية من فوزية. أما رائحة البخور التي كانت تغمر المكان، فكانت خير دليل على أن الملائكة زارتنا، لتبارك لنا قدوم الأميرة للا نوران. .

١/ ٧/ ٢٠٠٤م

بـاب الأمــل

حتى حين كنت أنسى، كان النسيان يذكرني بالوعد الذي قطعته على نفسي يوم أمتثل فيه بين يدي الله عز وجل يوم القيامة؛ فإن أوتيت كتابي بيميني طلبت منه تحقيق أمنية بسيطة، قبل أن أدخل باب المفازة. وهي أن يعيدني إلى الحياة الدنيا، كما عرفتها وكما أراد لها هو بحكمته أن تكون؛ بشقائها وعذابها وجنونها ومتعهاومباهجها. ولكن بشرط أن يكون أمري بيدي، فتكون المشيئة مشيئتي، لا تصارعني فيها إرادة.

أكون ما أريد في اللحظة التي أريد. لا أخشى عاقبة حبي وكراهيتي. لا أمرض ولا أكبر ولا أخاف ولا يهددني شيء أو تتوعدني أعرافٌ! . لا زهد بعد حرمان، ولا حكمة بعد مرارة. أضحك متى أشاء وكيفما أشاء. أطير في السماء. أحكم ولا أُحْكَم، لا أظْلمُ ولا أظْلَمُ. لا أُكْرَهُ على الذل الأصغر درءًا للوقوع في الذل الأكبر! . أغضب ولا أخاف عاقبة غضبي. أتحرر من هذا الخوف اللعين الجاثم فوق نفسي! . أوتى ملك سليمان وجمال يوسف وعلم داود! . أحقق حلم أبي ، أرى القبيلة عادلة، عالمة وقد استعادت الرشد والعافية! .

ولو كان طلبي مستحيلاً!، فعلى الأقل أُمْنَحُ الحق في حلم أقرر فيه مصيري بنفسي!، فلا أفيق منه إلا بعد مائة عام! . ثم أصحو وقد أشفيت غليلي في الحصول على المرتبة الأولى! . لأن في الجنة درجات ومقامات عالية، احتُجزت للرسل والأنبياء والأصفياء والعلماء والعظماء وذويهم؛ بحيث سأكون من جديد، في الدرجات الدنيا كما كنت في الدنيا!!! .

قد يبدو حلمي عظيمًا لأول وهلة، لكنه سرعان ما يكشف عن الوجه البائس للشعور بالعجز والخيبة! . لأني أحتاج إلى كل تلك الخوارق والمعجزات لتحقيق أتفه الأشياء! . لذلك خاصمت الأحلام. وامتنعت عن التفكير في كل ما لا يمكنه أن يتحقق. ونكاية في الأحلام العصية، صرت لا أرضى إلا بنظرية «الكل أو لا شيء».

فلا معنى لامتلاك فندق في القمر، أو أسطول بحري، أو عشرين كيلومترًا مباني وملاهي على كوستاديل صول والمرض ينخُرُ جسدي، أو الموت يتوعدني!.

هكذا حسمت أمري مع الأحلام المتداولة بين الناس. أما على مستوى الواقع، غيبت كلمة حلم وبدَّلتُها بأمنية أو هدف أو مشروع أشغل به نفسي، ريثما أوارى الثرى؛ لأنها في كل الأحوال لن ترتقي بي إلى تلك المراتب التي أتوق إليها في الدنيا أو في الآخرة!.

هكذا كان الحال قبل أن تفك نوران أسر بعض أحلامي السجينة!. فأعادت بعضها إلى مثواها الأول، بطزاجتها وريعانها كما كانت، قبل أن تأتي عليها عوامل الأيام، فاتحة باب الأمل. فصار بالإمكان التفكير، من جديد، في تحقيق أمنيات عادية، كانت أصبحت بفعل العراقيل والكبوات، أحلامًا خارقة!.

العجيب أنها لم تكن ذات سلطان أو مُلك، وإنما كانت مجرد رضيعة صغيرة، تُجسد الضعف الإنساني في أجمل وأرق وجوهه!. وذلك حين كنت أربت فوق ظهرها، وأنا أساعدها على تسريح الغازات التي تسربت إلى معدتها أثناء رضاعتها، وهي لا تقوى على الجلوس أو حتى على تثبيت رأسها فوق عنقها!، أو حين تُرجع الحليب على حين غفلة، ثم يختفي تحت ثنيات عنقها، وهي لا تدري.

لحظتها ضممتها وأحببتها وقلت لها: «كيفما تكونين، أنت أجمل البنات وأغلى إنسان». ولثوان معدودة، سرح بي الخيال وهو يعرض أمام عينيي لقطات افتراضية لابنتي، وهي تتعرض إلى سوء معاملة أو إهانة. فاستعذت بالله من شر الصور. وعاهدت نفسي، جهد المستطاع، أن أقف بالمرصاد لكل من تسول له نفسه مس كبريائها. وإن كان لا بد من القتال، سأكون أنا من يصد عنها النبال. ولو كان بالإمكان أن أقيل عن طريقها العثرات، وأن أصحح مسار سبعمائة عام من الهوان، وقرونًا من الكسل والتسالي، لفعلت!، حتى لا تضيع جهودها سدى في مقارعة صعاب وصراعات، قد لا تزيدها صلابة بقدر ما تصيبها بالإحباط والزهد قبل الأوان!.

لقد منحتني نوران فرصة أخرى للحياة، قبل يوم الحساب. فهي بشكل من الأشكال استمراري. وكل ما ستحققه من إنجازات وأمنيات سيكون إطالة لعمر أحلامي.

الآن أكاد لا أصدق أنني بجوار ابنتي وأميرتي في مكان يغمره الحب والأمل. أخيراً سأجد من يرافقني في كل حين إلى حيث أشاء أو حيثما تشاء. لن أكلم الهواء وأنا ماشية في الأسواق. لن أغني بصوت عال حين يكون الصمت سيد العالم. لن أسمع صوت بكائي حين يملأ الفراغ صوت السيارات.

مشيت كثيراً وحدي، أكلت في المطاعم وحدي، وقفت أتفرج على الأثواب والعطور والكتب وحدي، دفعت عربات التسوق وحدي. رفعت الأثقال وحدي، ركضت في الكورنيش وحدي، لعبت الأيروبيك وحدي. وكان الناس دائمًا مثنى وجماعة!. كنت مهددة بأن أبقى في صحبة وحدتي، حتى جاءت الغالية، الحبيبة، الرفيقة، لتكون معي.

اكتشفت أخيراً من يعوض الصديقات والأهل والأحباب. وفهمت لماذا لم أعد مهمة بالنسبة لكل صديقة أو قريبة صارت أمّا، رغم طول المحبة والقسم بألا نصبح مثل الفتيات اللاتي ما أن يتزوجن وينجبن، حتى ينسين الوعود!. ولو كنت أعلم أن كلَّ حب أفنيته فيهن كان سيتلاشى مع الأولاد والغربة، لما أحببت!.

ها هي ذي أمامي، يقظة الإحساس، رهيفة السمع. أقبلها وأرتاح ثم أقبلها. وأدعو لها حين تكون نائمة أن ترى صوراً جميلة لتبتسم بدلاً من أن تبكي أو تقفز من مكانها فزعا، فترمي بيديها إلى الأعلى باحثة عن التوازن، كما لو كانت ترى نفسها واقعة من قمة عالية. وما هي إلا لحظات حتى يتهلل وجهها الحلو الصغير، فأعرف أنها تبتسم للملائكة. وأقول سبحان الذي أضحك وأبكى!.

وحين تغط في نومها الهادئ.. أتخيلها تمشي صغيرة... تمشي بشعرها الحرير... تمشي مثل الدمية... في طولها في عرضها.. لكنها أحلى... لو كان كفي يسع الأرض التي تمشي عليها، لفرشته حريراً تحت قدميها... أتخيلها تخطو خطواتها الأولى تقع.. تخاف.. تنهض.. تبكي لتفيض أنهار الدموع من عينيها اللوزيتين، أضمها وأراضيها.. ثم تقع مرة أخرى.. وبين ترقب الوقعة الثالثة والتالية، يفز النبض في قلبي. تضحك.. تلتفت.. تقفز.. تصرخ.. تجري.. تتعثر.

أتخيلها تنطق كلماتها الأولى، تتأتئ، لا أفقه قولها . . وأضحك . تحاورني . . تتكلم . . تكبر . . ترافقني . . أمسك بيدها . تضغط على كفي ونحن نقطع الشوارع . . تتعب فأحملها . . ثم نجري . نقف أمام واجهات المحلات التجارية، تتعلق بلعبة، تشير بإصبعها . . تتسمر كما يتسمر كل الأطفال، محرجين آباءهم وأمهاتهم . لكنها لا تحرجني، بل تضحكني لأني لست مستعدة كي أضيع تلك اللحظات السعيدة . سأجري وراءها . . ستلعب معي . . . سنذهب للملاهي وأصرخ مثلها وأكثر، ولا يهمني أن تظهر عليَّ ملامح الشوق إلى الطفولة!.

* * *

١٠/ ٧/ ٢٠٠٤م

المتغيرات

ما زالت بعض الآلام تصاحبني عند الجلوس أو المشي أو الوقوف المطول، بين الفينة والأخرى. وهذا ما لم تكن فوزية تعرفه بعدما لمست ضيقًا في مزاجي. إلى أن ذكرتها ذات صباح، بما طَلَبَتْهُ مني حين جاءت لأول مرة تطلب عملاً، قبل أشهر؛ وهو أن أصبر عليها وعلى أخطائها، ريثما تتعود على طبيعة عملها الجديد. وإنه جاء الوقت كي أطلب منها صبرًا جميلاً على حالي السقيم، حتى أسترجع عافيتي وأتكيف مع المتغيرات الجديدة. فكانت أكرم مما كنت أتوقع، حين أخبرتني بأنها لا تعاتبني على شيء، بقدر ما تخشى أن تكون بعض هفواتها هي سبب انزعاجي.

أما رياح التغيير المفاجئة، فلم تأت على شيء إلا وقلبته رأسًا على عقب. حتى لم يعد في الإمكان القرار أو الاختيار في أبسط ضروريات الحياة من نوم وأكل وراحة، والتي أصبحت دون أهمية أو اعتبار أمام متطلبات الوظائف الجديدة، وعلى رأسها: الرضاعة.

كنت فيما مضى أرثي لحال الأمهات اللاتي يستيقظن في الخامسة أو السادسة صباحًا. وكنت أحسبني بعيدة عن ذلك العذاب، لما يشكله النوم من أهمية في حياتي. ولم أكن أعلم، حين اتخذت قرار المواظبة على الرضاعة الطبيعية، أن يكون ثمنها وشرطها الباهظ: الحرمان من النوم! . لقد اكتشفتُ أن نوم المرضع، لا يمكن أن يكون متواصلاً بأي حال من الأحوال، ما دامت الرضيعة تحتاج بين الفينة والأخرى إلى تناول وجبة فطورها أو سحورها أو عشائها. فضلاً عن جرعات الحنان والاطمئنان على مدار الليل والنهار. مما لا يدع لها فرصة في نصيبها من النوم المتداول بين الناس، طيلة فترة الرضاعة المقررة.

كنت واهمة أيضًا حين ظننت أنه بإمكاني تعويض نوم الليل في النهار، إلى أن اكتشفت بالدربة والممارسة أن فرصتي الوحيدة في النوم و«الراحة»، هي تلك اللحظات

التي أتجمد فيها داخل الفراش؛ أي حين تكون ابنتي منهمكة في الرضاعة. ولا يكفي أن تنتهي حتى يُرفَع عني حظرُ الحركة، ما لم تنقلب من تلقاء ذاتها إلى الجهة الأخرى. آنذاك فقط يجوز لي أن أنقلب إلى الجهة نفسها، كي أريح الجانب المتشنج ويسري الدم في قدمي المتنملة وأكون على أهبة للرضاعة من الجهة الثانية. وإلا فإن أدنى حركة مني، كفيلة بأن توقظها. فأكون مضطرة من جديد إلى قيام الليل مشيًا على الأقدام، رغم آلام الظهر والمفاصل.

وحتى حين يُفرج عني بالنوم ساعتين، أصحو مذعورة بين الفينة والأخرى، خوفًا عليها من اختناق محتمل تحت الغطاء، أو مني إذا ما هويت عليها بثقلي. خاصة أن القابلة جاكلين أخبرتنا في إحدى الحصص التأهيلية؛ أن هناك احتمالاً بأن يموت الرضيع فجأة، لأسباب غير معروفة خلال الستة أشهر الأولى. فكيف أنام قريرة العين؟!.

لا شك أنه كان بالإمكان أن أقتنص فرصة للنوم أو الاسترخاء خلال النهار أو فترة المساء، حين تكون الغالية مسترسلة في نومها، كما ينصح الناصحون!. ولكن لو فقط كان معنا شخصٌ آخر يحرسها أثناء نومها، بحيث ما أن ترى حلمًا مزعجًا حتى تجد من يحضنها ويهدهدها فتعاود نومها. أما والسواعد معدودة، فإنها لا تكفي سوى للتوفيق بين عمل المطبخ والتسوق والحفاظ على نظافة البيت ونظامه، ورائحته حتى لا يشعرن أحد بوجود رضيع في البيت!. وكل ذلك يتطلب جهدًا ومتابعة مستمرة وسرعة في الأداء، ما دامت فوزية لا تقيم معنا، وساعات عملها محددة حسب طاقتها. لذلك لا وقت عندي للوقت وساعات اليوم ما عادت تكفيني.

من الفراش يبدأ التخطيط لأعمال اليوم. لذلك أكون أحرص من في البيت على أن تبقى نوران نائمة. وإلا اختل سير النظام وانشغلتُ في طقوس العناية بها، التي لا تكتمل قبل ثلاث ساعات. وهو ما يقتضي مني حملها وإرضاعها وتحميمها وتغيير حفاضتها والربتُ على ظهرها لمساعدتها على إخراج الغازات من معدتها عقب كل حصة رضاعة. لذلك حين أيقنا جميعًا بأنها رهيفة السمع، لم يعد هناك حل آخر سوى الرضوخ لأمر الواقع؛ من خلال تركيز الانتباه على أي صوت أو حركة نحدثه أثناء نومها. ومن سها أو تسبب في إيقاظها، وكلت إليه مهمة تنويمها!.

لم تعد هناك حركة عشوائية أو ساهية، وإنما صارت كل خطوة بقدر! . نمشي على الأرض كما لو كنا نمشي فوق الحبل! . السعال يُكتم أو يُقتل في المهد. لا صوت لحذاء أو شبشب. لا تُفتح الأبواب إلا على طريقة اللصوص الظرفاء! . تُغسل الأواني بحذر، يُرَشُّ الماء في الحمام مقطوع الحس! . كل الأعمال ذات النبرة العالية تُؤجَّلُ لما بعد استيقاظ الغالية. ناهيك عن صمت الهواتف، بل حتى التليفزيون صرنا نشاهده صورة بلا صوت. أمَّا باب الشقة، فأتركه مواربًا عند مطلع الفجر وأنا أنيم نوران، كيلا يُسْمَعَ صوت فتحه حين تأتي فوزية في الصباح، لتباشر عملها في الصمت المتفق عليه! .

في ظل هذه المتغيرات والتي أصبحت مع مرور الأيام ثابتة! ، وبعدما لم تعد هناك حدود فاصلة بين الليل والنهار، أدركت أن وقت الفراغ بالنسبة لي سيكون؛ إما وقت التسوق الاضطراري بين الفينة والأخرى، أو وقت استخراج الحليب الذي يبدأ أعماله منذ نهوضي من الفراش، إذا كانت نوران نائمة. ثم يليه أخذ حمام ساخن، ليس بهدف الاسترخاء! ، لأنه صار من البديهي القول لا وقت لذلك، وإنما لتليين الاحتقان، انتهاءً بوضع أوراق الكرنب المثلجة لتخفيض درجة الحرارة، مثلما كنت أفعل في المستشفى. لذلك ما زلت أنتظر بفارغ الصبر وفيض الرجاء، اليوم الذي يأتي وأرضع فيه ابنتي دون أن أطلق صرخة مدوية عند الوهلة الأولى، وكأنني أتعرض إلى لسعة حامية! .

لكن رغم الضر والألم، لا يمكن أن أنكر فضل ساعات المشي وأنا حاملة ابنتي، وانقباض عضلات بطني كتمًا لآلام الرضاعة، فلولاهما لما تمكنت من استرجاع رشاقتي ووزني في ظرف أسبوعين! . وهو ما لم أكن أحلم به أو أتوقعه. لذلك حين عدت إلى المستشفى كي أواصل حصص التأهيل للرضاعة الطبيعية، تحت إشراف فريق مخلص يستحق وسام الرضى، أثَرْتُ انتباه الأمهات واستحسان الممرضات والقابلات. ولعل فرحة ذلك الثناء، هو ما يمدني بالشجاعة لتحمل لسعات الشفاط الكهربائي، الذي لم أسلم من مواجهته حتى الآن! .

***

١٦ / ٧ / ٢٠٠٤م

الواقع والخيال

تالله! . لم تكن غايتي وأنا أتذكر بعض النصائح الموجهة للحامل، المقبلة على حياة جديدة؛ أن أتصيد هفواتها! . لكنها من تلقاء ذاتها أظهرت لي الفرق الشاسع بين تنظيرات هؤلاء الأساتذة الأفاضل وبين حقائق الواقع، التي تجعل ما ينبغي أن يكون، هو ذاته أبعد ما يكون! . وهذا ما جعل الفجوة بين الواقع والخيال، تكشف عن الجهل العميق بما تحتاجه المرأة؛ حين تكون أمّا لمجموعة أطفال ومرضعة في الوقت ذاته، وأُمّا أيضًا لزوج لم يُفطم بعد!، في ثقافة تختلف اختلاف الليل والنهار، عن البيئة والثقافة، التي نُقلت عنها تلك النصائح والتنظيرات بحذافيرها وخصوصيتها وحضارتها ووعيها الفكريَ والاجتماعي. لذلك يبدو الذي تفضل بالترجمة والنصح، كأنه لا يعرف عن واقعه، سوى ما تسمح به رؤيته خلف ستارة مكتبه المخملية! .

جميلة جدّا وطريفة أيضًا، تلك النصائح التي تدعو المرضعة إلى الراحة والاستجمام، مع الاسترخاء بين الفينة والأخرى داخل حمام دافئ مدجج بالأملاح المعدنية الفستقية والبنفسجية، لتختلف النكهات والنسمات! . وأن تعوض تعب الليل بالنوم في النهار ولو لساعتين! . ولا تنسى نصيبها من الدنيا، فتقتطع من وقتها ساعة على الأقل، لممارسة تمارينها الرياضية، كي تستعيد في أسرع وقت رشاقتها وقوة عضلاتها، التي ستساعدها على حمل رضيعها «دون» أن تشعر بالعياء! . فضلاً عن تقوية عضلات الظهر، الذي يبدأ بالتقوس شيئًا فشيئًا، من جراء حمل الرضيع والانحناء عليه أثناء هدهدته أو إرضاعه لساعات طوال. ناهيك عن ضرورة استخراج وقت خاص بها لا يشاركها فيه أحد؛ كأن تذهب فيه إلى المقهى أو للتسوق، أو لمشاهدة الأفلام، أو لزيارة الأهل والصديقات، أو للذهاب إلى المعارض التشكيلية والمكتبات، أو حتى إلى حديقة الحيوان! . المهم أن تشعر بأنها لا تزال كما كانت؛ حرة، طليقة. الوقت وقتها، والحياة قدامها! .

ويتمادى هؤلاء الأساتذة الكرام في تدليل وتدليع هؤلاء الأمهات الطيبات، بالمجان!، حين لا يهملون دور الزوج، فيطالبونه بأن يمد زوجته وأم عياله بالدعم المعنوي والسند العاطفي الذي تحتاج إليه، بعد محنة الحمل والولادة ومتاعب الرضاعة. وذلك بالتناوب مع زوجته ليلاً في حراسة نوم رضيعها. وأيضًا بتغيير الحفاضات وتحضير الحليب للرضيع إن كانت الأم خارج البيت. وأيضًا بمشاركتها أثناء تحميمه؛ لأنها أدق وأصعب المهمات التي لا يمكن لإنسان على وجه الأرض أن يقوم بها بمفرده، مهما بلغ حذقه ولطفه، إلا إذا كان مغامرًا مقامرًا بحياة الرضيع، فذلك أمر آخر!.

لكن آه ثم آه!. لو كان بالإمكان أن يقدم الزوج، من العينة التي تنطبق عليه المواصفات التالية، لزوجته دليلاً على مودته ومؤازرته لها، غير أن يرسلها كالطرد البريدي إلى بلد «منشئها»، شهرين قبل الوضع وثلاثة أشهر بعده!، كي تلقى العناية اللازمة بجوار أمها، في فترة تكون فيها في أشد الحاجة إلى عربون المحبة!. وحتى إذا كانا يعيشان معًا في بلدهما، فحتمًا ستجد بديلاً عنه للقيام بالواجب. وإن لم تجد، فعليها أن تتحمل مسؤوليتها وحدها وتدبر أمرها؛ لأنه لن يكون أبدًا ذلك الزوج الغربي «الذليل»، الذي يتنازل عن عزته وكبريائه لزوجته!.

لذلك تبدو نشازًا، بل مضللة تلك النصائح المستوردة والموجهة إلى حامل عزلاء من تجربة!، حين يصبح الحديث عن التعب والسهر، تافه الأهمية ومقدورًا عليه؛ لأن مقدم النصيحة لم يشعر به يومًا!، فيمر عليه مرور الكرام!. وهذا ما يدفع الحامل لأول مرة إلى الاعتقاد بأن بركة الأمومة ستقف إلى جانبها، ما دامت ستخطو أولى خطواتها فوق بساط الجنة!. وإنها بقدرة قادر ستستعيد قوتها ونشاطها مثلما كانت قبل الحمل، وذلك بمجرد حلول يوم العقيقة المبارك!.

لا شك أن من مرت بتجربة الحمل والولادة في ظروف غير مريحة، تعلم جيدًا أن تلك النصائح المزالق، لن تنطلي عليها من جديد، خاصة إذا كانت مقبلة على تجربة حمل جديدة؛ ذلك لأنها تعرف جيدًا التدابير اللازمة التي يجب اتخاذها قبل الوقوع في عنق الزجاجة، دون أن تلقي نظرة على تلك النصائح الخيالية، التي «لا تلائم طبيعة خصوصيتنا الغالية!». لذلك لن تكون ثقيلة الروح، فاترة الإحساس فتتهور بوضع تلك الكتب فوق كومودينو زوجها، بقصد إثارة فضوله؛ لأنها تعلم مسبقًا أنه يشعر

بالخزي والإهانة لوجود رجال، سواء من بني جلدته أو في الضفة الأخرى، يقللون من شأن الرجولة ولا يرعون الذكورة حق رعايتها؛ طالما أحبّوا لزوجاتهم ما يحبونه لأنفسهم!.

لولا فضل تلك النصائح، لما استطعت أن أقرأ بطلاقة وسلاسة، سرّ ملامح الحزن والذبول والعبوس والتجهم فوق وجوه الحوامل الوالدات، على خلاف بشاشة وطلاقة وجه الحامل لأول مرة!.

ما من شك أن الحامل المجرِّبة تكون قد مرت من معاناة ساعات المخاض، وصدمة رؤية بطنها الرخو، واهتراء يديها بالماء من كثرة تغيير الحفاضات!. وضرورة تلبية بكاء الرضيع حتى لو كانت داخل الحمام تقضي حاجتها!. كما تكون على دراية بالحقائق والوقائع، دون توهم أو تفاؤل مُتَهور. فهي تعلم، رغم حبها لوليدها، أنها تحتاج إلى خزان لا ينضب من الصبر وضبط النفس وكظم الغيظ وتجاوز الصدمات المعرفية، التي تقابلها يومًا بعد يوم. وأن مسؤولية الرضاعة تكاد تكون أشق من الحمل، إن تم بسلام. وأنها وظيفة مُرهقة وشاقة وموترة. إذ يكفي الشعور الدائم والمتواصل، بأنها المسؤولة الوحيدة عن إطعام رضيع على مدى ستة أشهر من حليبها الخاص، كمرحلة أولية. بحيث تتحول بين عشية وضحاها إلى ثلاجة أو سوبر ماركت أو بقرة حلوب لا غنى عنها!. لذلك يجب عليها أن ترهف سمعها باستمرار، كي تكون على أهبة دائمة لإرضاعه متى شاء وأينما شاء. وبذلك ستعلم أن السيطرة على الوليد وهم كبير وأن أعصابها هي الأولى بالسيطرة عليها!.

أما الحامل لأول مرة، فتعتقد أنها ستكون امرأة خارقة!. بحيث تستطيع أن تُكَيف الأوضاع حسب هواها. كما تتوهم أن الكل سيكون في صفها من إنس وجن وجنود خفاء وأم وأهل، بحيث ما أن يصرخ ابنها، حتى يهب الكل هبَّة أمّ واحدة لنجدته والعناية به!. ولا تصحو من أوهامها حتى تجد نفسها بين عشية وضحاها، وجهًا لوجه أمام الورطة!. وحتى لو كان الزوج متعاونًا لأسبوع أو أسبوعين، إذا كانت الأمّ سعيدة الحظ، فإنه حتمًا سيمل من تغيير الحفاضات، وتدفئة حليب الرضيع ورعايته، ريثما تأخذ حمامها أو تحضر العشاء. إلى أن يأتي اليوم الذي يتركها تواصل مشوارها الجديد

في «خفة ونشاط». لأنه ليس أبله ولا ضعيف الشخصية، كي يتورط في مساعدتها أو العناية بابنها، حتى لو كان يحبهما حبّا جمّا!!!.

لذلك ستتآكل يومًا بعد يوم، ويزداد حرمانها من النوم، ويأسها من استعادة حياتها السابقة، فتدخل في رحى الإهمال وطاحونة الاكتئاب. وستعلم رويداً رويداً أن من سبقنها في الحمل والولادة، لَسْن مجرد نساء «غاويات» نكد أو تجهم، وإنما هو الوقوع في شرك المسؤوليات دون شريك، هو الذي يأتي على الأخضر واليابس..

وبكل وقاحة!، يتساءل المتسائلون عن أسباب اكتئاب المرأة بعد الولادة؟!. وكأن الجواب لا يعلمه إلا السميع العليم. فالحمد لله الذي وهب النساء سن الأمل كيلا يحملن فوق الخمسين!.

***

٢٠/ ٧/ ٢٠٠٤م

يحيا العمل!

منذ ولادة نوران وأنا أسمع إما صدى بكائها، حتى لو كانت لا تفرقني عنها سوى خطوات، أو مجموعة عبارات، كنت دأبت على سماعها عشرات المرات في حياتي، دون أن أتمعن فيها ولو مرة واحدة. كأن يردد الأزواج: «هذا هو حال صاحب العيال»، أو«أخت زوجي محظوظة؛ لأن حماتي ترعى عيالها»، أو«فلانة تعطي نصف راتبها للشغالة!»، «لا أفكر في الإنجاب مرة ثالثة؛ لأن مساعدتي تزوجت». وهي عبارات معروفة وشائعة الاستعمال بين الآباء والأمهات، يتداولونها فيما بينهم، وكأنها شفرات لا يفك رموزها إلا من دخل كهف التجربة. لذلك لا يحتاجون إلى كلام كثير وتفسير طويل!..

حين كانت تعبر مسمعي تلك العبارات، كنت أزداد يقينًا بأن الحياة الزوجية مفعمة بالضجر!، لذلك كنت أتحاشى سماعها والتدبر فيها. وحين وقفت عندها شعرت كما لو كانت البشرية أيضًا، استفاقت من غفلتها وغفوتها، في الوقت نفسه الذي فتحت فيه عيني على «أم الاكتشافات والحقائق!». لكن، كما يقول حكماء السير: «التأخر في الوصول، خير من عدم الوصول!».

لا أعرف حتى الآن كل الحواجز النفسية والفكرية، التي عطلت قدرتي على تقدير أهمية وجود شخص ثالث في حياة الأسرة، التي تستقبل مولودًا جديدًا، حتى يكون أحد السواعد المعول عليها في حمل الوليد آناء الليل والنهار، بحيث تستطيع الأم ممارسة رياضة أخرى غير حمل الأثقال، كما ينصحها الحاذقون!. لكن فوزية التي كانت تصغرني سنّا، أبدت لي أكثر من مرة، عدم قدرتها حتى على تخيل نفسها بعد الوضع، بعيدة عن أمها وأسرتها. ولا شك أنها ازدادت إيمانًا على إيمان، بعدما رأت النموذج الحي الذي لا ينبغي الاقتداء به!

حين بدأ الشعور بالعجز يتمكن مني يومًا بعد يوم، وكأنه سم حية يسري في جسدي، استعنت بالفكرة رقم(٣) : «المصيبة إذا عمت هانت». أي لا بد من وجود نساء مثلي، مررن ويمررن بالأزمة نفسها. ولم أقف عند ذلك الحد، بل أطلقت عنان خيالي ليستحضر أمامي سيناريو معاناة الأخريات، إلى أن وصل بي إلى الفكرة رقم (٢) : «لابد أن هناك من هن أسوأ حالاً مني»، ولن يكون سوى حال الموظفة التي وضعت حملها، ثم استأنفت عملها خارج البيت. وكاد قلبي ينفطر إشفاقًا عليها. وأنا لا أصدق كيف تستطيع المسكينة أن توفق بين التسوق والطبخ والرضاعة على مدار أربع وعشرين ساعة، وحمل رضيعها ست عشرة ساعة في اليوم، ناهيك عن آلام الظهر وبقايا آلام العمليات التي خضعت لها أثناء الولادة، والحرمان الدائم من النوم، واستحالة إيجاد وقت للراحة! . يا إلهي، كيف تستطيع هؤلاء النسوة الجبارات، إطفاء نيران كل تلك الحرائق دفعة واحدة؟! . كيف استطعن أن يواصلن شعرة معاوية مع الحياة خارج الجدران؟، فيما أنا أدور في حلقتي المفرغة، خلف الأبواب؟! . . . وفجأة، تحول شعور الشفقة والعزاء إلى غبطة وثورة. لأجدني في قلب الفكرة رقم (١) : «ما فيش حد أحسن من حد»!!! .

لقد اكتشفت وأنا أواجه أول حالة عجز في حياتي، أن الحلول لا تأتي إلا إذا بحثنا عنها! ، وأن هؤلاء النساء لم يكن خارقات ولا فوق عاديات، وإنما أنا التي كنت أعيش على هامش التجربة النسائية، حتى أعماني الجهل بمتنها أبسَطَ أمورها! . كان يكفي مثلاً أن أسترجع تجارب بعض زميلاتي وقريباتي، حين كن يتحدثن بوضوح، عن اتخاذ كل التدابير اللازمة من أجل ضمان وجود شخص ثابت في البيت، ليقوم بمهمة مجالسة الوليد أثناء غيابهن خلال ساعات العمل. لكن الغفلة أنستني حدود إمكانياتي، ولولاها لاستطعت أن أفهم دون بذل أي مجهود فكري، أن الأعراف البشرية لا تسمح حتى الآن، ببقاء الرضيع وحده في البيت! . و الدليل على ذلك، وجود أمه خارج البيت! ، سواء كانت في العمل أو في السوق أو في حمام السباحة! .

تحت أنوار تلك الحقيقة المضيئة، وعكس ما كنت أتوقعه وأتخيله، بدا لي عمل المرأة بعد وضعها، رحمة من الله تعالى! ، وفرصة لها للانعتاق من أسر بيتها، والفكاك من دوامة أعمال البيت المحبطة. وأنه لم يكن جحيمًا ولا مستحيلاً إلا في خيالي العاجز

عن رؤية الشمس! . وما كنت لأكتشف تلك النعمة، لولا أن اضطرني غياب الشخص الثالث للخروج من البيت، من أجل التسوق العاجل! .

لقد شعرت فجأة بفرحة استرجاع يديَّ ورجليَّ، وبقدرتي على الحركة دون قيد أو شرط. وأن هناك حياة مختلفة خارج البيت، بدأت أنساها! . وبعد أن كدت أفقد قريحتي للحياة، بدأت أتطلع إليها، وأنا أتلصص من بعيد على واجهات المحلات التجارية، وهي تَعرض الملابس التي كنت أزهد في رؤيتها خلال الأشهر الماضية. ولا أدري كيف استطاعت إعلانات صيف دبي أن تخرجني من الألوان القاتمة إلى الألوان الفاقعة، بحيث سألت نفسي لأول مرة: لماذا لا أحلم بإجازة قصيرة في دبي، بدلاً من أن أحلم بالعودة إلى المستشفى أو الإقامة في عيادة خاصة، ترعاني وتعتني بابنتي؟. وكان السؤال في حد ذاته، بداية الانعتاق من سجني الذاتي.

في المرة الثانية، كنت قد قطعت شوطًا في مواجهة العجز، بحيث لم تعد ابنتي هي العائق الذي يكبلني ويشعرني بالأسر، وإنما صارت هي مُحَفِّزي الأول على الخروج من البيت! . فبعدما عجزت عن إسكاتها عن البكاء ذات عشية، لم أشعر بنفسي حتى وضعتها في حمالتها، وجهها شطر وجهي، دون أن أفكر في عواقب ذلك القرار الخطير! . ورغم جهلي التام بالأهوال التي تترصدني خلف باب البيت، فتحته بسرعة، وانطلقت أبحث عن شيء يوقفها عن البكاء أولاً! . وما إن لفحتني رطوبة الهواء الخارجي، حتى نَسيَت ابنتي طقوس البكاء! . وحين وصلنا إلى المساحات الشاسعة المكيفة، كانت نائمة وكنت أنا منتصرة، أعدد فضائل انعتاق المُرضع من البيت، ولو في ظل الظروف الخانقة، حين لا تحظى بوجود شخص ثالث، يخفف عنها أوزار المهمات الشاقة.

كلا، إن عودة المرأة إلى العمل بعد وضعها، ليست نقمة، بل أم النعم! . فهو على الأقل يمنحها البطاقة البيضاء لاستنشاق الهواء خارج البيت . تمامًا مثلما يفعل الأزواج حين يجدون لأنفسهم ألف مبرر فقهي وبيولوجي! ، لرشف القهوة مع الأصحاب في المقهى، حتى وهم معفون من أعمال البيت المتلفة للأعصاب! .

كما أن العمل في حد ذاته ورقة مغرية بالنسبة للشخص الثاني أو الثالث، الذي غالبًا ما يكون من الأقارب، بحيث تستطيع الأم العاملة، أن تحظى بحق الأسبقية في الفوز

بالسواعد المرشحة لحمل ابنها، خلال ساعات غيابها عن البيت، ما دامت لا تنعم كغيرها «بالراحة» في البيت! . ناهيك عن كونه أسرع وسيلة لاسترجاع ثقتها بنفسها، وتحقيق ذاتها وطموحاتها حسب أهدافها في الحياة . . .

لن تجد المرأة عذرًا أجمل من العمل، كي تعتني بذاتها وشكلها! . وإلا كيف تقابل الناس بشعر نَسيَهُ المشط، ووجه أذبله الأرق والتعب؟! . ومهما تذمرت واستاءت من ظروف العمل، مثلما يستاء معظم الموظفين، حتى لو أمضوا سبع سنوات في انتظار الوظيفة!، فإنها حتمًا تُخفي في أعماقها فرحة الفوز بالخروج من البيت، مرة أو مرتين في اليوم وهي مطمئنة البال، لوجود الشخص الثالث والثابت في البيت، وهو يحمل بين أحضانه رضيعها، ويمنحه العناية اللازمة! . ولا شك أنها من حين لآخر، تصيح في صمتها: «يحيا العمل، يحيا العمل!» .

* * *

٣٠/ ٧/ ٢٠٠٤م

جنون الليل

كنت آمل يومًا بعد يوم أن تنام الغالية مثلما ينام الكبار! ، أو تؤجل بكاء الليل إلى الصبحيات أو العشيات، كي تعود الأيام إلى نصابها. ومع مرور الليالي، لم أجد بدّا من الرضوخ إلى أمرها الواقع. وتقبله كما تشاء هي. لأنها ليست مستعدة كي تبرمج حياتها الجديدة وفق حياتنا، بل علينا نحن أن نُطوع أنفسَنا وفق مزاجها. وكانت بالنسبة لي فرصة كي أعرف أن الذين «يتمتعون» بمزاجية متقلبة، ليسوا فقط أطفالاً، وإنما رُضَّع لم يكملوا بعد شهرهم الثاني!.

بعدما أجرينا أبحاثًا عديدة ومتنوعة من أجل الوصول إلى حل سلمي يُرضي الطرفين، أو مبادرة جادة نطرحها على مائدة المفاوضات مع عاشقة البكاء ليلاً!، اهتدينا من جملة ما اهتدينا إليه، إلى حل الانعتاق من البيت صوب المساحات الكبيرة والمكيفة، مثل «أبو ظبي مول» و«مارينا مول» أو«دانة بلازا» التي تتميز بمواصلة خدماتها ليل نهار، ليس فقط من أجل استراحة قصيرة من وصلات البكاء، وإنما أيضًا من أجل إعفاء الجيران من سيمفونيات منتصف الليل!.

وقد اتخذنا هذا القرار، بعدما فشلت كل الحلول الممكنة، في إسكاتها؛ من غناء، وهدهدة، ورقص، وتقفيز، ومشي، وإرضاع؛ أي حين كنت أكَلَّفُ بإسكاتها. أو حين يأتي دور والدها، فيُسمعها خرير ماء الصنبور في الحنفية إلى أن يفتر المفعول!. بعدها يلجأ إلى المذياع فيُسمعها خشخشات الموجات غير العاملة، وكأنها صفير الرياح أو انكسار الأمواج. وطبعًا حين تعاود البكاء من جديد ويكون والدها تعب بحلوله المبتكرة، يعيدها إليَّ لأتكلف بها حتى النوم!.

كان أول ما استرعى انتباهي في مول «دانة بلازا»، هو وجود أشخاص غيرنا دعتهم الضرورة للتمشي أو التسوق بعد منتصف الليل!. وكدنا نفرح بقدرتنا على الخروج من الأزمة، لولا أن الغالية أجلت موعد نومها بعدد الساعات التي كنا نقضيها خارج

البيت. وبدلاً من أن تنام عند الساعة الثالثة أو الرابعة صباحًا، باتت تنام بعد مطلع الفجر! ؛ أي أن التعب الذي كان من المفروض أن يبدأ أعماله في تمام منتصف الليل ؛ تأجل موعده إلى حين عودتنا!.

لكن، رغم فشل المحاولة السابقة، كان لا بد من مواصلة البحث عن أنصاف الحلول، علها تسعفني على الاحتفاظ ببعض الطاقة وبعض الصبر لما بعد الثلث الأخير من الليل. قلنا لماذا لا نذهب بعيدًا عن جدران الأسواق، نفشي السلام على بحر الخليج ليلاً. وبالفعل كاد الاختيار أن يكون موفقًا، لو فقط كانت الغالية من برج الدلو أو حتى برج الحمل!. فما إن واجهْنا وجهه الكريم خلف زجاج السيارة، وفتحنا الأبواب نبتغي من فضله وبركته، حتى تنزلت علينا شآبيب الرطوبة والحرارة، التي كانت لا تقل درجة حرارتها عن السادسة والأربعين، رغم أن الوقت لم يكن قيلولة، وإنما كان قد تجاوز منتصف الليل بساعتين!. فأقفلنا راجعين إلى السيارة. وكم كنا نتمنى أن نطيل النظر في أمواجه المتلألئة تحت ضوء القمر، لو لم تبك الحبيبة من جديد؛ ذلك لأنها لا ترضى إلا بالمشي أو سير السيارة، للترويح عن نفسها. وهكذا كنا قد أفرغنا ما في جعبتنا من حلول وابتكارات. لكننا لم نغلق نوافذ الأمل كلها، واستبقينا واحدة للحل «ما قبل» الأخير.

جاءت فكرة التغيير هذه المرة، أبعد من شاطئ البحر، حين فكَّرنا أن نمنح أنفسنا قسطًا من الإجازة حتى لو كانت قصيرة. وكان من الطبيعي أن تكون دبي هي بيت الضيافة.

كانت بداية الرحلة فأل خير؛ فأول ما ركبنا السيارة، استرجعت قدرتي على الضحك، رغم أن الهدف الأساسي من الرحلة، هو البحث عن مكان مناسب لنوم نوران!.

لا تحتاج دبي إلى من يتغزل في جمالها، فهي مثل الحسناء التي تعبت من الثناء على حسنها!. إنها إحدى المدن الكبرى التي أصبحت عالمًا صغيرًا. فيها كل ما تصبو إليه النفس، حتى الثلج في عز صيف الخليج!. في كل مكان كان «مدهش» اللطيف يُحيينا ويرحب بنا. وحتى الذي لا يعرفُه اسمًا، سيعرف أنه شعار مهرجان صيف دبي: النحلة الحلوة الباسمة، ذات اللون الأصفر البهيج.

كل الألوان البشرية كانت هناك تحتفل وتفرح بأجواء المهرجان، إن في القرى السياحية أو في المراكز التجارية الكبرى؛ كمركز ميركاطو للتسوق، الذي يحاكي في معماره وهندسته إحدى الساحات الشهيرة في مدينة ميلانو، وأيضًا بعض ملامح مدينة فينيسيا «البندقية».

كل شيء كان هناك، ما عدا فوزية، التي اعتذرت عن صحبتنا، فتثاقلت خطواتي. وهناك لم يعد بإمكاني تأجيل الاستنجاد بمن يساهم في حمل نوران، بعد عودتنا إلى البيت. ولم تكن سوى نيمي الطباخة الهندية، التي قلت لها ذات وحم كلامًا لم أكن أعنيه: «قد نلتقي في يوم من الأيام». لكني، قبل أن أسمع صوتها وأشحن صوتي بنبرة السعادة والفرح، حتى أُنسيَها حالة الغثيان التي كنت فيها قبل شهور، تمنيتُ صادقةً أن أراها ثانية!؛ لأنها الأمل الوَحيد القادر على تخفيف الحِمل.

يبدو أن الأجواء الاحتفالية الصاخبة، من طبول ومزامير وفرق شعبية وموسيقية، لم تزد الغالية نوران إلا توترًا وانزعاجًا، بحيث لم يستطع عقلها الوليد أن يتحمل كل تلك الضوضاء، ومشاهدة ذلك الكم الهائل من الصور والألوان والأشكال والأحداث دفعة واحدة، مما زاد في اضطرابها.

في الليلة الرابعة، عاودتها أزمة البكاء والتي تعدت كل النوبات السابقة حدة وتصعيدًا. بحيث تشنج عنقها وازرورقت شفتاها. فكان الخوف والعجز والحيرة سادة الموقف. وبعد تجريب كل الوسائل الممكنة للتخفيف عنها، لعل وعسى أن تكون إحداهن ناجعة، لم أستطع فعل أي شيء سوى إبلاغ أختي بما حدث، عبر الرسائل الهاتفية. والتي لم تبخل بأية معلومة تجعلني، أولاً وقبل كل شيء، أتعامل مع الحالة على أنها طبيعية ومحتملة الوقوع. ولم أطمئن حتى أبلغتني بأن ابنها أيضًا كان قد مر بالحالة نفسها. وما إن توصلت برسالتها الرابعة، حتى كانت نوران نائمة!، فنمنا وقرارنا تحت وسادتنا: زيارة الطبيب في اليوم التالي.

تركنا دبي، المدينة العربية المؤهَّلة بكل المقاييس، كي تكون صاحبة أول كرنفال عربي، يحتفل بموسم الشتاء أو غيره من المناسبات، على غرار الكرنفالات المدهشة والساحرة في جنوب إسبانيا، أو ما شاكلها في باقي الدول الغربية، تركتها والأمل

يحدوني أن أعود إليها في ظروف أكثر خفة وانطلاقًا . . فلا معنى أن أكون في صيفها، دون أن ألعب وأصرخ مع الأطفال في مدينة الملاهي! .

أثناء عودتنا عبر الطريق السَّيار الواصل بين دبي وأبو ظبي، انتابتني الفكرة رقم (١٤)، و التي تعني عندي العدول عن السفر، إذا ما تمثلْتُ رهقه وتوقعت أحداثه المملة والمتعبة. لكني هذه المرة، رغم أنني توقعت كل ما كان سيثنيني عن السفر لو كنت في ظروف عادية، إلا أنني كسرت القاعدة. وهذا ما يشعرني الآن بالذنب؛ لأنني سافرت بنية الهروب من بكاء ابنتي وهي أغلى أمنياتي. وأيضًا لأنني في كل ليلة، أتحول من إنسانة شاكرة حامدة، إلى شاكية متبرمة، لا أطلب من الله سوى أن يعجل بنوم ابنتي حتى أنام ساعتين. فكيف أسمح لنفسي أن أغضب منها حتى لو انتشلتني من سكرة النوم للمرة العاشرة؟ .

ليس هروبًا من الإحساس بالذنب، رحتُ أبحث في «الأرشيف» عن الحقائق دون تلوين أو تمويه. ولكن، لأني كنت سأذنب في حق نفسي إن تماديت في توبيخها بغير حق. . . فكيف أكون مذنبة بعدما أكون قضيت ثمانية عشر ساعة من الأشغال المتواصلة، وكأنني آلة لا تتوقف عن الدوران؟، فلا يدخل الثلث الأخير من الليل، حتى يجف حلقي وتتعثر رجلاي وتفشل يداي وينقسم ظهري وينفد صبري وينضب جهدي. وفي درك ضعفي أتوسل لخالقي، باسمه الأعظم وبعد الصلاة على النبي ودعاء أذان الفجر، أن يجود عليَّ بنعمة النوم الغالية! . فمن هذا الحليم، الشديد، القوي، الخارق، الذي يستطيع أن يدعي القدرة على تمالك أعصابه، إذا ما وُضِع في ظروف مماثلة على مدار الأيام والأسابيع؟! .

لا شك أن الآباء الذين لم يخوضوا تجربة جنون الليل؛ سيستنكرون غضب الأمهات، إلى حد اتهامهن بعدم أهليتهن لدور الأمومة!، متناسين ومتجاهلين بكل وقاحة أن هناك حدودًا للطاقة والصبر والتحمل، إن تجاوزتها اختل العقل والميزان. والأمثلة التي تؤكد على أن الأم تصل أحيانًا إلى حافة الجنون، لا تعد ولا تحصى. فها هو ذا زوجي، يخبرني بأن إحدى الأمهات صرخت في أذن زوجها، عبر الهاتف، لتخبره بأنها قد تُلقي بابنتها من النافذة، إذا لم يرحمها زوجها في التناوب معها على

العناية بها. وها هي ذي صديقتي تخبرني بأن إحدى زميلاتها، أقسمت لها بأنها كادت تقتل إحدى بناتها لحظة طفح الكيل!.

أما إن سخر أحدهم من هؤلاء الأمهات، مدعيًا أنه أعقل وأحكم منهن، فعليه أن يتحلى بالعدل والشجاعة أولاً، ثم يخوض التجربة ليمتحن قدرته بالفعل، لا بالهوى، ليُرينا إن كان سيضبط أعصابه، حين توشك هامته أن تسقط فوق الأرض، من تورم الأقدام وطول التعب وفقر النوم؟!!!.

أما إن سخرت بعضهن من هؤلاء الأمهات، فهذا يعني أنهن ينعمن بظروف مريحة!. وأن هناك سواعد ثابتة وقوية تتكلف في حضورهن وغيابهن برعاية رضَّعهن، منذ صيحة الاستيقاظ الأولى وحتى صيحة النوم الأخيرة. أو لم تكن مساعَدتي الإيريترية، هي الأم البديلة لرضيعة السيدة التي كانت تقيم في بيتها، بحيث كانت تنام في حضنها؟!!!.

***

٣/ ٨/ ٢٠٠٤م

اختطاف

وضعت البلوڤر الأزرق بين يدي الحارس بسرعة وهو يبتسم مندهشًا. ينتظر مني أن أرد عليه الابتسام. قلت له: «لن تفهمني بسرعة، ليس لدي الوقت للشرح». ثم خرجت ثكلى! . . . قدم تأخذني جهة اليمين، ويد تأخذني جهة أخرى. طار قلبي، تشتت عقلي. . . ركضت نحو أول حارس أمن أسأله عن هندية ورضيعة، رد بغباء منقطع النظير: «من أي بلد أنت؟!». فلعنت البلادة والعته ورحت أسأل غيره؛ كان هنديًا بالكاد يجيد هزة الرأس! . . . الوقت يمضي بسرعة. أخشى أن تكون العصابة تنوي الهروب بها إلى خورفكان أو رأس الخيمة. يا إلهي، بمن أتصل الآن ليُصدر أوامره بإقامة الحدود السلكية الشائكة، لبدء حملة التفتيش والتمشيط حالاً! . كل ثانية تمضي، هي فرصة سانحة لإزهاق روحي.

سألت عربيًا آخر إن كان رأى هنديةً تخطف رضيعة. قال لي: «هل أنت من سوريا. . . لا تغضبي. على الأقل أعطني مواصفات الهندية؟». قطَعَتْ خُطواتي فضولَه الغبي، ثم نزلت جريًا إلى الطابق السفلي نحو غرفة الاستعلامات، أسأل عن هندية سرقت ابنتي! . قال لي: «اهدئي قليلاً . . »، وقبل أن يُكمل، فهمت أنه أراد أن يفيدني علمًا بأنه، إذا كانت الهندية خرجت من «المول» بابنتي، فمعنى ذلك أن الأمر قد انتهى، ولا داعي للبحث! . . . هربتُ منه أصارع الاحتمال المشؤوم. وقررت ألا أعْلِم أحدًا بشأن مصيبتي. تلك الأصنام البشرية، ستُضيع وقتي ولن تنفعني بشيء! .

ركضت وصحت بأعلى صوتي: نيمي، نوران، نيمي، نوران. أنتحب وأصيح وأجري، أنتحب وأصيح وأجري. ولسان حالي يقول: «ابتعد عني أو ابحث معي عن ابنتي. بعد ذلك، اسألني». لكن «أبو ظبي مول» في تلك العشية كان فارغًا! . .

اتصلتُ بفوزية أخبرها بمصيبة المصائب. لم تصدق الخبر، وكنت أتمنى أن تقول لي: «إنها في البيت»! .

أين يمكن أن تختبئ؟ . ومن الذي دبر معها الخطة؟ . ألأجل هذا عادت دون عتاب وبهذه السرعة؟ . أنا أيضًا استغربت لكونها عادت بسهولة! . هذا يعني أنها بقيت مختفية بحقدها طيلة الشهور الماضية، تتحين فرصة الانتقام مني؛ لأني استغنيت عن طبخها! .

وكيف فاتني أن أقرأ خلف قناع البراءة والسذاجة كل هذا المكر والحقد والقدرة على الإجرام؟ . كيف استطاعت أن تستدرجني إلى فخها، رغم أنني لم أتركها في البيت، إلا لأطمئن إلى جانبها؟! .

لا، لن أقول إنا لله وإنا إليه راجعون، حتى ترجع إليَّ ابنتي! .

هل يمكن أن أعيش مع هذا الضياع؟ . أيُّ كون يتحمل أحزاني؟ . أأعطيتَها كي تأخذها بهذه السرعة؟! . مَن سيعوضها: بنت أخرى؟، ولد آخر؟ . لا، لا أريد تعويضًا عن الخسارة . أريدها هي! .

فكرتُ في ذلك الفنان الذي لا يزال يعيش لوعة الفقد . فلا دمعت عيناه ولا جفت أحزانه، بعد اختطاف ابنه قبل عشرين سنة . سرقة الموت أهون وأرحم من غدر قطاع الطرق . ماذا ستفعل بك المجرمة؟ . بأي ثمن بخْس سيبيعونك؟ . من سترضعك؟ . أين ستنامين في هذه الحرارة؟ . في أي خم سيضعونك؟ .

أسيح في الفراغ، أخترق الخواء، أعاود الصياح والسؤال . أبحث في الممرات الخلفية، في الحمامات، في المحلات التجارية، في المقاهي، في المطاعم، في المصاعد، بلون واحد ونفَس واحد . كل ثانية تمضي يزداد الاحتمال . . . كل الظروف مواتية لسرقة ابنتي الوحيدة .

يا محنة المحن . . يا ضياعي . . لم أتملَّ بعد من وجهك الحبيب . وجهك الصغير وأنت على كتف والدك وسط الزحام والناس . وجهك الكبير حين لا يفرقني عنه سوى أنفك الصغير وأنت نائمة . تعسًا للملابس الجديدة، تعسًا للرحيل، تعسًا للغرباء، تعسًا لكل شيء! .

يا ويلي أهذا وقت الرثاء؟ . احرقي، فجري، دمري، خربي . يا بكاءها الغالي . . ابك . ابكي يا حبيبتي حتى أسمعك . ابكي لآراك . ابكي لأحضنك . ابكي لأتبعك .

ما لي لا أسمع صوتك الآن . . أهذا وقت الاختفاء؟ . أهذا وقت الصمت؟ . ابكي كما كنت تبكين حين كنت بين أحضان الشريرة . ابكي لأجيء عندك .

أكملت الدورة على أرجاء «المول» كله . وعدت من حيث انطلقت ؛ إلى الطابق الثاني حيث يوجد محل «مانجو» للملابس النسائية . لم أخجل من الحارس الذي تركت البلوڤر في يده . ودخلت أبحث من جديد في مسرح الجريمة . وأنا لا أدري لماذا عدت إليه ولا كيف حملتني قدماي إلى هناك ؛ لأن احتمال عودتي إليه بنية ضبط المجرمة وهي متلبسة ، كان غير وارد على الإطلاق .

لكن ، لأنها . . . بريئة . . . كانت هناك ! ! ! .

نعم ، رأيتها جالسة في هدوء وسكينة ، تتنفس ببطء . وغاليتي نائمة في حضنها ! . لحظتها فهمت كيف تعود الروح . وكيف يُجمع شتات العقل . وكيف يرجع القلب إلى قلبه .

صرخت بالإنجليزية ، رغبة في التنفيس عني ، غير مبالية بالحضور : «أين كنت؟» . قالت وهي تهز رأسها يمنة ويسرة : «لقد كنت هنا ! » .

لم تغادر نيمي لحظة واحدة الكنبة الوثيرة في الجناح المخصص للأحذية والحقائب اليدوية ! . وحين سألتها لماذا لم تشيري إليَّ بيدك؟ ، قالت ببراءتها المعهودة : «لم أعرف أنك تبحثين عني ! » .

فكان عليَّ أن أقر بوجود أشخاص ينعمون بهذا القدر من الطمأنينة أو الاحترام أو أي شيء آخر . . . لم أحدده بعد ! . فبالرغم من أنها رأتني خارجة مذهولة من غرفة قياس الملابس ، أبحث عن ابنتي الباكية ، لم تحرك ساكنًا . اللهم إلا إذا ظنت لحظة رؤيتي ، أنني أبحث عن شيء آخر ، ما دامت ابنتي نائمة بين أحضانها ! . . لكن ما الذي سيحملها على التزام الهدوء وأنا في حالة الذعر ، لدرجة أنني نسيت البلوڤر الأزرق في يدي وأنا أجتاز باب المحل . وما كنت لأنتبه لولا صافرة الإنذار والحارس الذي تساءل عن خطبي؟ ! . بقي احتمالان اثنان ؛ إما أنها لم ترني ، لكنها أقرت برؤيتي ! . أو أنَّها بطيئة الاستجابة ، وهو السبب الذي جعلني أستغني عن خدمتها ، قبل شهور ! . . .

لكن لا شيء يهم الآن ! . احتضنت حبيبتي وقبلتها وهي لا تزال نائمة .

جلسنا فوق مقعد حديدي، خُصص للمدخنين أو لمن أعياهم التجوال بين المحلات التجارية . وأنا بين الرغبة في البكاء والفرحة. سألتني على حين غرة: «هل ظننت أنني سرقت نوران؟». قلت لها: «نعم». ضحكت والدموع تنهمر من عينيها. ثم اعتذرت لها عن سوء ظني. لكني أكدت لها أنني واثقة بأنها ستعذرني في يوم من الأيام. فقالت: «نعم، أعرف».

أخبرت زوجي بعودة الروح، فبعث لي برسالة هاتفية كتب فيها: «حمدًا لله على سلامتنا. لا أحد يعلم كيف كانت ستصبح حياتنا، لولا أن رحمنا الله». وكان وقت إرسالها: الخامسة مساءً وثماني عشرة دقيقة وعشرين ثانية.

قلت لنيمي: «رجاء، من الآن فصاعدًا، لا تتركيني لحظة واحدة، لا خطوة أمام ولا خطوة وراء. خاصة حين تحملين نوران. أما إذا كنت خاوية اليدين ونوران بين أحضاني، فافعلي ما شئت!».

***

١٣ / ٨ / ٢٠٠٤م

تجليات الكركبة

رغم أنني من أعداء «الكركبة» حيثما وُجدَتْ، فإنني أكتشف عند كل رحيل، بعض الأوراق والفواتير والأشياء الزائدة، التي كَان ينبغي التخلص منها فور انتهاء تاريخ صلاحيتها. لكني وإن تعودت على ألا أجود على نفسي بالأعذار إلا بقدر ما تستحق؛ فإنني سأتجاوز عنها هذه المرة، نظراً للظروف الخانقة التي لا تسمح برفاهية الوقت وأريحية الفراغ. فإذا كان السفر قطعة من جمر، فإن الاستعداد للرحيل هو النار!.

والكركبة بمعناها الحرفي، هي كل شيء قديم، مهترئ، متصدئ، لا غاية من وجوده سوى المساهمة في تشويه الذوق العام!. وهي أيضًا كل ما عافته النفس لحظة الاستغناء عنه. لكنها بدلاً من أن تحرقه أو تعجل بترحيله إلى مثواه الأخير، فإنها تحتفظ به لحاجة في نفسها!. فتخفيه أو تقبِّره حيثما وجدت له المكان المناسب لإيواء قبحه. كالأقبية مثلاً، أو الدواليب، أو الغرف غير المأهولة بالسكان!.

وإذا ما اختنق البيت من وفرة الكائن الكركبي، وكان لا بد من الاستعانة بخبير مرور لتسهيل عملية السير داخله!، فإنها ستعرضه علينا في الشرفة أو فوق السطوح أو عند مدخل البيت أو العمارة؛ لنتملى في طلعته البشعة!. كما لو كنا في حاجة إلى رؤية المزيد من السماجة والذمامة من حولنا. وهكذا تُفصح الكركبة عن بعدها الاجتماعي، لتصبح ممارسة اجتماعية محمودة ومتفقًا عليها. فما دامت الأمة لا تجتمع على ضلال، والجماعة لا تتبع سوى السنن الحميدة، فلماذا يحرم المرء نفسه من إلقاء قاذوراته في وجه جاره؟!!!.

إن من شدة انتشار الكركبة وممارستها، حتى صارت جزءًا من ثقافتنا، وعلامة بارزة من عاداتنا الغالية، ومكونًا رئيسيًا في خصوصيتنا التي نعتز بها!. بحيث أصبحت الكركبة في معظم فضائنا العربي، إحدى أهم سماته. فحيثما ولينا وجوهنا وجدناها: في الشارع والمدرسة والسوق والمكاتب والمستشفيات والشواطئ والحدائق العمومية،

حتى الأنهار لم تسلم منها! . إنها مستفحلة فينا كالوباء الذي لا يزال يُبحث له عن علاج! .

ولن ندرك فظاعة ما تقترفه أيدينا وأنفسنا، حتى يأتي ذلك اليوم الذي يعي فيه كل واحد منا بأننا نستحق هوية أفضل من هوية الكركبة، والفوضى والوسخ! . وحينذاك فقط يمكن أن نفيق من حالة الجذبة واللاوعى والإنكار، لنعي بالذات والذوات الأخرى! . كما ستصبح الكركبة مؤشراً على ذوق ووعي صاحبها، ومقياساً لتحضره وتقديره للناس من حوله واكتراثه لغيره. وأيضًا معياراً لحبه أو كراهيته للوطن الذي يعيش فوق ترابه. ستفضح الكركبة صاحبها، مثلما عيون الصب تفضحه! .

إن الفرد المشبع بروح الكركبة والفوضى، لن يفطن إلى طبيعة سلوكه إلا إذا وجد نفسه وحيداً أعزل، في بيئة جديدة وثقافة مختلفة؛ تشجب سلوكه وتستنكره. لذلك حين ينتقل للعيش في بلد غربي أو متحضر، يكون أكثر الناس إثارة للانتباه، ليس لأن بشرته ملونة أو عربية، أو حلو الملامح، ولكن لأن سلوكه الكركبي، ظهر فجأة، نشازاً في منظومة الجمال والنظام والنقاء! . فلا يملك المسكين سوى أن يرضخ صاغراً لأوامر ومتطلبات العيش الجديد، وإلا انهالت عليه اللعنات والغرامات والشتائم! .

وحتى لو كانت ظروفه المادية تسمح له بتأجير شقة، تحيط بها حديقة غنَّاء، تُلقي بظلالها الوارفة على الشقة المجاورة، أو تتعدى أغصانُها سورَ الحديقة، لتضايق فضاء الرصيف أو الشارع، نتيجةً لإهمال تشذيبها وتزيينها وفق المواصفات المعتمدة والمحددة، فإن شرطة الحفاظ على الجمال، ستطرق باب بيته بكل لطف، لتذكرهُ بواجب الإقلاع عن عاداته السيئة! . وإن نسي في المرة الثانية سهواً أو عمداً، فسيدفع غرامة استعراض فوضاه والإساءة إلى ذوق جيرانه، وكل من تقع عينُه على أشجاره المتطرفة. وسيفهم بأن التقصير في حق لحيته شأن خاص، بينما التقصير في حق حديقته، غير السرية، شأن عام! .

وهذا المثال في الحقيقة، يدل على أن نشدان الجمال وكمال الذوق العام، لا يختلف عن نشدان الحقوق المدنية. فكلاهما ملزَم بمراعاة الواجبات والقوانين، سواء باحترامها أو بالخوف من عقوبة مخالفتها. أي أن لوحة الجمال الغربية أو المتحضرة، لم يكتمل حُسنها وبهاؤها نتيجةً لحالة غيبوبة، أو جذبة جماعية! ، وإنما نتيجة لضبط النفس،

وإلزامها باحترام الغير والمراقبة المستمرة لنزعة السلوك الكركبي، الذي لا يطبع الشعوب النامية وحدها، وإنما الأسرة البشرية جمعاء.

ليس صحيحًا أن العيش في الحظيرة، وسط الأزبال المنتشرة في كل مكان، هو فقط هبة التربية البدائية في المجتمعات البائسة!، ولكنها أيضًا هبة عقل الدولة الكركبي، الذي لا يضيره أن تستمر الفوضى والغيبوبة في البلاد!. فالمواطن كالطفل أو التلميذ الذي يحتاج إلى التوجيه والتنبيه باستمرار، من قبل معلمه أو مرشده الروحي، إن لم يوجه التوجيه السليم، ضل الطريق مبكرًا.

أولَمْ نتعلم القراءة والكتابة بالضرب والعصا؟، أولم نحسِّن سلوكنا بالشدة والرَّدع؟، أولم نتعلم الصواب من الخطأ بالعقوبات الصارمة؟، أو لم تُنظف الشوارع وتُطْلَ الواجهات والمحلات التجارية والأشجار، بعصي البلديات وفظاظة المسؤولين الصغار، استعدادًا لزيارة المسؤولين الكبار؟!. فلماذا تريدنا هذه الدولة أو تلك أن نتخلص من قاذوراتنا، وكركباتنا، بتحميلنا مسؤولية محاربتها، دون تقديم أدنى مساعدة لنا؟، أو بغض الطرف عنها وتسخيف أهميتها، كما لو أن الوقاية من الأوساخ والأوبئة أمور تافهة أو كماليات لا تليق ببدائيتنا؟!

كسولة، متقاعسة هي الدولة التي تتهم مواطنيها بالقصور العقلي والحضاري، حين تكون هي من علَّمته استطابة العيش في الفوضى والأزبال، حتى ألِفها وألِفته، غصبًا عنه. وكأنه ليس المخلوق المكرم عند الله!.

كلا، إن السلوك المتحضر ليس فطريًا عند الإنسان الغربي فحسب، وإنما هو ثمرة الجزاء والعقاب. فليس المواطن الغربي هو من تطوع بوضع عربات الزبالة في كل أرجاء البلاد!. وليس هو الذي ألزم نفسه بفرز أزباله حسب معادنها وأنواعها، لوضع كل صنف على حدة في سلات الزبالة، المقسمة بدورها إلى عدة أجزاء لتسهيل عملية الفرز، كيلا يختلط الزجاج والحديد والبلاستيك والأوراق وبقايا الطعام فيما بينها، وإنما الدولة ذات العقل المنظم هي التي فرضت عليه، حتى وهو في عقر مطبخه!، تقسيم أزباله من أجل تسهيل عملية تدويرها وإعادة إنتاجها في أشكال واستعمالات جديدة!، وإلا عوقب برفض «بضاعته»، التي لا تنطبق عليها مواصفات الأزبال المتحضرة!، إذا ما اكتفى بوضعها في كيس واحد!. إنها الدولة المخططة والمفكِّرة

والمبتكرة للحلول، هي من أنارت الطريق لمواطنها من أجل تحقيق حلم الجنة فوق الأرضَ. الدولة مدرسة إذا أعددتها، أعددت مواطنًا منظم العقل، مهذب السلوك!.

إن خطورة السلوك الكركبي لا تكمن في كونها تحرم الناس من العيش في بيئة سليمة، أو في كونها تجعل المستاء من حياة الوسخ والفوضى يبدو نشازًا في أعين البعض، أو حتى مريضًا بوسوسة النظام والنظافة في أعين البعض الآخر!، وإنما حين ينتقل السلوك الكركبي من إطاره الاجتماعي الخارجي إلى إطاره النفسي الداخلي؛ أي حين يصبح سلوكًا عقليّا ونمطًا فكريّا يطبع أفعاله بشكل ارتكاسي.

فلا عجب إذا رأينا أماراته وآياته في مختلف مظاهر حياتنا الاجتماعية والثقافية، لتشمل أحيانًا حتى المجالات الإبداعية والفكرية والإدارية. وإلا كيف يمكن تفسير ذلك الذوق الكركبي الذي يطبع بعض أزيائنا، التي لم تحسم بعد موقفها من الأصالة والمعاصرة؟!. وما معنى ذلك القبح اللامتناهي في بعض ديكوراتنا، سواء عبر شاشات التليفزيون أو فوق خشبات المسرح، وهي تعرض علينا هجينًا من الألوان والأشكال والخامات والأضواء والأصوات، لا شيء يؤلف بينها سوى النشاز!. والتي لا تنم سوى عن عقل صاحبها الفوضوي وحسه الكركبي، الذي أوحى إليه بأن الفراغ فقرٌ، ووحدة الألوان حُزْنٌ، والكركبة ثراء!. ناهيك عمن يغطي عن عجزه الفني وعوزه الإبداعي وقصوره التقني، بلجوئه إلى الطرق البدائية أو المدرسية، في أحسن الأحوال، للمبالغة في تقبيح وتشويه نماذجه البشرية، معتقدًا أننا لن نكتشف مواطن ضعفه!. أو أنه سيُنفِّس عنا بما اقترفت يداه، وكأننا لا نتشوق إلى ذلك اليوم، الذي نرى فيه الفن المتقن، كما يجيده أساتذته وأصحابه وأهله.

أما خير لوحة بشرية تجسد إتقاننا للفوضى، حتى حين نجاهد النفس والجسد على الدقة والانضباط والنظام!، فهي لوحات رقصاتنا الشعبية والفولكلورية أو حتى العصرية منها، كما نشاهدها بين الفينة والأخرى في أغاني الڤيديو كليب وغيرها. بحيث تكاد لا توجد فرقة رقص عربية، يستطيع أعضاؤها ضبط خطواتهم وحركاتهم بدقة وإتقان مع بعضهم البعض، من جهة، ومع إيقاع الموسيقى التي يرقصون عليها من جهة أخرى!، في حين أن أبسط فرقة رقص فلامينكو في جنوب إسپانيا، تلقننا درسًا في الرقص الجماعي، حين يتوحد في رقصة رجل واحد!.

للعقل الكركبي أيضًا، تجليات أخرى تفصح عنه بشكل واضح، مهما ادعى لسان صاحبه حسن التنظيم والقدرة على إدارة المشاكل والأزمات؛ لأنه سرعان ما يفتضح أمره، حين يجد نفسه وجهًا لوجه أمام الفشل الذريع! . يكفي أن نستحضر هنا بعض اللقطات، التي لا شك لا يزال البعض منا يحتفظ بها في ذاكرته، هذا إذا كان واعيًا أساسًا بالفرق بين الفوضى والنظام! . والحديث هنا عن الأجواء التي تمر فيها «أحيانًا»، مهرجاناتنا العربية ومؤتمراتنا ودوراتنا الرياضية ومعارض كتابنا . . إلخ . بحيث ما أن تبدأ الفعاليات أعمالها، حتى تنهال شكاوى الإهمال وسوء التنظيم وثغرات التسيير، من قبل الضيوف الكرام والسادة الزوار، على السادة منظمي «الحفل»! . وبدلاً من أن يتدخل «موهوب» إدارة الأزمات لحل أزمته قبل تفاقمها، والتركيز على ما يمكن إنقاذه حفاظًا على ماء وجهه، فإنه إما يلقي اللوم على سواعده اليمني، أو يلوذ بالصمت والاختفاء، قافلاً على نفسه كل قنوات الاتصال بالعالم الخارجي! . .

حينذاك فقط يفهم من كلفه بمهمة التنظيم والتسيير، أنه كان قاصر النظر إذ لم يستعن بخبير أجنبي، ليس لأنه الأفضل، ولكن «فقط»، لأن عقله منظم! . وحين يفرغ في جيبه حزمة ضخمة من الأوراق الخضراء. ربما سيتساءل: إلى متى نخرب خزينتنا بأيدينا، ضبطًا لفوضى العقل المحلي؟! .

حين رأيت التحف الحقيقية تتهشم تحت دمار العدوان الهمجي في العراق، وكأنها قلل طينية بلا قيمة حضارية أو تاريخية، أصبحت أهزأ من الكركبات في البيوت وهي تُعامل معاملة التحف الحقيقية، حتى لو كانت أوانى بلاستيكية أو حديدية! .

أما حين رأيت متحف القاهرة للمرة الثانية، ازددت قناعة بأني لن أمتلك أبدًا قلادة توت عنخ أمون! . فازدادت قسوة قلبي على كركباتي؛ بما فيها أوراقي و«مخطوطاتي القديمة»، التي كنت أعتقد أن ضياعها أو إتلافها سيشكل خسارة للبشرية! . . . ولا أنكر فضل حياة الترحال، التي علمتني الزهد في امتلاك «التحف»، ما دام قانون المطارات الصارم سيجبرني على دفع وزنها ذهبًا، حتى وإن كانت كركبة! . .

***

٢١/ ٨/ ٢٠٠٤م

لا وقت للحنين

نيمي أضفت على البيت جوّا من الحميمية. نغمة الربع طون في صوتها وهي تغني لنوران «موشحات» هندية. تشعرني بالاختلاف الجميل بين ثقافتينا. وتذكرني بأغاني الأفلام الهندية التي كنا نحبها حين كنا صغارًا. لقد كانت تتمتع بخبرة أفضل مني في التعامل مع حديثي الولادة، لذلك صارت ساعدي الأيمن في رعاية شؤون الأميرة الصغيرة. أما ما كان يدهشني فيها، فهو حبها للأطفال الرضع، رغم أنَ لديها مشكلة في الإنجاب. ربما لأني نادرًا ما كنت أشعر بحب الآباء والأمهات الصادق والخالي من النفاق لأطفال الغير، فكيف أصدق حب من حُرِم منهم؟!.

حين أخبرتني بأن زوجها مسلم، تمنيت ألا يتزوج عليها، وأن يمهلها حتى يرزقها الله ذرية حسنة. لكني في الوقت نفسه تساءلت في سري، ما الذي أبطأه سبع سنوات: أحُبُّهُ لها أكثر من حبه للعيال. أم لكونها مسيحية؟!.

لم تكن نيمي منطوية على نفسها أو عديمة الجرأة، كما كنت أظن، فقد كانت تباغت زوجي أحيانًا بطرح بعض الأسئلة، وهو ما لم يألفه من قبل. وكنت أعزو ذلك لسمعةِ حُبِّ الفضول الذي يتمتع به الإنسان الهندي، والعهدة على الراوي!.

لذلك كانت تختلف تمامًا عن فوزية، التي كانت تفضل الصمت والانسحاب. كما كانت تريحها علاقة الاحترام وترك المسافة مع من تعمل معها. فرغم راتبها المحترم الذي كانت تتقاضاه عند سيدة أخرى، فقد فضلت تركها تجنبًا لثرثرتها، التي كانت تصيبها بوجع الرأس. ولعلها وجدت في بيتنا ما يلائم طبعها وأكثر!، بحيث لم تعرف اسمي الحقيقي ولا وظيفتي إلا مصادفة!. وقد حدث ذلك قبل يومين، وأنا أرتب ما تبقى من أوراقي وملفاتي، حين عثَرَتْ على صوري في بعض المجلات والصحف. فسألتني بابتسامة مندهشة ماذا أفعل هناك ومن أكون؟. ثم أخذت تتهجى اسمي باللغة العربية وكأنها شامبليون يفك رموز الكتابة الهيروغليفية!.

لم تشعر كل من فوزية ونيمي بمضايقة الأخرى لها، بل كانتا تساعدان بعضهما البعض، في جو أخوي. خاصة نيمي حين كانت تختلس بعض الوقت، إذا ما أفلحت في إعادة نوران إلى نومها للمرة الثانية أو الثالثة، وأيضًا إذا ما نجحت في مهمة وضعها فوق الكنبة الوثيرة أو السرير الكبير بحذق وحذر، ثم إحاطتها بما يلزم من وسادات الأمان؛ دون إيقاظها من جديد! . آنذاك فقط يكلفها أحدنا إما بتمزيق الأوراق أو تنظيم ما ينبغي تنظيمه وترتيبه في الصناديق والأرفف، أو تقطيع الخضراوات أو بشرها، حسب الحاجة لإعداد بعض الأطباق المغربية، التي تناسب الذوق الهندي والحبشي على حد سواء. وبقدر ما كانت تذهلهما لحظة اقتسام وجبات الطعام إلى أربعة أطباق متساوية، بقدر ما كنا نشعر بألفة الجو العائلي الذي كنا نفتقده.

بفضل وجود نيمي صار بمقدوري التحرك بسرعة والخروج بمفردي خاوية اليدين، إلا من مظلتي السوداء، الحاجبة للأشعة فوق البنفسجية، دون التقيد بتحمل مسؤولية الغالية وهي نائمة في حمالتها. فكم كان يعز عليَّ إيقاظها من أجل قياس بعض الملابس، أو إبقاؤها نائمة فوق كرسي، أكون قد فرشته بما لديَّ من ملابس وأغراض، حتى يكون وثيراً ومريحًا تحت جسدها الحرير. فلا تنتهي العملية إلا بشق الأنفس! . ناهيك عن التأخير وانتظار مَنْ خلف الباب! ، وأحيانًا بكاؤها الذي يضطرني إلى تحويل غرفة قياس الملابس، إلى غرفة للرضاعة! . ويصل الإحراج إلى ذروته، حين لا يستفتح أصحاب المحلات التجارية من زيارتي الثقيلة، إلا بابتسامة خجولة لا يأبه لها أحد! .

لذلك حين جاءت نيمي، أصبح بإمكاني المشي في الأسواق وأنا مرتاحة البال. خاصة إذا كان زوجي في البيت. وهذا ما كنا نحرص عليه جهد المستطاع، فكلانا لم يشف بعد من أثر الاختطاف الوهمي، الذي لا أظنه سيمحى من الذاكرة بسرعة. لذلك كان شرط الانعتاق من البيت بسرعة السهم، ودون أن أضيع ساعة ونصف الساعة في عملية استخراج الحليب، هو أن أعود إليه متى ما انهالت عليَّ رسائل النداء! . وإن تأخرتُ، جيءَ إليَّ بابنتي لأرضعها! . وهذا ما حدث قبل أيام، وأنا أنتظر دوري لشراء نصيبي من الأحذية الصيفية المرصعة بالأحجار غير الكريمة! ، والتي اعتبرتها فرصة جميلة يجب اغتنامها، شأني في ذلك شأن كل منتقم من أسعار الماركات العالمية عشية افتتاح موسم التنزيلات! .

لقد كان أمامي طابور لا ينتهي إلا بعد ساعة على الأقل، ومع إلحاح المكالمات والرسائل، كان لا بد من إيجاد مخرج عاجل، أو بعبارة أصح؛ أن أخترق القانون بطريقة مشروعة!. وهكذا أخبرت بعض السيدات من حولي بعذري «الشرعي». وحين رأيت الشك في عيونهن، قلت لإحداهن: «أتريدين أن أخرج ابنتي من السيارة في هذه الحرارة، كي تصدقي أني مرضعة، وأنها تبكي لأن موعد رضاعتها فات». فضحكت مشكورة!.

لقد كان باستطاعتي أن أتسوق على مهل، وأنعم برفاهية النوم والراحة. أو على الأقل أعيش في هدوء وسكينة اللحظات الأخيرة في هذه البلاد السعيدة. لكن من يسابق الساعة، لا وقت لديه للحنين!. وهذا ما جعلني أشعر لأول مرة أن هذه الحالة غير طبيعية، وأن الحمل والولادة ليسا السبب في إحداث هذه الاضطرابات والأزمات، كما كنت أظن في البداية، ولكنها حياة الترحال وعدم الاستقرار، التي تجردنا من حق التخطيط والبرمجة واستشراف مشاكل المرحلة القادمة، بما يلزم من حلول وبدائل.

لذلك لا يبقى أمامنا سوى خيار واحد لمواجهة مجاهيل الغيب: التفاؤل!. فبه وحده أستطيع أن أثني نفسي عن توقع الأسوأ، الذي لا يمكن أن يكون في المرحلة المقبلة، سوى العوز البائس لسواعد إضافية. لذلك ليس في وسعي إلا أن أستحضر التجربة الرائعة التي عشتها مع مساعدات من مختلف الجنسيات، دون حتى أن تجمعنا لغة واحدة، فكيف لا تكون التجربة المقبلة أروع ونحن نتواصل بلغتنا الأم؟!. لذلك ما أن أتخيلني مكتوفة الأيدي بابنتي بين أربعة جدران؛ حتى ألعن نظرية الصراصير، التي أثبتت لي بالدليل القاطع، أنها لا تصلح إلا لمواجهة الصراصير، والحشرات الكريهة داخل الدواليب والحمامات!. ولم أبْنِ هذا التفاؤل على أسس واهية، وإنما على تطمينات بَدَّدَتْ مخاوفي في عدة مناسباتَ، لتؤكد لي بأني سأفاجأ من كم الجودة والخبرة التي تتمتع بها المساعدة في بلاد المقصد. وأنهن على «قفا مين يشيل»، بحيث أستطيع أن أوظف ثلاثة دفعة واحدة: جليسة لنوران، طباخة، ومكلفة بالنظافة.

وبناء على هذه المعلومات الطيبة، تراجعت عن نية تشجيع فوزية على فكرتها التطوعية، لمواصلة مساعدتنا حيثما ذهبنا. وذلك بعدما أحسَّتْ بوعكة المصير الذي

ينتظرني، إذا لم أجد مساعدة تخفف عني العبء. واعتبرتها كما لو فعلت، لمجرد أنها فكرت في ترك البلَد الذي طالما حلمت به. والأعظم من ذلك أنها كانت صادقة. ولولا الجهل بالمدة التي سنقضيها في البلد الجديد، لسافرت معنا، ولما افترقنا عنها بسهولة.

لقد كانت فوزية نادرة ندرة الاحترام، الذي لا يقل ولا يفتر لحظة الوداع، الذي ليس بعده لقاء أو مصلحة..

* * *

٢٩ / ٩ / ٢٠٠٤م

لغز سميراميس

جئت إلى القاهرة وأنا أنضح أملاً بما سألاقيه من ظروف وأسباب مواتية لتحقيق واستئناف أهم مشاريعي الحالية، وعلى رأسها: إصدار كتابي الأول في أسرع وقت ممكن، ثم مواصلة مشواري التليفزيوني بأفكار جديدة وخطى سديدة. وكلي يقين بأن لا شيء سيعترض سبيلي، طالما سأكون برفقة مساعدتين أو ثلاثة، يساعدنني على استتباب الراحة والاستقرار وتذليل كل الصعاب المحتملة.

لم تساورني لحظة شك واحدة في ذلك، وأنا أحلق بأحلامي الفيروزية فوق سماء الأهرامات الثلاثة، حتى وصلنا إلى فندق سميراميس، حيث لفت انتباهي وجود مساعدات ومربيات فيليبينيات وآسيويات من مختلف أنحاء القارة الصفراء. لم يكُنَّ بصحبة سيدات خليجيات، وإنما سيدات مصريات من الطبقة المتأففة حتى من الأكسجين!. وقد تعمدت إرخاء السمع لالتقاط بعض الكلمات بهدف التحقق من جنسيتهن. وهناك تساءلت مندهشة: ماذا تفعل هؤلاء الآسيويات القادمات من آخر الدنيا؟. وأين هن بنات أم الدنيا؟.

خلال إقامتنا في الفندق، عاودت الاتصال بالمصدر نفسه الذي أقنعني، في أبو ظبي، بأن مشكلة المساعدات هي أتفه مشكلة يمكن أن ألاقيها في القاهرة، ليؤكد لي من جديد وبنفس الحماسة والتطمين أني سأحتار من كثرة الاختيار!. فاطمأن قلبي وتأكدت أن تساؤلاتي المريبة عن سر وجود الشغالات الآسيويات، كانت مجرد ملاحظة عابرة. ورغم أن المصدر الموثوق منه لم يبادر بعرض خدماته عن بعد، كما كان متوقعًا، من خلال تكليف أحد معارفه في القاهرة، كي يمدني بلائحة أسماء وأرقام الشغالات المرشحات لخدمتنا، إلا أنني لم أعِر للموضوع بالاً، ما دمنا لم نغادر الفندق بعد ومادام أمامنا متسع من الوقت.

رحلة البحث الشاقة عن الشقة؛ أسفرت في نهاية التعب وألاعيب السمسرة عن تورطنا في السكن في شقة، أجملُ وأنظفُ ما فيها شرفتها العالية! . لكن بعد انتهاء خمس ليال طوال، وهو عمر إقامتنا فيها، انتقَلْنَا إلى شقة تسر الناظرين. وكنت مقتنعة تمامًا بأن تورطنا في الشقة الأولى، كان من تدبير اللطيف الخبير، كي أتعرف على أم الخير، التي وعدتني خيرًا طالما بقينا في القاهرة. فكنت أسعد إنسان على سطح النيل! .

كانت أم الخير توحي بالثقة والأمان، وتتمتع بسرعة الفيليبينيات في الأداء، كما أنها كانت أمينة وهي صفة مهمة، لم أعرف بقيمتها إلا حين سُرِقْتُ في عقر داري في المغرب، في صيف العام الماضي. لذلك اعتبرت نفسي محظوظَة لوجود هذه الشيمة الثمينة دون عناء.

لكن «الحلو ما يكملش» فرغم أنها كانت مصدرًا جديدًا لتأثيث أفكاري ببعض تفاصيل حياة النساء السرية، إلا أن عَيب أم الخير الرئيسي، كان ارتباطها بسيدة أخرى. طبعًا لم أكن أنتظر منها أن تفرط فيها، من أجل غريبة سترحل من جديد بعد سنة! . لذلك كانت ممزقة بيننا ولم تستطع أن توفق بين صاحبة الأسبقية وبين الوافدة الطارئة.

في ظرف أيام قليلة، بدأت أشعر أني متورطة فيها، فلا حركة لي ولا عمل إلا بمعيتها، في الوقت الذي يناسبها. بحيث لا أفعل شيئًا سوى حمل ابنتي، إرضاعها والتوسل إليها كي تأتي في الموعد أو على الأقل أن تجود عليَّ باتصال هاتفي، لتنذرني بعدم مجيئها، إن عز اللقاء.

لكنها بعدما عاثت فيّ دلالاً، اقترحت عليَّ إرسال ابنتها «وهيبة». إلا أنني أخبرتها بعد معاينتها، بأنها هي من ستدفع لي أجر تعليمها وتدريبها، وتأهيلها إلى الحياة برمتها، إذا أرادت أن أحتفظ بها! .

بدأت أم الخير تستحي من تمكنها مني، فتسحرني تارة بحكاياتها، وتارة أخرى تضحك تلطيفًا للجو. فأقول لها: «إنت والأيام علي يا أم الخير». فتزيدني ضحكًا، وأقول في نفسي: «هنيئًا لك على قدرة الابتسام، أنا بالكاد أستطيع أن أحجب عن وجهي، غضبي وحنقي عليك».

جاهل من يعتقد أن مَن يخدمه عبده، بل سيده!.

رغم أنني شقيت في انتظارها، وفي اعتقادها بأنها أولى بالشفقة والرحمة مني، وفي أعذارها التي لا تنقضي عجائبها، إلا أنني كنت لا أملك إلا أن أصدقها. وهل كان بإمكاني أن أفعل غير ذلك، وهي يدي التي أعمل بها؟. وإلا كيف أستطيع أن أخرج بجهلي وغربتي في هذه المدينة القاهرة، وأنا ممسكة برضيعتي، أبحث عن الأسواق، حين يكون زوجي غارقًا في عمله لعشر ساعات على الأقل؟. وأيهما أولى بإطفاء اللهب: عمله الجديد، أم السكر والملاعق وطناجر المطبخ الجديدة وإفراغ الشنط؟.

مرة أخرى وفي تلك الظروف الكسيحة، أدركت أهمية الأيادي الإضافية. وبدت لي الغربة بمعناها المتداول، تافهة أمام الغربة الحقيقية. فالأولى؛ ليست سوى حنين بخس إلى الأشخاص والأشياء والأماكن، سرعان ما يفتر ويتلاشى مع مرور السنين وبُعْد المسافات. أما الثانية؛ فهي المُحبطة؛ لأنها قادرة على إيقاف عجلة الأيام، في بركة موحلة!.

لم أفهم يومًا عبارة «شراء الوقت»، مثلما فهَّمَتْها لي أم الخير!. لقد كانت تشتري الوقت على حساب وقتي، وتأجيل أعمال اليوم إلى الأسبوع المقبل. ما دام عملها بالقطعة، سيدر عليها الربح الوفير. ولأنها كانت تحسبني جاهلة بأسعار الخدمات المحلية، كانت تظن أنها توهمني بأنني لا أراضيها بما فيه الكفاية. فتأخذ ورقتي الخمسين والمائة جنيه. كما لو كانت ورقة خمسة جنيهات!. وأكظم غيظي حين تقول لي بوجه لا لون فيه: «ماشي»!، كما لو كنتُ أبْخَسُها حقها.

حين طفح الكيل بي، قررت أن أتمرد عليها!. وقتها فقط خافت على مصلحتها، وتكفيرًا عن جرجرتها لي والتلاعب بأعصابي. اقترحت عليَّ ابنتها التي كانت صافية الخصال، ذكية، متقنة لعملها، وكادت تكون هبة النيل، لو لم تكن مخطوبة لمعلم، يرفض أن تعمل خطيبته مساعدة في البيوت. وكانت حائرة، لا تعرف أيهما تختار: فرصة جمع المال كي تجهز نفسها للفرح؛ أم اتقاء شر فضيحة محتملة؟. لكننا في النهاية، توصلنا جميعًا إلى الحل الأسلم: الرضوخ لطلبه!. ما دام الزواج منه، هو الذي سيريحها من العيش في بيت واحد مع والدٍ، تبادله كراهية بكراهية. يفتش

حقيبتها كل يوم، لينهب مالها. وازددتُ إدراكًا لخطورة الوضع، حين كانت تتصل أمها وأختها، لتخبرنا بأن حماتها في البيت. والعُهدة على الراوية!!!. وكي تعوضني أم الخير خسارة ابنتها، اقترحت عليَّ خدمة أختها التوأم!.

منذ الساعة الأولى، أدركت أن «سنية» لا تشبه أختها في شيء!. قضيت ثلاثة أيام فقط كي أدربها كيف تطوي الملابس، وترصها في الدواليب!. وكيف ترتب الأسرَّة بشكل هندسي جميل، وليس كيفما اتفق. بعد ذلك، شرعت في تعليمها كيف تُرجِعُ الأشياء إلى أماكنها الأولى، بعد الانتهاء من تنظيفها، وكيف تدرب ذاكرتها على تذكر أماكنها!!!. ولأن المكوى ضروري في الحياة، بدأتُ معها الدروس الأولى التطبيقية على الأقمشة ذات المساحات الشاسعة مثل الملايات، أو حتى أغطية نوران القطنية!.

بعد انتهاء الأسبوع الأول، اكتشفت أن سنية، لا تعرف سوى غسل المواعين ومسح الزجاج بالجرائد، وغسل البلاط والحمامات. وكل ما يمكن دعكه بالماء والصابون الوفير، فقط لا غير!؛ أي أن يدها بُرمجت طوال حياتها على احتراف هذه المهارات البسيطة. وأن كل عمل أو مهمة تتطلب منها إعمال العقل والتركيز والذوق الجمالي، والقدرة على التمييز، والتدبير، وأخذ المبادرة الصحيحة في الوقت المناسب والانتباه الدائم، هي مهارات لا تعنيها في شيء. ولا تُغريها حتى بالفضول أو بالتجربة؛ لأنها تفضل أن تكتفي بدور الشغالة المأمورة، على أن تَتَحَمَّلَ المسؤولية.

بعدما قضينا وقتًا ممتعًا في متحف القاهرة الباهر، بقيمة معروضاته لا بطريقة عرضها. وبعدما أخذنا صورًا تذكارية في حديقته الجميلة تحت أقدام التماثيل المهيبة، وأطلعت سنية على «خفة دمي» التي لم تكن تتوقعها مني. ظنت أنني سأنسى الجدية، ولن أواصل إصراري على مطالبتها بأداء العمل المتقن، أو سأغض الطرف عن إهمالها. لذلك استغربت وتضايقت، مع العلم أنها أبدت لي رغبتها في التعلم أول ما جاءت إلى البيت!.

مع مرور الوقت ومحاولة فهم الخلل والفجوة في التواصل معها. اكتشفت أن أصل المشكلة بيننا، هو الاختلاف البائن في تقدير الأمور والأولويات، لدرجة أننا لم نستطع أن نتوقع ردود أفعال بعضنا البعض. لذلك حين هددتني بالرحيل، لم تفهم سنية لماذا

رحلَتْ دون أن أجبُر بخاطرها أو أراضيها. وأنا لم أفهم لماذا سترحل وأمامها فرصة التعلم والتطور وربح المال، مع توفيره، ما دامت تقيم معنا.

لكنني فهمت، لماذا كل الشغالات اللائي كن يغسلن زجاج البلكونات كل يوم، في الساعة السابعة صباحًا، في شقق العمارة المقابلة لشقتنا، كن جميعهن آسيويات. ولماذا كانت ربات البيوت، يستشطن غضبًا ويحرقن أعصابهن مع الشغالات في بلادي، فيما كنت أحسبهن شريرات ومفتريات.

استسلام سنية السريع فهَّمني أيضًا، أنني لم أكن زارعة أمل أو طموح في نفوس المساعدات كما كنت أظن، وإنما كنت فقط ساقية بذوره الموجودة أساسًا في أعماقهن، وراعيتها. والدليل على خطأ ظني، أني فشلت حين وجدتني وجهًا لوجه أمام امرأة يائسة، تعيش في كنف أختها المُعيلة. لا يهمها أن تحسن أوضاعها، ولا أن تُجهد عقلها ونفسها في التعلم والتطور المستمر. وهي أساسًا امرأة بلا جدوى في الحياة. فَلِمَ الصبر والتحمل، وحتى الابن الوحيد الذي بقي لها، بعد وفاة زوجها، والذي كانَ مرشحًا أن يكون حافزًا في حياتها، مات غرقًا في البئر وهو ابن العاشرة؟. وكيف أحرضها على الابتسام في وجه ابنتي، كيلا تتعلم منها الكآبة؟. وكيف أوكل إليها رعايتها حتى وإن كانت نائمة، وهي أولى بالرعاية!.

مع قدوم الشغالة السادسة، في ظرف شهر واحد، كنت قادرة على فك لغز سميراميس!. بحيث لو عدت إليه، ورأيت هناك مربيات ومساعدات فيلبينيات يعتنين بأولاد الست المصرية، لن أعيد السؤال نفسه: «ماذا يفعلن هنا؟». لأني سأفهم فورًا، بأن أولئك السيدات، لم يفضلن رفقة الآسيويات لشكل عيونهن، ولكن لاحترافهن. وأن الفرق الجوهري بين الفيليبينية وبين العربية بصفة عامة، هو الفرق الواضح بين الهواية والاحتراف!.

فالأولى محترفة، متمكنة من عملها، سريعة الأداء مع الإتقان، لها دراية وخبرة بالحياة العصرية، واثقة من نفسها، تجيد اللغة الإنجليزية، مبتسمة، أنيقة. يمكن الاعتماد عليها، منضبطة، قادرة على أخذ المبادرة، وربما الأهم من تلك المهارات كلها، كونها متفرغة، لا شغل لها إلا عملها. لذلك تستطيع أن تُريح الأسرة التي تعيش في كنفها، على الأقل هكذا عرفتها.

أما الثانية؛ أي العربية، فهي فتاة أو امرأة هوت بها المصائب والحاجة، إلى هواية الأعمال المنزلية. رصيدها وثروتها الذاتية: جهلها، أميتها، إهمالها، نسيانها، تواكلها، تورطها في مشاكل أسرتها وجارتها وأهلها في البلد!. بحيث يصبح ما يسمى بالتكافل الاجتماعي وظيفة في حد ذاتها. وهو قطعًا أمر عظيم ونبيل، ولكن لو لم يتحول إلى دَيْن في رقبة المتَكَفَّل به، حتى يرُدَّهُ إلى صاحبه، الذي حتمًا سيصبح في القريب العاجلِ، مكفولا بدوره!. وهكذا تصبح الأيام: يوم للعمل وأيام للتكافل!. بحيث يستطيع العامل أن يتغيب عن عمله ثلاث مرات في الأسبوع، إما لحضور فرح، أو لشهادة في قسم الشرطة، أو لعيادة مريض، أو لتورطه في «خناقة». تعددت الأسباب والغياب واحد. ولا يحق لرب العمل أن يسائله؛ لأنه بدوره سيتغيب عاجلاً أم آجلاً لأداء واجب التكافل!.

فك لغز سميراميس، شرح لي أيضًا لماذا يفضل معظم الإخوان في الخليج، الأيدي العاملة الآسيوية على أيدي إخوانهم العرب، رغم أواصر القرابة واللغة والدين!. والسبب يرجع ببساطة إلى كون هذه الأيدي ترضى بالقليل وتقبل بالعيش في ظروف غير مريحة. لا يجْرُؤ أصحابُها على تهديد أرباب عملهم بإضراب أو إخلال بشروط العمل. فهم جادون، مطيعون، ملتزمون. معظمهم لا يرى أهله إلا مرة في السنتين!. وهذا لا يعني أنهم خُلقوا من طينة مختلفة!، ولكن لأن منْ طَبْع المهاجر: الصبر والكفاح والعزم على تحسين أحواله المادية والمعيشية، والعودةَ إلى الوطن غانمًا منتصرًا. لذلك لا يَسْمَحُ لشهوة النوم أن تنتصر عليه، أو الكسل أن يسيطر عليه. وإلا لماذا استلف المال ليرشو به سماسرة التهجير؟ و لماذا أحرق السفن وفارق الولد والبلد؟. لذلك، فهو لا يغضب ولا يحتج ولا يرفع صوته على الكفيل وإلا هَدَّدَهُ بالترحيل، طالما أن جواز سفره محتجز عنده!.

لا يكفي إذن أن تتوفر البلاد العربية على النفط!. ولكن يجب إلى جانب ذلك، أن يكون موقعها الجغرافي مجاورًا لبلدان آسيوية فقيرة!. وأن تكون پاكستان وأفغانستان أقرب إليها من اليابان!. وإلا اضطر أهل البلد إلى تشغيل الجرافات والحفارات بأنفسهم!، ورفع الأثقال فوق أكتافهم، إذا أرادوا ألا يسومهم أبناء العمومة سوء التكبر والدلال!. لأنهم أيضًا ينظرون إلى الأعمال اليدوية نظرة احتقار ودونية!..

بعدما تجمدت مشاريعي وتعطلت آمالي، صارت الفيلبينية حلمي! . لأني أعلم أني بدونها سأضطر إلى تغيير مسار حياتي المهني، بفتح معهد لتدريب الشغالات بالمجان!، لذلك صدقت أنه باستطاعتي الحصول عليها، من خلال مكاتب توظيف الشغالات الوافدات أو المواطنات. لكننا بعد بحث مرير، اكتشفنا أن الفيلبينية أندر من المعادن النادرة، خارج دول الخليج! . رغم أنها لا توقع عقود عملها بما لا يقل عن أربعمائة دولار عن التخصص الواحد: أي حاضنة، أو طباخة، أو منظفة.

حين أوشك البحث عنها أن يصبح إدمانا، توقفنا عنه لسببين اثنين؛ أولهما: لأنها «إن» وجدت فوق أرض الكنانة؛ فهي غالبًا ما تشترط عدم المبيت في البيت الذي تعمل فيه. وهذا ما لا يتناسب مع ظروفي الخاصة، لا سيما إذا كان عملي ليلاً. ثانيهما: لأننا تعبنا من استقبال سماسرة هذه المكاتب برفقة فتيات إفريقيات، كما لو كنا لا نميز بين الإفريقية والفيليبينية! . لكني حتى حين قَبلتُ شرط عدم مبيتها، اكتشفت أن الفيليبينية المحلوم بها، لا توجد إلا في المكاتب الَوهمية!!! .

سيبقى البحث مستمراً عن شغالة تستطيع إلى حد ما أن تكون عونًا لنا لا علينا! . فمن يدري، قد يوجد في نهر النيل ما لا يوجد في بحر الفيليبين؟! .

***

٢٠/ ١٠/ ٢٠٠٤م

حب الصغار

لعل أجمل ما في الأمومة، ذلك الإحساس، الذي تمنحه الرضيعة لأمها، فتشعر بأنها تملكها دون قيد أو شرط. فقط لأنها تحتاج إليها في كل حين ولا تستطيع الاستغناء عنها، إلا في الظروف التي يكون المانع فيها شرّا. لذلك فإن الأم التي حُرمت من قصة عشق رومانسية مع زوجها، كما كانت تحلم بها وهي مراهقة. قد تجد العوض والسلوان في حب رضيعها؛ لأنه يريدها أن تكون معه لحظة بلحظة. وهذا بالضبط ما يريده العاشق من معشوقه، قبل أن يكتشف أن من طبع البشر الضجر!.

وهنا يكمن الفرق بين العاشق الكبير والعاشق الصغير، فالأول قد يقول لحبيبته: «إنك تخنقينني أو تطاردينني». كما قد تقول لحبيبها: «إنك تحاصرني وتقيدني». أما الثاني، فلا يقول لأمه سوى: «زيديني عشقًا زيديني».

لكن ما يُدهَش له، هو وجود قاسم مشترك بين كل العشاق، سواء كانوا صغارًا أو كبارًا؛ أي، ذلك الصراع الدائم بين العشق والكبرياء!، والذي كنت أظن أنه مقتصر على الكبار دون الصغار، إلى أن ثبتت فطرية هذا الطبع العجيب!.

لقد اكتشفته بالصدفة لأول مرة، وبسبق الإصرار والترصد فيما بعد!. وذلك حين كنت أتلهى عن الحبيبة بشيء ما. كأن أعيد الملابس إلى الدولاب، أو أخرجها منه، أو أحضر حمامها، أو أنشغل عنها بأي شيء آخر، بينما تكون هي منهمكة بلعبتها، تقلبها بين يديها، تتذوق طعمها، تعضها، تتحسس ملمسها. فأستغرب لكونها مستغرقة إلى ذلك الحد، الذي ينسيها وجودي داخل مجالها البصري!، لكني في الوقت نفسه، كنت أستغرب حين أخرج من الغرفة وتشرع في البكاء!. إذ لو كانت منهمكة إلى ذلك الحد الذي تبديه لي، لما انْتَبَهَتْ إلى خروجي من الغرفة!.

أخذت تلك الملاحظة المربكة بعين الاعتبار، ورُحت أبحث عن سر «استغراقها» في اللعب. وقد تعمدت أن أنظر إليها على حين غفلة، فكانت النتيجة مدهشة للغاية!؛

لقد وجدتها متلبسة في النظر إليَّ خلسة، متسترة خلف لعبتها! . فذهبتُ إليها واحتضنتها وقبلتها تسعا وتسعين وكنت على عجل! . ولم أصدق أن الكبرياء يولد معنا، ونمارسه حتى ونحن في المهد: أي في قمة الحاجة والاحتياج إلى من يرضعنا ويغير حفاضتنا! .

لم تنته تحرياتي عند هذا الحد، لا سيما عندما لاحظت أنها توقفت عن مراقبتي، كما كانت تفعل من قبل، حين كنت أباغتها بالنظر إليها! . بحيث لم تعد تنظر إلى الجهة التي أكون فيها، وإنما إلى جهة أجهلها. ولولا شيء من الصدفة وكثير من الفضول، لما علمت أنها لم تُغير وجهتها إلا لتراني بوضوح تام عبر شاشتها السرية، دون أن أحرجها بتقاطع نظرتينا! . لقد كانت مرآة الدولاب، نافذتها الجديدة لملاحقة حركاتي وسكناتي في سرية تامة! . وازددت يقينًا بأن إخفاء المشاعر والمكابرة، من طبع البشر. ثمّ زدتها قبلة، وألفًا أخَر! .

بعدما أصبح بمقدوري أن أتركها في الغرفة لمدة ثلاث دقائق دون أن تبكي، بدأتْ تشعُر أنها إذا ضَحكت معي قبل أن أغادر الغرفة، سأتأخر عنها مدة أطول! ، لذلك قرّرَتْ أن تبتسم لي ربع ابتسامة، حتى على الأشياء التي كانت تُضحكها كثيرًا، إذا ما شعرت بأني أبتسم لها أو أضحك معها، تمهيدًا لتأخير وشيك في المطبخ! . أما إذا امتنعت عن الابتسام تمامًا، فمعنى ذلك أنها ستشرع في البكاء فور خروجي من الغرفة! . وهكذا أصبحت ورقة الضغط المربحة دائمًا، دموعها الغالية! .

لكن مهما صغرت أو كبرت دواعي بكائها، فإني أحملها في غالب الأحيان، محمل الجد. مهما ادّعى الآباء والأمهات، الذين، حتى لا يْشعُروا بالذنب أو يبرروا لأنفسهم إهمالهم لبكاء أطفالهم؛ قالوا: «إن ذاك هو حال الأطفال؛ ما بين البكاء والبكاء بكاء!» . متجاهلين، متناسين أن كلما طال بكاؤهم، ازدادوا شعورًا بالدونية والإهمال والنقص. وفقدوا ثقتهم بأنفسهم. طبعًا ليس هذا ما أتمناه لابنتي. لذلك حين أتذكر كلام من كان ينصحني بألا أعَوِّدَها على النوم في حضني، أو أتركها تشهق أمام حائط المبكى حتى تسكت لوحدها، أو أن أكف عن حملها مدة أطول، حتى لا أتورط في حملها عندما يثقل وزنها، أو يجب ألا أدللها كثيرًا حتى لا تكون فتاة مدللة، فإني أضحك حتى الثمالة لعدة أسباب:

أولاً: لاعتقاد الناصح أنه قدم لي النصيحة السديدة!

ثانيًا: لأنه لا يخطر على باله أني «بطلت» تصديق النصائح؛ لأني بالدربة والممارسة، صرت أستشف ممن ينصحني، أنه لا يبغي سوى مصلحته، من وراء نصيحته!.

ثالثًا: لأنه لا يعلم أن إحدى أمنياتي أن أرى ابنتي فتاة مدللة، وذلك لغاية في نفسي!.

رابعًا: لأنه لا يفهم أني وأنا أحملها فوق الوسادة القطنية، كيلا تؤذيها عظام مرفقيي، أتذكر تلك اللحظات الجميلة التي كانت تحملني فيها «بهيجة» وأنا طفلة صغيرة. وأني أتمنى أن أعود إلى الطفولة كي تحملني وقتًا أطول. فكيف لا أحقق هذه الأمنية في ابنتي؟!.

خامسًا: كيف لا أراضيها حين تبكي، ولا شيء كان يشعرني بقيمتي ويعيد لي كبريائي ويحافظ على كرامتي، ويؤكد لي حب أمي لي، سوى مراضاتها لي، حين كنت أبكي أو أمتنع عن الطعام. وكنت أخشى أن تكل أو تمل أو تفقد صبرها معي بسرعة، فتكف عن مراضاتي في اللحظة التي كنت أنوي فيها أن ألين أو أستجيب لندائها، دون أن تطيب خاطري بالقدر الذي يرضيني!. وإلا فَمَنْ غير الأم يُجيد المراضاة ويُصر عليها، في عصر السرعة والهمبرجر؟!.

سادسًا: كيف أتركها تبكي وهي تقول لي: «لا تتركيني. أنا محتاجة إليك. أنا وحيدة. وجودك هو ما يسعدني في هذه الدنيا. وجودك هو أماني وطمأنينتي. إنها فرصتي الوحيدة في الحياة كي أجبر من أحبه على البقاء بجانبي، فلا تحرميني منها. ولو ذهبت دون إذني، سأهددك بالبكاء وأنت تعلمين أنني أجيد فن البكاء». وأنا لا أريد أن تشعر ابنتي بأن بكاءها لا يجدي!.

وأخيرًا، كيف سيطاوعني عقلي وقلبي أن أبعد عنها، إذا كنت أشتاق إليها، حتى بعد أن أفارقها عشر دقائق، بعدما كنت بجوارها عشر ساعات. مصداقًا لقول الموشح الأندلسي المغربي: «ومن عجبي أني أحنُّ إليكم وأنتم بين أضلعي!». وإذا كنت منذ الآن أتساءل: من منا ستفطم الأخرى: أنا أم هي؟.

ويتمادى حبي لها حين أتمنى لو كان بإمكاني أن أحضر معها دروس الحضانة الأولى، كيلا يصيبها مكروه أو يمسها أذى. ولولا هذا الشعور الصادق، لما فهمت لأول مرة في حياتي، حسرة العاشق الذي كان بوده لو يخبئ حبيبته داخل قلبه: لا عين تراها ولا يد تمتد إليها!؛ لأنه بالفعل أأمن مكان للحب. أولَمْ تبق بجوار قلبي تسعة أشهر بالتمام والكمال؟!.

***

٣٠/ ١٠/ ٢٠٠٤م

شيء كالمرآة

كنت أحسبني أنضحُ سعادة وحيوية بالفطرة. وأن لا قوة يمكنها أن تردع طموحي باستثناء المرض. أحتقر العراقيل، وألوم الفاشلين. ولا أعمل حسابًا لاستدراج مكر الحياة، حتى دخلت التجربة. فاكتشفت أن حيويتي ومزاجي الرائق لم يكن لي دخل فيهما، وإنما كانا هبة مجانية للظروف المواتية!.

أصحو بعد ليل متعب، لأزداد شحوبًا يومًا بعد يوم. أنظر إلى المرآة، لا أرى سوى وجه الكآبة وفتور الروح. أتخيل عيونًا تراقبني، تتمحص في حركاتي وسكناتي، مشفقة تارة ومستفزة تارة أخرى: «أهذا ما أردت، ها قد صرت ككل النساء، فأين وعود التحدي والصمود؛ أين أيامك الخوالي؟». لكني لا أجيب. أنا عاجزة عن فعل أي شيء يعيد إليَّ ماء الوجه. كان بودي أن أشرح، أن أعلل، أن أدافع. لكني أكون منهكة، حين تنهال عليَّ النظرات. أكون مستغرقة في غصاتي.

أنا أيضًا تَثَبَّتت معالم وجهي عَلى تلك الملامح، التي كنت أراها فوق وجوه النساء المكتئبات، حين كنت أقول: «آه، لو كان هذا الجمال يحيا في ظروف مرحة ومريحة، لكان أبهى!». كأن ريح الذهول عبرت قسمات وجهي وأذهبت عنها الحياة.

خلال الأسابيع الأولى كنت أعد نفسي بهزيمة الوضع. كنت ما زلت أتكلم، ما زلت أعد بالتجاوز والنصر. ثم اكتشفت بعد تكرار المحاولات اليائسة، أني أتحدث بلساني القديم، ما دام الحال هو الحال، إلى أن تكلست كلماتي.

لماذا أبتسم، لماذا أقاوم، لماذا أكون حلوة، ومن أين آتي بالروح الحلوة؟. لماذا أتظاهر بالقوة والسيطرة على الوضع؟. ولمَ أدعي أنَّ الحياة جميلة وبأني قادرة على شكر الله، حتى في الظروف التي لا يُحمد عَليها سواه؟.

أشياء صغيرة وكبيرة تمر على مرمى البصر، أهملها. بل، لم تعد تستوقفني أو تغريني بالملاحظة والتعليق. أقصى ما يمكن أن أفعله هو أن أتسمر في مكان واحد

لمشاهدة ما يجري أمامي بالعرض البطيء. أكسحني العوز إلى العون. أذلتني الغربة الجديدة، وأنا أستجدي السواعد باللطف والإنسانية والديمقراطية والمكافآت والتحفيزات، وهي لا تزداد إلا تمنعًا ودلالاً.

أتخيلهم ينكتون، يستهزئون، يشمتون، لو حكيت انقصام ظهري وانهزامي!. يضحكون مثلما يضحكون على طفل يجر هرّا من ذيله وهو يموء من الألم. أو مثلما يضحك العابرون على مُستضعف، انهال عليه الرفاق ضربًا. أو على طفل بائس يقود أباه السكران إلى البيت، بخطى سريعة كيلا يضحك عليه الجيران.

ماذا أفعل هنا وأنا أتحايل على السباك الذي لا يتقن سوى خط الرجعة، كي يفسد ما أصلح أو يصلح ما أفسد آخر مرة؟. فأناشدهُ باسم العروبة والإسلام والمسيحية، ألا يريني وجهه مرة أخرى، كيلا يزعج ابنتي النائمة برناته القوية فوق جرس الباب!.

ماذا أفعل هنا، داخل هذا المطبخ وأنا أدرب هذه المرأة على غسل الأواني بالطريقة الأنظف؟!. وتنظيف الملوخية والشبت، حتى لا يتحشرج ترابها بين أسناننا. وكيف تنشرُ الغسيل بالطريقة الأسلم. وكيف تميز بين الوسخ والنظافة، بين الفوضى والنظام؟. وقبل ذلك، كيف أقنعها بالمواظبة على العمل؟!.

سنةٌ مضت وأنا منقطعة عن الناس والعالم والإنجازات وخطط المشاريع. فمن إحاطتي بالأوراق والمقالات والكتب، وأنا أضع سيناريو أسئلة الحلقات، أو أكتَب التقارير عن أعمال وأفكار المبدعين والمفكرين، إلى إحاطتي بالخضراوات والشماعات!. ومن متابعتي اليومية لتقارير المراسلين وتذاكر سفر الضيوف، واستقبال عشرات المكالمات من كل أنحاء الوطن العربي وخارجه، إلى استقبال مكالمة يتيمة!، أبيت الليل أدعو الله ألا يشرق صباحي عليها، ما دامت لن تكون سوى إنذار من «المساعدة» المُتعبة، التي ستعتذر لي بصوتها المُنتصر، عن عدم مجيئها ذلك اليوم، نظرًا لأسباب ملفقة!. فلا أفكر في استبدالها، ما دامت غيرها، ستكلفني من جديد، تبديد سبعين في المائة من وقتي وجهدي لتقويم عملها المعوج!. فلا أصحو على خير، إلا إذا رأيت هاتفي المحمول، خاليًا من بقايا مكالمة لم يرد عليها أحد!.

وحين أفكر في تغيير الجو من أجل رؤية وجوه جديدة، وأصوات مختلفة، تُنسيني معالم وجهي المتكلِّسة. أتذكر أنني في مدينة، لا تسعفني إلا على التسمر في البيت!.

فكيف أمشي في طرقاتها المزدحمة بكل شيء؟! . وكيف أستقل سيارة الأجرة، وسائقها يُعَدِّل مزاجه بالسياقة المجنونة، على حساب سلامة ابنتي الرضيعة؟ . وكيف لا أزداد توترًا في شوارع هذه المدينة، ولا شيء يذهب عن فكري احتمال وقوعي في حفرة، أو سقوط سلة فجائية من الطابق الرابع فوق رأسي أو رأس ابنتي؟! . ثم كيف أستمتع بنزهتي وعشرات الحافلات المجنونة، تتوعدني ببتر ساقي أو ذراعي، إن ركزت انتباهي فقط على الاتجاهات الثلاثة، غافلة الاتجاه الرابع؟!!! .

لذلك أتخلى عن فكرتي الشيطانية، التي تزين لي دفع عربة ابنتي، خارج جدران الشقة، لأكتفي بالتجول فوق أسطح البنايات، والانفتاح على العالم الخارجي، من خلال النظر عبر نافذتي . . .

* * *

١٥ / ١١ / ٢٠٠٤م

وصية جدتي

رغم أنهم مسحوا اسمي من كل الأوراق الرسمية، ولم يعد بإمكاني رؤيته مطبوعًا فوق فاتورة الماء والكهرباء والهاتف. ورغم أني لم أعد سوى مرافقة «غير مصرح لها بالعمل» في بلد الضيافة، وإلا فضحتني مهنتي الجديدة: «بدون»، لدى السلطات المعنية!، إلا أن نفسي تنقبض حين تقع عيني على لقب «ربة بيت» فوق تأشيرة الدخول، أو حين تُذكرني به المناسبات الرسمية!.

تعسا لهجرتي ودراستي وجهودي، إن كانت ستتوجني في عز إمكانياتي الفكرية والمهنية، بهذا اللقب الذي لم أسعَ قط للحصول عليه!.

كلا، لم أرزأ في الأهل والأحباب والاستقرار ومباهج الحياة، كي أنال في نهاية الكد والحرمان، ما كان بالإمكان نيله دون عذاب!!!.

لا يا جدتي، لن أخذل وصيتك. عدلٌ فيَّ سخطك، إن جلستُ في البيت، دون أن أشعر بالخيبة!. لن أكون أقل عزمًا وطاعة من أمي وخالتي، اللتين عملتا بوصيتك حتى التقاعد، خوفًا من نزول غضبك عليهما!. وإلا فما قيمة جهدك وتضحيتك من أجل تعليمهما؛ حين كانت الأنثى لا تخرج للدنيا إلا مرتين: الأولى لسجن الزوج والثانية لسجن القبر!. أعدك وعد الحرات، بأني سأقاوم بكل ما أوتيت من تفانٍ واستماتة هذا اللقب، الذي أذاقني طعم الموت، قبل الموت؛ حتى صرت نسيًا منسيّا.

كلا ورب البيت لن أكون ربة بيت!. فقد عاهدت نفسي أن أقاتل الموت حتى الموت!.

أما أنت يا مستر علم النفس، لم تكن على شيء في حكمك على النساء، حين زعمت أن إبداع المرأة الوحيد في الحياة، هو إنجاب البنين والبنات، وما يقتضيه من عناية وتربية وخدمة، بطبيعة الحال!.

إنك حقّا تضحكني وأنت تُضمر لها العداء، متسترًا خلف لحيتك الأبوية!. وتضحكني أكثر حين تتماشى أهواؤك مع أهواء ذلك المثل الشعبي سيئ السمعة: «المرأة كالحمارة، حيثما ذهبت عملت»!، والذي يتداوله «فرسان» القبائل، ليضفوا طابع الحكمة والشرعية على أوقات راحتهم المزمنة!، حين تكون النساء خائضات في أعمالهن المضنية.

لست أدري إن كانت تلك القناة التليفزيونية الفرنسية على علم بهذا المثل السُّبَّة أم لا؟، حين خَصَّصت فقرة في أحد برامجها، للتعليق والوقوف عند صورة امرأة من جبال المغرب العربي، تجسد المثل سالف الذكر بالصوت والصورة!.

لم تكن المرأة راكعة لله، ولكن لأثقال كومة الحطب الضخمة التي كانت تنقضُ ظهرها. فلولا أن شاهدنا بالكاد رأسها، المختفي بين أعواد الأشجار، لظننا أنها فعلاً (...) حاشاها!. ولم أكن أفهم حين كنت صغيرة، سر إقبال السياح على شراء تلك الصورة التذكارية، رغم قبحها وبشاعتها، تمامًا مثلما لا أفهم الآن، لماذا يتساءلون عما يشوه صورتهم في الغرب؟!!!.

نعم، بمثل هذا المثل تُصاغُ القوانين العرفية، التي تُحددُ وتُؤطرُ دور المرأة في المجتمع، سواء في الأوساط القروية أو الحضرية، حتى لو كان على سبيل «الدعابة»!، بحيث تُذَكَّرُ به الفتاة أو المرأة، إذا ما سولت لها نفسها، أن ترتاح قليلاً من أعمال البيت الشاقة، خلال فترة ضيافتها، عند خالتها أو عمتها أو بعض معارفها. كيلا تنسى أنها خلقت، دون الجن والذكور، لتعبد ربها في خدمة الذكر حيثما وجد!. ومن بعده أمه وأخته وخالاته، اللائي سيشهدن إن في حضورها أو في غيابها؛ بأنها فتاة مطيعة، حانية الرأس، يمكنُ تصويب سهم الخطوبة عليها!.

لذلك فإن الفتاة «الفطنة»، هي التي تبادر بعرض خدماتها على خالتها أو قريبتها، لتحظى بمكانة طيبة عندهن، حتى تضمن باب الضيافة مفتوحًا على مصراعيه، كلما سنحت الفرصة أو الإجازة!.

من أجل هذا كنت أكره الزيارات، وربما حتى الآن؛ لأنني إذا لم أساعد في جمع مائدة الطعام، قد أنعت بالتكبر أو الاستعلاء على ربة البيت!. وكم كنت أتلقى سيلاً

من الانتقادات، حين كنت أفضل اللعب بالكرة مع الأولاد، على أن أريش الدجاج أو أنقي العدس أو أقشر الثوم في مطبخ الأسرة المضيفة، رفقة الخدم، وتحت أعين ربة البيت! . فكيف أغض الطرف، عما كان يعكر صفو طفولتي وإجازتي الصيفية، رغم أني كنت، ولا أزال، مثل كل الأولاد والرجال، أعشق الراحة واللعب والضحك! . لكني، لأنني كنت فتاة، كان لا بد أن أبدد جهدي العضلي في أعمال البيت الكريهة، بحجة التأهيل المبكر للقب ربة البيت! . فكيف لا يرن في سمعي: ربة الشقاء، ربة الحزن، ربة التعب، ربة العبودية وهو يسلبني حُريتي وراحتي؟!!! .

لم أنس قط ذلك الاستغلال المبكر، الذي كان يحط من قدر الأنثى، حين يميز بينها وبين الذكر. ورغم أنني في سن الثانية عشرة، لم أكن أفهم أثره البالغ في نفوس الفتيات والنساء، إلا أنني كنت أتفاجأ حين كن يتواصين فيما بينهن، على ضرورة السهر على راحة الكائن المدلل، إما كحيلة للاستحواذ عليه أو كعقيدة مكتسبة! . وذلك من خلال التأكيد على تحضير مائدة الطعام بالأطباق المحببة إلى قلبه، حين يعود «المسكين» إلى بيته مرهقًا من العمل، متضورًا من الجوع.

ولأني كنت ولا أزالُ أحب الطعام الشهي، كالذي تجيده أمي، كنت أعلق فورًا: «وأنا المسكينة، لماذا لا أعُزُّ عليه؟ . ولماذا لا يحضر لي الأطباق الغالية على قلبي، حين أكون عائدة مثله، مرهقة من العمل ؟». لكن تدخلي السريع كان يصيبهن بالدهشة والضحك في الوقت نفسه. ثُم يواصلن حديثهن «النسائي»، بعدما يذكرنني بأنني سأكون امرأة، أما هو فرجل! .

ذلك ما لم أكن أفهمه أبدا! . فرغم رصدي لمحاولات التقليل من شأن الأنثى، إلا أنني لم أشعر لحظة واحدة في حياتي، بأن الولد أفضل مني في شيء على الإطلاق. بل على العكس، كنت أعتقد دائمًا أن البنت أهم، لأنها تقدر، على ما لن يقدر عليه أبدًا. وكيف أوهم نفسي أو يوهمني أحد، بأنه أفضل مني، وأنا أراه في المدرسة كسولاً، تضحك من خيبته التلميذات المجتهدات، رغم أنه لا يضيع وقته في غسيل الأواني مع أمه، ولا يقوم بأعمال السُّخرة مثل الفتيات؟ . أو مقززًا، يبول فوق الجدران والأشجار! ، أو جبانًا لا يقطع الطريق إلا على من هم أصغر منه سنّا! ، أو شريرًا يعذب القطط، ، أو معتديًا ينهب ألعاب وكعكة أخته، أو منحرفًا يشم دهانات

السيارات. أما إذا كان يتمتع بصفات الشهامة والنبل والعدل والإيثار والتسامح، فسُلَّمُ القيم وحده، هو الذي سيحدد درجة أو دركة الأخلاق التي يقف عليها.

بهذه البساطة وهذا الوضوح، حسمت أمري وحددت موقفي. لكن استغرابي كان يبلغ ذروته، حين كنت أجد بعض النساء والفتيات يتأذين من منظر الأزواج أو الذكور، وهم يساعدون أهل البيت من الإناث، في غسل الأواني، أو مسح الأرض أو تقشير الخضراوات أو نشر الغسيل وغيرها من الأشغال «النسائية»، بحجة أن تلك الأعمال تحط من قَدْرهم في نظرهن!. فأصيح مذهولة: «ويحك!. وقدرك أنت وشأنك أنت، ألا ينزل إلى الحضيض، وأنت تقومين بأعمال البيت؟. ألا تستحقين أن تكوني معززة مكرمة، لا تقومين إلا بأعمال تليق بمقامك وتحافظ على كبريائك؟».

مع مرور الأيام وتراكم الأحداث، اكتسبتُ هواية التدبر والتأمل في الظروف والنفوس، التي تكالبت على المرأة، حتى صارت الكائن المضطهد الوحيد، الذي لا يعرف بأنه مضطهد!. كما صرت أتعامل بحذر شديد، مع حماسة الثناء على أعمال المرأة داخل البيت، التي غالبًا ما تفتر همَّتُهَا أو تتقيد بشروط، حينما يتعلق الأمر بالثناء على إبداعها وإنجازاتها خارج البيت؛ أي خارج نطاق الخدمة!!!.

وبناء عليه، فإني أتعاطى مع «الخطة رقم ١»، بكثير من التسلية والسخرية، والتي وُضعت خصيصًا للإيقاع بالنساء والتغرير بهن، من خلال توزيع بعض الأوصاف الجميلة والمجانية عليهن، ما دام نشرها لا يكلف سوى لوي اللسان، بما تفضل به سادة الكلام!؛ كوصفها باللؤلؤة، والوردة والدرة والمحارة، والجوهرة!، تمهيدًا للَّقب الأعظم، الذي كنت قد نسيته، لولا أن ذكرتني به «مساعدتي» وهي تبغي مجاملتي. إلا أنني شرحت لها بالتفصيل الثقيل، والأدلة الدامغة، بأني لست ملكة تتربع على عرش مملكتها!.

ذلك، لأن جلالة الملكة أو سمو الأميرة، لا تشغل بالها بنظافة القصر!، ولا تبدد وقتها في التسوق للمطبخ، ولا تقضي بياض أيامها في تعليم «مساعدتها» النظام والنظافة!. ولو كنت ملكة حقّا، لما حلمت باليوم الذي سأجد فيه من تريحني، وتخدم أهل البيت كافة، لتتركني وشأني مع أوراقي!، فلا أراها ولا تراني إلا مصادفة ربما، وأنا أكشط فوق لائحة الطعام المقترحة ليوم الغد!. وبناءً عليه، فإن الملك الحقيقي، هو

رب البيت، الذي لا يحتاج إلى الحلم مثلي، بمن يدير شؤون بيته، كي ينعم برفاهية الراحة وهناء البال!.

عند هذه النقطة، كنت على يقين بأنها ندمت على «فعلتها»، «حتى ندم القُمَّلُ في رأسها»، كما يقول المثل المغربي!، وبأنها لن تتهمني مَجدداً بالـمُلك، ما دامت قد فهمت أنها ليست المساعدة، التي يمكن أن أعول عليها في إدارة شؤون المملكة، لحظة تربَعي على العرش!!!.

***

٧/ ١٢/ ٢٠٠٤م

الضمير المنفصل

في غفلة من وعيه وإدراكه، يكرس ذلك الولد، نموذج ذلك الأب، أي في تلك اللحظة بالتحديد التي لا يُقيم لها وزنًا، إن سهوًا أو عمدًا، ويعتبرها طبيعية واعتيادية. حينما يتظاهر الزوج بأن ابنه لا يهمه، وأنه ابن أمه أكثر؛ فقط كي يبرر لنفسه فرصة تدخين سيجارة، أو مشاهدة مباراة، أو متابعة عقدة فيلم أجنبي، أو أي نشاط آخر سيخلصه من مشقة حمل ابنه، الذي يملأ البيت صراخًا وإزعاجًا.

أما هي، زوجته، حتى لو كانت مثله تعشق الراحة ورشف القهوة ومتابعة المسلسلات، ستنهض فورًا لتلبي النداء، ليس لأنها لا تزال ترضعه، وليس لأنها كانت تنعم بالراحة طوال اليوم داخل البيت وخارجه، ولكن لأن راحة الزوج «واجب مقدس». والسهر على إمتاعه، خير ممن طلعت عليها الشمس!!!.

إنه غير خاف على الزوج، من هذا النوع، أن الاستجابة لنداء الطفل، لا تعرف نهاية. لأنه إذا ما تورط فيما يسمى بروح التعاون والمشاركة، ليس بين أعضاء فريق كرة القدم!، وإنما مع التي هي أحق بمد يد العون والرحمة إليها، فإنه سيفارق المتعة والراحة لأمد بعيد!.

لنفترض جدلاً أن اللحظة أذان المغرب، في شهر الصيام!. هل سيلبي نداء البطن أم نداء ابنه المريض في الغرفة المجاورة، ويكتفي بشق ثمرة، ورشف جرعة حليب، زاهدًا في المائدة العامرة بالخيرات والملذات؟. وهو يعلم حسب معاينة ومتابعة «أنشطة» زوجته المتواصلة، أنه حين ينتهي من دور الرعاية والتمريض، ويعود إلى إفطاره، سيجد مسلسله المحبوب قد انتهى، وشربة لسان العصفور قد بردت، والفراخ المحشية تشمعت!.

وفي «رواية أخرى»، بدلاً من أن ينعم بساعة نوم قبل أن يستقل هو وحرمه قطار السادسة صباحًا، سيكون مُجْبرًا على مساعدة زوجته في إعداد حقيبته الخاصة!. أو في

اللحظة التي ينعم فيها بدفء البطانية في عز ليالي البرد، سيكون مضطرّا لإحضار بخاخ التنفس لابنته، التي انتابتها أزمة الربو فجأة!.

لا شك أن هذه الأمثلة تعتبر لا شيء، أمام عشرات اللحظات التي تفوقها أنانية، بحيث تبدو مدعاة لآهات ساخرة وتنهدات متحسرة عند بعض النساء، اللائي قد يعتبرنها نقطة من نهر معاناتهن الحقيقية مع أزواجهن. إلا أن الذي يغريني بالرصد والتبئير أكثر، هي تلك اللحظات الهاربة، العابرة، التي تكاد لا تستوقف أحدًا. أو لا يحسها ولا يلمحها إلا قلة من أعين الجنة والناس!. تلك اللحظات، التي كان بإمكانها أن تكون أكثر رحمة وإيثارًا وحبّا وعطاء، لو «فقط» أحب الزوج لزوجته ما يحبه لنفسه!. عملاً بحديث الرسول ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه**». لكن الزوج محترف التحريف ومارد التمويه!، سيقول لزوجته العزيزة: «ليتك كنت أخي حتى أحب لك ما أحبه لنفسي!».

لقد كنت أتطلع دائمًا، إلى فهم ذلك اللغز الذي يُحول العلاقة الغرامية إلى علاقة زوجية، يتبرم منها الأزواج والزوجات على حد سواء. ذلك لأنني لم أفهم يومًا كيف يمكن أن تتحول المشاعر الفياضة فجأة أو مع الزمن، إلى مشاعر راكدة أو حتى عكرة.

ولأني كنت أظن أن بعض النساء، أو معظمهن، لا يتمتعن بروح الدعابة والفكاهة، أو عاجزات تمامًا عن الاستمتاع بالضحك، ما دمن لا يتحدثن في مجمعهن سوى عن مشاكل الأولاد والأزواج والشغالات، كنت أحمِّلهن وزر الإيقاع بسهم الحب في بورصة العلاقة الزوجية!. لكن لو لم أطلع على بعض القواسم، غير المشتركة، بين الأزواج المشتكين من حالة الملل المزمنة في علاقتهم الزوجية، لَمتُّ دون أن أحل ذلك اللغز العجيب!.

ورغم أن جزءًا مما سأطرحه قد لا يُرضي الطرف الثاني. إلا أنه بشيء من كظم الغيظ، وشيء من التعقل والاحتكام إلى قدوة نبي الإسلام ﷺ، ومواجهة النفس في المرآة المكبرة للعيوب، قد يَقْبَل بسماع الرأي الآخر بصدر رحب. خاصة إذا كان من الذين لا يخافون قول الحق، ولو على أنفسهم!.

ولا أدّعي امتلاك الشفرة التامة لفك ذلك اللغز العجيب، وإنما أعتقد أني تخلصت من الاحتمالات المُضللة. كما لا أزعم أني أتيت بجديد، وإنما فقط أبصرت القديم،

دون غشاوة! . لذلك ستبدو القواسم، غير المشتركة بين الزوجين، والتي تعمل عمل السحر المفرق بين المرء وزوجه، ستبدو واضحة إلى حد الغموض! .

إنها باختصار شديد وتبئير مكثف: تعب الطرف الأول؛ الزوجة، وانسحاب الطرف الثاني؛ الزوج من حياة المطبخ والتسوق، والغسالة، ومذاكرة الأولاد، والتخطيط لأكل اليوم، وتنظيف البيت.. إلخ.. وأنا هنا لا أتحدث عن الذين يتضورون جوعًا ويتمزقون فقرًا ومرضًا، ولكن عن ذلك الزوج، الذي كان بالأمس حبيبًا وخطيبًا، يكتب لحبيبته وأميرة قلبه: ألف مرة أحبك على أوراق الشجر! . ويستظهر عليها أشعار نزار. وَيعدُها بالاختلاف عن النماذج المكرورة، التي تعيد إنتاج الماضي برُفاته وعاداته السيئة. وأتحدث عن تلك الزوجة التي كانت تهيم عشقًا بفتى أحلامها، فتعده بالتزين له والرقص وتدليله أكثر مما كانت تفعل أمه، كي تعزز أواصر المحبة من خلال قنوات المطبخ والمعدة، الموصلة إلى القلب! . حتى ظن كلٌّ منهما أن حياتهما ستغدو أغنية من أغاني الڤيديو كليب الحديث! .

طبعًا، ليست المشكلة في الوعود والنوايا الحسنة، ولكن في تحليق المحبين بخيالهما وآمالهما، دون تقدير لضريبة التضحيات والخسائر التي ستكلف الزوجة من ناحيتها؛ كي تكون صديقة رائعة، ريحانة في كل وقت، طباخة، ممرضة، عاشقة، معلمة للأولاد! . والزوج من ناحيته، كي يفي بوعد الاختلاف عن نماذج الآباء والأجداد، ظنّا منه أن تغيير النفس أمرٌ هين!!! .

لذلك، ما أن يستوعب أن سر إطالة عمر الحب في العلاقة الزوجية، هو اقتسام المشقة مع الزوجة، حتى يخلف وعده فورًا! .

لأن ثمن الديمقراطية والمشاركة، باهظ ومتلف للامتيازات والصلاحيات، حتى في الحب!!! .

وهكذا ودون أن يدريا كيف حدث ذلك، ودون أن يفهما كيف بدأ الانشقاق والتفكك، سيواصل الزوجان مسيرة الابتعاد عن بعضهما البعض. وبدلاً من الكلام، سيعشعش الصمت في أركان البيت؛ إما من تعبها، أو تعبًا من الحديث عن تعبها! . كلاهما سينتظر التدخل السريع من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه، لكن الأفواه مكمَّمة والأنفس مصعوقة. لذلك سيكتفيان بمراقبة الصمت وهو يكبر في صمت! . .

وفي تلك اللحظات الهاربة، يتم حسم الموقف مع الحب والعلاقة العاطفية. أي حين تُدرك فتاةُ الأمس وزوجة اليوم، أن صمت زوجها أصبح عادة، وأن عليها أن تكافح كي تخلق سياقًا للكلام معه: لأن الصباح قهوة وتدخين. والظهيرة أكلٌ وقيلولة. والعشية عملٌ وأصدقاء. والليل راحة ونوم. ونهاية الأسبوع سؤال: «هل تودين أن تنكدي عليَّ، حتى في يوم إجازتي؟».

ومع الأيام، ستفهم الزوجة بأنها قد تنتظر شهوراً، ليستوي سياق الكلام مع زوجها، في أمورهما الخاصة، مثلما كان مستويًا قبل أو خلال بداية زواجهما!. لكنها ستضطر إلى خرقه؛ لأن الحديث عن الزيت والكهرباء ومصروف البيت، ودروس الأولاد، إلخ... لا ينتظر. لذلك سيبدو كلامها في نظر الزوج، كئيبًا، عقيمًا، نكدًا، خارجًا عن السياق!!!.

في المقابل سيتساءل الزوج: لماذا سأنغص حياتي، وأهُدُّ صحتي، وأشاطرها راحتي، وفي سبيل من وماذا؟. وقبل حتى أن يُمهل نفسه الإجابة، يكون قد اتخذ قرار الانسحاب التام من الحياة الزوجية والأسرية!. لكنه كيلا يقطع شعرة معاوية مع ما يُسمى بالمشاركة، سيشاركها الأكل أثناء تناول إحدى وجبات الطعام، سيلاعب أولاده لمدة أربع دقائق، سيستقبل معها الأهل والأصدقاء في البيت!!!.

هكذا ستتحول المعشوقة والمحبوبة إلى كل النساء، ليس بمعنى نزار قباني في إحدى قصائده، ولكن بالمعنى النكدي!.

حتى الأبناء لن يظلوا زينة الحياة، وإنما أعداء وغرماء؛ لأنهم استأثروا باهتمام زوجته. وأذبلوها فيما كان يأمل أن تظل ريحانة أبدية!. لذلك سيتمادى في تفكيره السلبي، وبدلاً من مراجعة النفس ومحاولة تغيير سياسة الأخذ بالعطاء. سيُفَضِّل التوحد مع ذاته وعالمه وأصحابه، بدلاً من الانضمام والتضامن مع أسرته!!!.

وفي تلك اللحظة التي سيقول فيها «للجماعة»: «أنا مستعد، هل أنتم جاهزون؟»، ستتأكد الزوجة اللماحة، بأن زوجها «العزيز» أصبح ضميراً منفصلاً، وبأنه في وادي الشعراء وهم في وادي الثقلاء!.

هو، خفيف، حر كالهواء. هي، مثقلة بنون الجمع وبطء الجماعة! . ينتظرها طابور من الأشغال، التي ستروديها لهثًا وعرقًا، قبل أن ينتهي. هو، ليس وراءه سوى حلاقة ذقنه، وشحن بطارية جواله وتدخين سيجارته وحمل مفاتيح سيارته، وربما مسح نظارته الشمسية، كي يكون جاهزًا قبل «الجماعة» بساعتين على الأقل، حسب عدد أفرادها! .

هي، قد تفكر في حديث رسول الله ﷺ: «**سيروا بسير ضعفائكم**». لكن السياق لا يستوي لهدي هذا الضمير المنفصل! . لذلك ستقاتل الوقت كي تجهز الرُضّع والمفطومين، من البنين والبنات، ليلحقوا بوالدهم الطليق! . ولن تفكر بالتأكيد في زينتها وتسريح شعرها؛ لأن الزوج الذي سابق الريح كي يستقل السيارة، ينغص عليها الحياة، كل دقيقتين، ليذكرها بأن الجماعة الأخرى، أي الأصدقاء، في انتظارهم. وقد ينفجر الوضع وتهدد الزوجة بعدم الذهاب، لكن ماءَ وجهه أكبرُ من تهديدها. ليس لأنه غال عليها، ولكن لأنه قد يُلَوِّحُ بالطلاق أو يقاطعها لأمد بعيد، وهي لا تحتاج إلى ذل أكثر! . . .

***

٢٠/١٢/ ٢٠٠٤م

سر الخلود

حين فككت إحدى أهم شفرات اكتئابي قلت لنفسي: لمَ لا أبدأ بتنفيذ وصية جدتي انطلاقًا من البيت، فأغتنم فرصة تحرري من الالتزام بالحضور إلى العمل، لكتابة الكتاب الذي كنت أريد أن أقرأه. فكان وقع تلك الكلمات على نفسي، كوقع من سقطت عليه ورقة المليون دولار! . شعرت فجأة بأني أسعد كاتبة متفرغة، وأن ما يفصلني عن لحظة صدور كتابي هو «فقط» مسألة وقت! . والأهم من ذلك، أني لست مضطرة كي أترك ابنتي مع أحد.

بعدما استفقت من سكرة الفكرة، وجدتني أتحول شيئًا فشيئًا إلى لص محترف، يتحايل بكل ما وُهب من مكر وحيلة، لخلق الأجواء وتذليل الصعاب من أجل سرقة لحظات، هي كل ما أملك من الوقت، كي «أتفرغ» للكتابة! .

لقد أنساني التوق إلى الانعتاق والتعجيل بالشفاء أني متورطة في الطبخ المغربي، وفي تدريب الشغالات لأزيد من ثلاث ساعات يوميّا، وملتزمة بالرضاعة، وأني أبدأ يومي كالعادة، بالإرهاق! . يكفي أن أتذكر في الخامسة صباحًا أني سأفتح الباب للشغالة في الساعة المتفق عليها، حتى يطير النوم من عيني، خوفًا من أن أتركها وراء الباب، فتظنني ميتة أو مسافرة أو نائمة، فتقفل راجعة. فإذا حالفني الحظ، وضغطت الشغالة «بالراحة» على جرس الباب، ولم توقظ ابنتي من نومها، عدت إلى الفراش لخط بعض السطور. هذا إذا لم يتزامن وقت مجيئها مع انهماك ابنتي في الرضاعة، فيصحو صباحنا على البكاء، وهو ما يعجل بدخولي إلى المطبخ ورعاية شؤون ابنتي، واقتفاء آثار الشغالة، من أجل صيد الوقت.

في غمرة الأحداث الخانقة، صرت أستغربُ لكوني أستطيع أن أجيب بسهولة عن تلك الأسئلة العسيرة والشهيرة، التي اعتاد بعض الكُتاب على طرحها في تحذلق كبير، وكأن الإجابة عنها أمر جلل وهي:

أولاً: «لماذا أكتب؟». فلا أرى جوابًا أسهل للرد على هذا السؤال، ما دام لكل كاتب أسبابه الخاصة، التي دفعته للكتابة!.

ثانيًا: «متى أكتب؟». وجوابه أبسط من سؤاله؛ لأن هذا ما أقاتل من أجله!.

ثالثًا: «كيف نكتب؟». وهو السؤال الذي لم أجد له جوابًا حتى الآن!، ليس بالمعنى الذي يقصده خبراء الأسلوب، الذين يَدْعُون الكاتب والمتأدب إلى إيجاد أسلوبه الخاص، وطريقته الفنية لقول الأشياء، ولكن بالمعنى الحرفي لمن يسأل صَارخًا: «كيف أكتب في ظروف تمنعني منعًا كليًا من الجلوس فوق الكرسي، من أجل الشروع في الكتابة؟!».

وقبل ذلك كله، كيف أجمع شتات أفكاري وهي مشتتة أصلاً بين الطبخ والعناية بابنتي وفرز ألوان الملابس لوضعها في الغسالة، وطماطم إيزيس العضوية التي انقطعت فجأة من السوق، وهي أساس بعض الأطباق المغربية، التي لا يمكن الاستغناء عنها، واللحم المفروم الذي يستلزم حضوري، وإلا ضحك الجزار على ذقن الشغالة، وعقلي المشغول بالغسيل، الذي إذا لم أنبِّه الشغالة إلى وقت انتهاء الغسالة، نسيَتْهُ بداخلها حتى يوم الغد!. أو تورطت أنا في نشره، وهو ما سيمنح الفرصة لابنتي كي تشرع في وصلة البكاء، إذا بقيت وحدها خلف زجاج البالكونة، وهي تراني أنشر الغسيل فوق المنشر!.

لذلك، وتحت وطأة كل الظروف المعادية للكتابة، لم أجد بدّا من ابتكار حلول سريعة لإنجاز الأعمال المنزلية، مع الحفاظ على جودة الأداء!. فما وجدت أنجع ولا أنسب من الدوران، ليس فوق سماء القاهرة، ولكن داخل المطبخ!. أدور وأدور وأدور، حتى صار شكله المربع دائريًا!.

أنتقل بسرعة جنونية ما بين المقلاة فوق النار، والبيض الذي أخفقه، والثلاجة التي أفتحها بمعدل خمس مرات في الدقيقة، والخضراوات التي تُشطف تحت الماء، وابنتي التي أتحايل عليها ببعض الحركات البهلوانية لإضحاكها، وهي مستلقية فوق العربة عند باب المطبخ، ومراقبة الخبز في الفرن، وملعقة الزبادي التي تتعمد ابنتي إسقاطها، وإلا غضبت إذا لم أعدها إليها فوراً بعد غسلها وتنشيفها، وتقشير البصل، وسلة المهملات

ومسح الأرض بالطرق البدائية، اختصاراً للوقت!، والغناء والرقص، وإلا هددت الصغيرة بالبكاء، فحكمت عليَّ بالخروج المبكر من المطبخ!.

لكن من كان يظن أنَّ من دوخة الدوران، تخرج الأفكار؟!!!.

نعم، في عز الدوران، وأنا أبشر البارمجان، أو أنقي العدس، أو أقطع السبانخ، أو أتبل الكبد بصلصة «الشرمولة» المغربية. تتساقط عليَّ الأفكار المهدِّدة بالفرار، فأهرع إلى أقرب «مركز» أو «نقطة»، كي أفتش عن قلم وورقة!. والتي غالبًا ما تكون فاتورة كهرباء، أو هاتف، أو غاز، ما دُمْتُ سأكتب فوقها، بيد ملطخة بالقسبرة أو صلصة الطماطم!. لأن أقصر الأعمار عمر الأفكار، فقد تموتُ في المهد أو حتى في السماء، إذا لم أبادر بتدوينها لحظة ميلادها. ثم أعود بسرعة البرق إلى نجدة ابنتي، التي ظنت بأن أمراً جللاً قد حل بأمها!. هذا إذا كانت أصلاً في مزاج يسمح لها بتقبل ضوضاء المطبخ، وإلا فإني أكون مضطرة لتأجيل موعد الطبخ حتى تأذن لي سمو الأميرة!.

بعد انتهائي من لعبة الدوران «المسلية» داخل المطبخ، غالبًا ما تكون الظروف ملائمة لممارسة رياضة الركض أو الهرولة في فضاء الشقة الواسعة!. وذلك من خلال التنقل السريع بين الغرف والحمامات والبالكونة، فضلاً عن الزيارات المفاجئة للمطبخ، من أجل مراقبة الطبخ فوق النار. ورغم انسياقي مع هوى الطواف، إلا أني لا أنسى أبدًا هدفي: إنهاء ما يجب إنهاؤه قبل أن يُرفع أذان الظهر، الذي يكون أحيانًا عاملاً مساعداً لإيقاظ ابنتي، أو قبل أن تقترب عقارب الساعة إلى الواحدة والنصف بعد منتصف النهار، حيث الموعد اليومي لسماع كونشيرتو العزف على آلات الكلاكس!، في شارع عبد المنعم رياض، الغاص بموكب السيارات.

حينئذ، إذا لم أكن قد نجحتُ في انتزاع بعض الوقت للكتابة خلال نوم الغالية، أشعر بالهزيمة النكراء وأعترف، كما لم أعترف من قبل، بأن العوامل الخارجية، والظروف المعاكسة لإرادتي؛ أقوى مني ومن استماتتي!.

أما إذا تساءلت بعد أن تكون الحبيبة نائمة: هل أرتاح قليلاً، أم آخذ حمامًا!، أم أسوِّد فكرة، أم أغامر وأفتح البريد الإلكتروني وأتورط في القراءة والرد، أم أزج حاجبي؟، أم أواصل تعليم الشغالة كيف تغسل المواعين بهدوء وروية، وكيف تتعامل

مع الأشياء برقة و«حنية»، وكيف لا تهوي بثقلها على مؤخرة قدميها وإنما على أصابعها، حتى لا توقظ الأميرة النائمة. حين تخطر على بالي هذه التساؤلات وغيرها دفعةً واحدة، ولا أرسو على واحدة منها: أنفضح أمام نفسي، وأعترف بأني منهكة، وأن عقلي غير مهيأ، لا للتركيز ولا للتفكير في شيء. لحظتها ينتهي يومي في عز الظهر!.

هكذا يضيع اليوم في غالب الأيام. فأزداد توترًا وحسرة على الوقت المهدور في أعمال البيت المعتوهة؛ والتي رغم عتهها، تستهلك مني طاقة القيام بالأعمال الكبرى، ما دامت تحول دون إنجازها!..

لكني إذا استسلمت للظروف المعادية بالنهار، فلا أملك إلا أن أثأر منها في الليل!، مقابل أن أزهد في النوم والراحة. فبعد أن تقيلني الصغيرة من إحدى فترات الرضاعة الليلية، وأمارتها تقلبها إلى الجهة الأخرى، وأتأكد من أنها لن «ترجع في كلامها»، أنسحب فورًا وبكل هدوء وحذر، مسافة شبرين أو يزيد، لأخرج ورقة كنتُ أعددتها مسبقًا، لأكتب عليها تحت الضوء الأخفت من نور الشمعة، الذي بالكاد يسمح برؤية ما أكتب، أو تحت ضوء الهاتف المحمول!. أما إذا استشعرت إرهاصات حركة أو تململ ما، واصلت الكتابة تحت البطانية، كيلا أساعد القدر على إيقاظ الحبيبة!!!.

وحين لا يبقى لي شيء أو أحد أعاتبه!، أعاتب مخترع ذاكرة الهاتف المحمول، الذي لم يزودها بطاقة استيعابية أكبر!. بعدما حوَّلْتُ هاتفي إلى أسرع وأصغر لاب توب في العالم!. فلولاه لضاعت نصف أفكاري وملاحظاتي. رغم أنها، سامحها الله، كانت تضطرني إلى التخلي عن بعضها، حين تُشهر في وجهي دون رحمة أو شفقة: «ذاكرة المحمول لا تكفي.. أو ممتلئة»!. لذلك وحفاظًا مني على وسيلتي الأهم في التدوين، أعمل جاهدة على إفراغ فائض الإنتاج على الورق، حين يدركني الصباح، هذا إن أسعفتني للانوران وأمهلتني مدة تكفي لعملية التفريغ، وإلا ضاعت الأفكار الرقمية!.

وكم ضحكت على كل من كان ينصحني في تحذلق، بأن أفتح اللاب توب مثل كاتبة عصرية، وأجلس فوق المكتب لأخزن بكل شياكة وأريحية روائع أفكاري السنية، حتى بدأت أشك في نوايا الناصحين!. لكني سرعان ما كنت أعذرهم؛ لأنهم لا

يستوعبون أني لا أملك خمس عشرة دقيقة، للتصرف بحرية في المكان والزمان، فبالأحرى أن أضيعها في فتح اللاب توب!!!.

لم يغب عن بالي وأنا أقاتل من أجل الكتابة، أن أقارن حالي بحال أبسط مبتدئ في دنيا الكتابة، لأشعر بالتفاهة والغبن للفرق المضحك بيني وبينه، فقط لكونه لا يصول ولا يجول مثلي، في ربوع مملكتي بين الثلاجة والغسالة!. فيما يكون هو، أو أسد الرواية، يفترس غرفة مكتبه بخطوات ثاقبة، متربصًا بفريسته، الفكرة، في عتمة اصطناعية، فارضًا على أهله الصمت والسكون؛ توقيرًا لطقوس الكتابة وتبشيرًا بلحظة النزول، وكأنه راهب يتعبد في رأس دير!. وما أن تسقط بين يديه، حتى يشهر سيوف النصر!.

كم كانوا يبدون سعداء، ماجدين، سماويين، وهم يتحدثون لنا بكل أريحية وانتشاء عن طقوسهم الخاصة أثناء التعزيم على ديك الشعر الجني، أو حورية الرواية البحرية، أو وطواط القصة القصيرة!، ولو كنت أعرف على حساب من «يعزمون» لضحكت حينها أكثر وأكثر!.

ما أحلى أن يجلس أحدهم فوق كرسي الكتابة ما طاب له من الساعات، مطمئن الحال، هادئ البال. ليفقه ما يقرأ ويتعلم صنعة الكتابة، ويشتغل على أدواته ويسبر مواطن ضعفه، ويحسن أساليب قوله، ويلمع ألفاظه، وينمق كلماته، ويحرق مراجعه، إذا كان لصّا محترفًا، ويحضر حججه، لتنهال عليه الدعوات للكلام في المنابر والندوات!. وكيف لا يتأتى له ذلك، وهو يعيش ضيفًا زائرًا على الدوام في عقر بيته؟!. وكيف لا يلمع ولا يتلوذع وهو لا يشغل باله بأعمال البيت، أو التسوق أو العناية بالأبناء؟!.

ليست مجاملة لدور النساء في حياة الرجال أن يُقال لهن: «وراء كل رجل عظيم امرأة»، بل هي شهادة اعتراف حقيقية، يقدمها الرجال في حق زوجاتهم. فلم يسبق لي أن لمست نفاقًا أو كذبًا من قبل مبدع، وهو يشيد بدور زوجته في حياته الإبداعية. وليس إطراءً لهن، أن يُهدوا إليهن أعمالهم الخالدة، لو لم يكن دورهن في حياتهم، هو سر خلودهم!. فلولا فضلهن عليهم، لما رأينا ملامح التفكر والتدبر والقلق تشق جبين بعضهم، ولما فتننا أحدهم ببوهيميته المتمردة!. أو حَمَّلنا همه الثقافي والسياسي

وغيرها من الهموم التجريدية، ما دامت الهموم الحقيقية، هي ما تحملها وتتحملها عقيلته نيابة عنه!!!.

من البديهي القول، بأني لا أعني أولئك الماجدين الذين وقفوا، ويقفون في وجه السفافيد الموجهة صوب أعينهم، على حد تعبير المفكر السوري الدكتور طيب تيزيني، الذين لا يخافون في قول الحق لومة لائم. والذين عُذبوا ولوحقوا وتوبعوا في سبيل التغيير والتنوير، دون أن يفكروا لحظة واحدة، إن كان النائمون يستحقون نضالهم وكفاحهم واغتصاب زهرة أعمارهم، سواء داخل السجون أو خارجها، من أجلهم!. بل المجد لهم. وكيف أعنيهم ومنهم من يصارعون الموت يُسرة ويقاومون المرض يُمنة، في سبيل إطالة عمر الحق والعدل بين الناس، حتى يبقى للحياة معنى. ولكن أعني كل متسلط، مدع، متفرغ في الفراغ، ورغم ذلك لا يتحفنا إلا بأعمال رديئة!.

لولا أن مررت من تجربة الاستماتة من أجل الكتابة، لكدت أن أصدق تلك الإشاعات التي يطلقها المشككون في كفاءة وقدرات النساء الإبداعية، متجاهلين الظروف المحدقة بحياتهن اليومية، متناسين أن أكثر من ستين في المائة من جهد النساء الفكري والعقلي، يذهب هباءً منثوراً في أشغال البيت المعيقة لكل تطور أو إبداع بشري!.

فبدلاً من أن تمضي المرأة وقتها في التخطيط لإنجاز أحد مشروعاتها الفكرية أو الإبداعية، والعمل على تحقيقها، فإنها تقضي بياض أيامها ولياليها في التفكير في طبيخ الغد وعزومة نهاية الأسبوع، ومذاكرة الأولاد، وإدارة البيت، وترشيد مصروف البيت. الأمر الذي دفع سادة الكلام إلى منح المرأة بعض المجانية، مثل: معالي وزيرة المالية ووزيرة التخطيط وأحياناً وزيرة الداخلية؛ حين يعلن الزوج في الملأ بأنه محاصر من قبل زوجته، على سبيل «الفكاهة»!. لكنها مع ذلك، لا تجني من ورائها سوى ضريبة المسمى الوظيفي!، ما دامت لا تتقاضى عليه أجراً!، ولا تتمتع بحصانة من وراء تسلمها تلك الحقائب الوزارية الوهمية!!!.

لا وقت كاف للمرأة، كي تبدع خارج صينية البطاطس!. ولا وقت لديها للتأمل والتدبر والتفكر والتحليل وسن القوانين وابتكار الأعراف لصالحها!. لذلك تضطر أحياناً، إلى الاستعانة بطنجرة الضغط، لسلق وصفاتها الإبداعية، طالما أن المطبخ

يستأثر بالوقت اللازم لطبخ الكوارع والمحشي، على نار هادئة! . فكيف لا يتباهى عليها شقيقها المبدع، بأعمال مطبوخة فوق نار مهيلة، مشربة بصلصة الراحة الروحية، متبلة بنكهة الذهن المصفى؟ . ولمَ لا يعدد في كامل الدعة والزهو أخطاءها اللغوية، لتتفيه جهودها الإبداعية والفكرية؟! .

حتمًا سيكون من السذاجة بمكان، أن نحصر مشكلة المرأة المبدعة في قلة الوقت أو استحالة تفرغها من أجل العمل الإبداعي، إذا كانت ربة بيت . لا سيما إذا كانت المشكلة الحقيقية التي تواجهها، هي التي تحول أساسًا دون خروج عملها إلى النور! . بحيث يغدو عامل الوقت تافهًا أمام القوة الرادعة لإرادتها، المحبطة لأعمالها . والتي تتمثل أحيانًا في رغبة الزوج، الذي يعارض بشدة أن تخلد زوجته اسمها خارج المناديل المطرزة! .

فكيف تبدع في ظروف مواتية وهو لا يألو جهدًا في خلق القلاقل والمنغصات وشن الحروب النفسية عليها، كي تكف عن الكلام خارج مطبخها! . وإذا لم يفلح في تحقير طموحها والتشكيك في كفاءتها وزعزعة الثقة بنفسها، فإنه يشهر ورقة الطلاق الحمراء في وجهها، ليفاضلها بينه وبين الكتابة! . وهذا ما حدث مع الكاتبة والمفكرة الكبيرة الدكتورة نوال السعداوي، التي اختارت الكتابة .

أما إذا كان الزوج يتأذى من ذكاء زوجته وأفكارها، فإنه يشترط عليها أن تتزامن عملية إبداعها مع أنشطة الرقابة «الذاتية»، التي سيتكلف هو بممارستها على كل كلمة أو جملة أو فكرة قد تزعجه أو تستفزه أو يظن أنها تعنيه! . لذلك سيتوجب عليها، أن تتنازل عن حقها في التفكير والتعبير، إذا أرادت أن تُسمع صوتها وتُقرئ أفكارها . وهكذا يصبح الزوج هو الرقيب الأول على أعمال زوجته الكاتبة! . ثم يأتي من بعده أخوها وأبوها وابن عمها وآخر ذكر في قبيلتها! . كما صرحت الكاتبة والشاعرة اليمنية نبيلة الزبير، في إحدى حلقات «مبدعون» .

العجيب أنه في مقابل ممارسة الزوج سلطته القمعية على زوجته المبدعة، لا تكون للزوجة أدنى سلطة اعتبارية على بعلها المبدع، لمساءلته أو انتقاده أو ردع شطحاته الإبداعية، إذا ما استفزتها كلمة أو جرحت مشاعرها عبارة! . والحديث هنا عن بعض الكتاب والشعراء، الذين لا يكترثون لمشاعر زوجاتهم وهم يصفون لقرائهم، خلواتهم

الحسية مع عاشقاتهم الوهميات، إن في قصيدة أو رواية أو قصة قصيرة، بدعوى حرية الإبداع!!!.

فهل معنى ذلك، أنهم لا يزالون يعتقدون أن عشق الرجل ومجونه الخيالي، فحولة وفروسية؟، بينما كل ما هو أنثوي معرة وعورة، يجب ستره حتى لو كان ما تبديه المرأة نتاجًا لمجهودها الفكري؟!.

سيبقى السؤال معلقًا حتى يجيب عنه أحد أولئك الشجعان، الذين يدافعون بكل صدق وأمانة عن إنسانية المرأة، نبلاً منهم وعدلاً؛ لأنه لا يدافع عن حريتها وراحتها إلا رجل قوي، واثق من نفسه. لا يؤذيه ذكاؤها، ولا يضيره إن خلدت زوجته أو حبيبته أو زميلته، اسمها خارج أعمال البيت الفانية!..

***

٤/ ١/ ٢٠٠٥م

تاء التوفيق

رغم أن وصايا الأمهات للصبايا لن تزيد شباب القبيلة، إلا عجرفة أنستهم بشاعة أشكالهم وهم يخزنون القات، الساق جنب الساق، أو يدخنون الشيشة أمام الشاشة، أو يتراكلون هنا وهناك، إلا أنهن سيواصلن مسيرة بناء أجيال طيبة الأعراق من البنين والبنات. يعلم كل فريق منهم وظيفته ورسالته في الحياة!. فبينما ستُلَقَّن البنات مبادئهن الأولى في الحياة: الخدمة والطاعة؛ سَيَنْفُذُ الأولاد، أمل الأمة بالدعاء، وحُماتها باللسان، إلى أقطار السماوات والأرض!.

إن استيعاب البنات لدرسهن الأول لن يكون نهاية المعرفة، وإنما بدايتها وتربتها الخصبة، التي تزرع فيها الأمهات المتمرسات، بذور وجذور العلاقة «السليمة!»، التي ينبغي أن تربط بين الإناث والذكور من المهد إلى اللحد!. إنها علوم وأسرار الخلطة السحرية، التي ستجمد الماء في القنينة، ليس بتعزيمات الساحر المغربي!، وإنما بما هو أدهى: الحيلة!.

«الحيلة أحسن من العار»، كما يقول المثل المغربي، أي أحسن من المواجهة والصراع!.

لذلك ستوصي الأم الذكية ابنتها الغالية بالحيلة، كخير وسيلة لاتقاء شر الرجال، الذي يعادل غدر الزمان. ستنصحها بإظهار أكبر قدر من الغباء والسذاجة والضعف والهبل والبله والاستسلام والجبن. وذلك حتى يشعر الذي به مرض أو نقص ما، بأنه ذكي، قوي، مقدام.. إلخ.

وهكذا ستسند كل الصفات الإيجابية والعبقرية والبطولية للذكر، حتى لو كان في الدرجة الصفر من سلمها!، بينما ستسند إلى الأنثى صفاتُ الجبن والاستكانة والهزيمة، أي كل ما تتظاهر به، حتى لو كانت في أعلى السلم!. لهذا السبب لم تكن تأبه تلك

الطبيبة لزوجها، حين كان يناديها أمام أبنائها وأيضًا أمام الضيوف: يا حمارة! . لقد كانت تعمل بنصيحة أمها! . ولو لم تكن تدرك بخبرتها وفطنتها، أنها تعيش مع رجل يستطيب تلفيق سوء الألفاظ وقبح المعاني لزوجته، حتى يزداد ثقة بنفسه، لما تبرعت عليه بجَلد ذاتها! .

لكن، يا ليت لو كانت الحيلة تفي بالغرض دائمًا، وتكفي شر الوقوع في العار، هذا إذا لم توقع صاحبها فيما هو أعر! ؛ ذلك لأن الأم المقتنعة بضرورة تقمص الأنوثة دور الغباء والضعف والعجز، لا تدري أنها تمنع ابنتها من حق الدفاع عن نفسها، إما بحجة أن المعتدي أخ صغير، أو أنه ذكر يجب تعظيمه وتوقيره، حتى لو كان ظالمًا! . لذلك سيُمنح وحدَه الحق في الهجوم والاعتداء، وأيضًا تدريب عضلاته في جسد أخته! ، فيما ستُحرم هي من شرف الدفاع عن نفسها وعرضها وكرامتها . وإذا كانت تعشق فنون الدفاع عن النفس، ستحرمها من ممارستها، بحجة أنها ستجد دائمًا من «يدافع» عنها، بصفتها أنثى! .

وهكذا سيضمن كل ذكر، صغيراً كان أم كبيراً، نشوة الإحساس بالنصر والفوز في حضرة الضعف الأنثوي المضاعف! . ما دامت لن تَرُدَّ الركلة أو الصفعة أو البصقة، لتكتفي بالبكاء والانزواء في أحد أركان البيت . وليزداد هو غروراً وعنترية، أمام مرآته المحسنة للعيوب!!! .

لكن مهمته لن تكون سهلة كما تتخيل الأمهات، إذ يجب عليه أن يدعو ربه ليل نهار، كي يكفيه مواجهة الأقوياء والأذكياء، حتى لا يفضحوا زيفه، يوم لا ظل فيه إلا لظل الحقيقة العارية! .

ومثلما يقول المعلم المخلص لتلميذه الغشاش: «إنك لا تغش سوى نفسك»! ، يمكن قوله لمن يستقوي على الضعيف ويتذاكى على حساب جهل المُجَهَّلين أو الجاهلين . كلاهما لا يفلح حيث أتى! . لأن من نشأ على ثقافة اضطهاد المستضعف وهزم المهزوم، لا يملك إلا أن يستسلم وينسحب من ساحة المعتدي، إكبارًا وإجلالاً وتعظيمًا لقدراته الفتاكة، عملاً بالمثل القائل: «كن أسدًا وكلني» .

أليس هذا ما فعله بعض «حماة» الأمة و«قادة» الكلمة، حين تساءلوا عن جدوى حمل السلاح والدفاع عن العِرض العربي في العراق؟ . بل إن منهم من ارتد عن

مبادئه، حين جعل من الاستسلام حكمة وشرفًا، ومن المقاومة تهورًا وعارًا!. مصداقًا لمثلنا: «الحيلة أحسن من العار»، الذي كانت تلقنه الأمهات للبنات، تحت مباركة أبوية ورؤية ذكورية. نفس الحكمة ونفس التقية، وإن اختلفت المواقع والأدوار!. لذلك ستبقى المواجهة العدوَّ اللدود للحيلة؛ ما دامت لا تحسن سوى المواربة والالتواء والتلفيق والتمويه، وإيغال الرأس في الرمل، لحظة الحسم والبأس!.

ولا عجب أن يكون من شيَمها أيضًا إدانة الضحية المستضعفة وطأطأة الرأس أمام المعتدي. لذلك ستُذبح المغتَصَبة، وسيُصْفَح عن المغتصب؛ لأن قتل القتيلة أسهل وأجْبَنُ من قتل القاتل، بكل دناءة وخساسة!!!. أليس هذَا مَا تفعله جرائم الشرف، دفاعًا عن «شرف القتيلة»؟!!!.

أما التذاكي على الجاهلين، فلا يحتاج إلى بعد رؤية أو إجهاد عقل، كي نلمحه هنا أو هناك، وإنما يكفي أن نرى بعض مفوهينا «الأذكياء»، وهم يدافعون عن قضايا الأمة، من أعلى المنابر الرسمية والمحافل الدولية!، أمام نظرائهم، الذين واجهوا أنفسهم في المرآة الكاشفة للعيوب، قبل أن يكتشفها الآخرون!..

وحدهن الأمهات والفتيات سيكتشفن أن الحيلة والشطارة، لم تكن سوى مشروع خسارة!!!. سيكبر الفتى المدلل ومعه حلم العثور على الزوجة الخارقة أو شهرزاد الجنية!. كما ستبالغ الأم في نصح ابنتها بتزويد جرعة العناية بزوجها، دون الأخذ بعين الاعتبار حدود طاقتها البشرية!. لذلك ما أن تسقط في شهور الحمل الأولى، حتى تجد نفسها الأوْلى بالعناية والرعاية. وهكذا فإن الزوج الذي لم يتعود إلا على الأخذ، لن يفكر في العطاء، بل سيزيدها همّا وإحساسًا بالذنب. سيشكو عوزه وفقره إلى الرعاية والاهتمام وينقلب عليها، مثلما ينقلب الأطفال، الذين يحبوننا من أجل الهدايا، وما أن نكف عن العطاء حتى ينقلبوا إلى جهة أخرى، أكثر عطاء وتسلية!.

فجأة ستدرك الزوجة أن خطة الحيلة وادعاء ما فوق القدرة البشرية، لا تنفع وقت الشدائد. فمن أين لها بالصحة والنشاط حتى ترعى نفسها أساسًا، حين ستجد نفسها عزلاء من كل وسائل الإغراء والترفيه والمزاج الرائق!. وبدلاً من أن تفكر في همها وتعبها، ستعشعش في خيالها الوساوس... وكيف ستقي نفسها شر ما يدور في رأسها، وأمها علمتها في الصغر: «أن الرجل كالطفل لا عقل له»؟!.

لا شيء سيتغير ما لم يغيره أحد، تلك سنة الله في خلقه. ولن يتغير ما دام الطرف المستفيد سعيداً بإبقاء الحال على حاله!. ومثلما تعلمت التلميذة المجتهدة، التوفيق بين الواجبات المدرسية والأعمال المنزلية، بما فيها أعمال السخرة خارج البيت في منتصف الليل، فيما الذكور مستلقون أو يلعبون!، ستدخل الزوجة العائدة من العمل إلى المطبخ مباشرة، بكعبها العالي وحقيبتها اليدوية لا تزال فوق كتفها الأيمن. تسخن، تقطع، تعصر، تتبل، تحمص، تقلي، وهي لم تدخل بعد إلى الحمام!.

ستبذل الزوجة كل ما في وسعها كي يشعر رب البيت المنتشي فوق كنبة الاسترخاء، بأن كل خلية في جسدها تسبح بحمده وتقول له بصوت شهرزاد الجنية!: «راحتك روح راحتي. وكل ما أقوم به في حياتي خارج مملكة مطبخي، لا يساوي شيئًا أمام وجود الذكر في بيتي!. أنا الأغبى حتى لو كنتُ الأذكى!. ومهما بلغت شهاداتي العلمية مبلغًا عظيمًا، فأنا مدينة لك بموافقتك الكريمة على السماح لي بالخروج من البيت. أنت ولي نعمتي وتاج رأسي. لا تظن لحظة واحدة أني سأسمح لذكائي وحكمتي وكفاءتي المهنية، أن تهزأ أو تقرب من عرش سيادتك المعظم!. فمهما علت العين، الحاجب أعلى منها. أنت حاجبي وحجابي؛ إن شئت أسدلته وإن شئت أريتني النور والحياة!. تقاليدك مقدسة، تعاليمك مبجلة، مصلحتك موقرة، إسعادك أرفع مراتب سعادتي!. مهما كبر طموحي فطموحك أكبر، حتى لو كنت عديم الطموح!. ومهما أبصرت المنكر والباطل سأصمت؛ فلا لوم على الزوجة إذا سكتت عن الحق، مثل الشيطان الأخرس»!.

كلا، ليس هذا لسان حالها فحسب، وإنما لسان حال الأيدي والأرجل والعقول التي وجدت من مصلحتها أن تحكم عليها بالفشل الذريع، إذا لم تستطع الزوجة أن تجمع بين تاء التأنيث وتاء التوفيق!. لذلك لن تكون الأنثى عبقرية ولا ناجحة في حياتها، إذا لم تستطع أن توفق بين عملها خارج البيت وعملها داخل البيت!. أي إذا لم تشغل وظيفتين اثنتين طوال حياتها، منذ التحاقها بالمدرسة، وهي لم تُبَدِّلْ بعد أسنان الحليب، وحتى بلوغها أسنان التقاعد. وإلا اعتبرت فاشلة، عاجزة، تستأهل أن يبدلها زوجها بمن هي أخدم!!!.

هذا ما تروج له معظم الأقلام والأفلام ووسائل الإعلام. وليس فقط ألسنة الرجال هي من تهلل لتاء التوفيق، وإنما ألسنة النساء أيضًا!. والحديث هنا بالتأكيد، لا يخص الزوجة التي تستمتع بالسهر على راحة زوجها أو تكون منتشية وهي توفر له كل أسباب الترفيه؛ لأنها بلا شك تحقق ذاتها في خدمته، دون تبرم أو شكوى في مجالس النساء الخاصة!؛ أي أنها راضية وسعيدة بدورها. وهذا قطعًا، ما نتمناه لكل إنسان على وجه الأرض.

لكن هذا لا يمنع من وجود نساء واعيات، بأن الظروف لا تسمح بالمجاهرة والمطالبة بحق المرأة في الراحة أو مشاطرة أعباء البيت مع زوجها، أو باقي الذكور في أسرتها، لذلك لجأت إلى الحيلة بدلاً من العار، أي المواجهة، ما دامت لا تزال في بداية نضالها من أجل تعليم البنات وعمل النساء خارج البيت!. فكيف تتهور بمطالبة العون من شباب ورجال، لا يزال معظمهم يعتقدون بأن الأنثى خلقت أولاً وقبل كل شيء من أجل خدمتهم!. لذلك ستواصل أسلوب التحايل لانتزاع حقوقها حتى ممن يدَّعون تحريرها!، في بعض الأحيان، حين يكونون هم أنفسهم من يصرون على استعبادها!. تمامًا مثلما يتحايل المتحايلون على انتزاع حقوقهم السياسية، ممن يستأثرون برفاهية السلطة. إنهم مرآة بعضهم البعض!!!.

ولا عجب أن تبلغ تاء التوفيق ذروة تحايلها، حين ستحذف عن «طيب خاطرها» من القاموس العربي تاء التأنيث، كلما تعلق الأمر بالوظائف التي ستشهد للمرأة بكفاءتها الفكرية والعلمية والقيادية، فقط، كيلا تُحرج أو تُشعر شقيقها الرجل، بقدرتها على مساواته في مختلف مجالات الإبداع والإنجاز، خارجَ البيت والمطبخ!.

وتشجيعًا لها على أخذ مبادرة الإلغاء والإقصاء، ستجد عدة أطراف تساندها وتبارك خطواتها، بدءًا من مجمع اللغة العربية، الذي سيبدي انفتاحه ومرونته إزاء بعض الكلمات الإفرنجية، حتى لو كانت صريحة العُجمة، مثل وردية، وورشة، ليحذف تاء تأنيثها، إذا كانت وزيرة أو رئيسة تحرير، أو مديرة، أو قاضية، أو عميدة، أو قائدة، أو أستاذة جامعية.. إلخ.

كما ستبدي بعض وسائل الإعلام العربي تفهمها لخصوصية المتلقي الشرقي، الذي قد يكون في وضعية مريحة، إذا ما بُترت تاء التأنيث، حين يتعلق الأمر بالمناصب المهمة

والسامية التي تشغلها بنات جلدته! . لكنها في نفس الوقت، أي وسائل الإعلام، لن تمانع في الترحيب بوزيرات وسفيرات، ورئيسات غربيات وآسيويات، على أثير إذاعاتها وشاشاتها التليفزيونية، دون بتر أو حذف! . وكأن التاريخ الشرقي والعربي والإسلامي، لم يجُد قبلهن بملكات عظيمات، قبل أن تجود الحضارة الغربية بوظائفهن السامية، المتوجة بتاء التأنيث! .

* * *

٢٠/١/ ٢٠٠٥م

شرف الإطاحة بالشرف

«البنت هي التي تبكي يا حمار! . اضرب أختك، اركلها، ابصق في وجهها، اصفعها، افعل فيها ما تشاء، فأنت رجل البيت الثاني، وولي أمرها! . كسر لعبتها، خذ القسط الأكبر من اللحم ، بعثر ما كان منظمًا، وسخ ما كان نظيفًا، لا تخو الماء وراء بولك! . أتحفنا بعسل أذنيك، لا تغسل رجليك قبل النوم! . أطلق عنان مخالبك ووبرك للقذارة! . انهق في وجه زوجتك . أسمعها تجشؤك . انفض يديك فوق الطعام . نق أسنانك من فضلات اللحم أمام ضيوفك! . أطربنا بسُعَالكَ ونحنحاتك . كسر الباب وراءك واهرع إلى أحبابك . تشرد معهم، مثلما كنت صغيراً . ثم همْ على وجهك في البراري . وإياك ثم إياك من الوداعة والتلطف والرفق وإلا نُعتَّ بما لا يليق بمقام الرجال! . فكلما ازددت غلظة وفظاظة؛ هفت إليك قلوب النساء، وارتفع قدرك في مجلس الخشونة»! .

كلا، لا تخجل من هذه الوصايا يا من تلقيت إحداها! . ولا تنظر إليها كما لو كانت سبة أو وصمة عار أو نقطة سوداء في التربية التي نشأت عليها؛ لأنك حتمًا ستتعاطف معها، وربما ستلقنها لأولادك، إذا ما تأكدت بأنها أقوم نهج وأفضل وسيلة للدفاع عن أعز ما تملكه: الشرف! . فَمَنْ غير الأبطال، الأشاوس، الأشداء، الصناديد، قادر على حماية العرض وشرف الأمة وحرمة المقدسات؟!!! . فما دام للشرف حماته، يهون الهوان وتحلو الركلات والإهانات، طالما أمَّنَتْ تكاليف حراسته الباهظة!!! .

هكذا كان رأيي واعتقادي، الذي لم يكن لينشق عن رأي الجماعة، لولا أن رجرجته أم طه من خلال ما حكته لي هذا الصباح، بحيث جعلتني أعيد النظر في «مسلماتي»، وأتساءل عن أمور ما كنت لأعيرها بالاً من قبل .

لقد أخبرتني بأن زوجها هجر البيت دون سابق إنذار، تاركًا لها مهمة إعالة ولدين وبنتين . طبعًا، دون أن يترك لها رصيدًا في البنك أو صدقة جارية! . سألتها: «أليس هو

الذي كان يكفر بعملك خارج البيت؟» قالت: «بلى»، قلت لها: «وكيف صبأ بين عشية وضحاها؟!». لكنها لم تكن مستعدة للبحث عن الجواب أو الخوض في التفكير، لذلك رُحت أفتش عن أمثلة أخرى مشابهة، لعلّي أجدُ الشيء الذي أبحث عنه!... نعم، فجأة وجدتني أبحث عن شيء لا أعرفه!...

خطر على بالي مثال أم أحمد، التي كان زوجها أيضًا يعارض شغلها خارج البيت، ولكن حين ألقى بنفسه في السجن، صارت تحرم أولادها من اللحم، كي تشتري له «خرتوشة الهباب» وغيرها من كماليات السجناء عند كل زيارة. ثم استحضرت مثال أم الخير، التي يهددها زوجها بترك البيت، إذا ما ألحت عليه كي يعود إلى العمل. وأخيراً تذكرت أم دعاء التي يفضل طليقها أن يشتري لنفسه ما «يُعدل مزاجه»، على أن يدفع ثمن الدروس الخصوصية لابنته الصغرى، أو يشتري حذاء لابنته الكبرى بمناسبة العيد السعيد.

أعلم أنها قصص عادية جدّا، أو هكذا كنت أراها، لكثرة انتشارها في أسرنا العربية. وربما لو لم أتعرف على هؤلاء النساء عن قرب، وهن يشاركنني الوقوف في المطبخ، إما في فترة سابقة أو في الفترة الراهنة، لما استوقفتني. لكني لا أبحث هنا عن تلك الشكاوى المكرورة والمشكلات المملة كالنفقة وطلاق الخلع، وعقوق الآباء. ولكن عن شيء جديد، أحس وجوده بالحدس والفراسة، قد يكون قاسمًا مشتركًا بين هذه القَصص وغيرها!.

آه...! تذكرت!. لقد سألت أم طه عن الشرف!. قلت لها: «من سيحرس شرفه إذا غاب عن البيت؟». قالت: «يا ستي، ماحنا كبرنا». مع العلم أنها لم تتجاوز الثامنة والثلاثين. قلت لها: «وهل للشرف سن معين، أو تاريخ صلاحية محدد؟!».

لعل هذا هو السؤال المفتاح، الذي سيوصلني إلى ذلك الشيء الذي أبحث عنه... أف...!. ربما أكون مضطرة لإعادة النظر في مفهوم الشرف!.

عدت من جديد أتفحص عينة الأمثلة التي بين يدي، وما توالدت عنها من أمثلة عالقة في الذاكرة. فوجدتها تدور حول معان متقاربة مثل: التخلي، التنصل، الانسحاب، الإهمال، اللامبالاة، إلخ.. أي أن الذي كان مسؤولاً، فجأة يخطر على

باله أن يصبح غير مسؤول! . وبذلك يُعرض حارس الشرف شرفه و هو "أعز" ما يملك، إلى مصيبتين اثنتين: ذل الفقر وإذلال الاستغلال! .

إن مجرد التفكير في أن للشرف تاريخ صلاحية، يغريني بالبحث عن قيمته عند حراسه! فأستغرب كيف يظهر كالثريا في ليلة الزفاف، رافعًا رأس كل من ساهم بنصيحة أو رأي أو حوار رادع أو صفعة، لتأمين أفضل وسيلة لحراسته!، وكيف يخنس فجأة، وفي ظروف غامضة، بلا هيبة أو شأن، وكأنه ما كان؟! .

أليس هذا هو الشرف الذي يُقسم به الشباب والرجال، حتى الآن، كي نصدقهم؟! . أليس هذا هو الشرفَ الذي تُختن من أجله الإناث حفاظًا على الشرف؟! . فكيف يتخلى حراس الشرف عن أشرف مهمة في حياتهم؟ . أم أن للشرف أوان عز وأوان ذل؟! . لقد كنت أعتقد أن الشرف الذي تتباهى به العذراء تحفة قيمة، كلما أمعنَت في القِدَم، زادت في القدر. لكن يبدو أن المتاحف وحدها تقدر الأشياء القديمة! .

حين أخبرتني نعمة بأن أخاها يحاول أن يقنع خطيبته بترك وظيفتها، من أجل التفرغ لأعمال البيت بعد زواجهما. قلت لها: «ليتك تقرئيها سلامي، وتخبريها بـ«نبوءتي»: «سيتزوجان، ويرزقان بالولد الأول والثاني. ستبدأ الاحتياجات، بدءاً من علبة البامبرز أم ٦٤ جنيه، مروراً بإيجار الشقة أبو ٢٥٠ جنيهًا، وانتهاء بمرتبه الشهري الذي لا يتجاوز ٤٠٠ جنيهًا. علمًا بأن لا دخل له سواه. ستحتد الأزمة المالية، التي ستؤدي فوراً إلى فتور في المودة والمحبة بينهما؛ لأن شجارهما سيطغى على همساتهما! . ومع ضيق ذات اليد، سيضيق المكان، وقبله قلبُه. سيهرب شيئًا فشيئًا من البيت. سينسى شهامة أيام الخطوبة حين كان يقول لها: «أنا بغير عليك من النسمة، عشان كدة أنا عايزك تقعدي في البيت! . وكمان مش عايزك تتعبي، عشان بحبك! . وخليني أنا بس اللي أتعب وأشقى عشانك وعشان العيال». وفي السنة الثالثة، إذا طال عمر المودة، سيلحق بكوكبة البواسل، الهاربين من أقدارهم بخطى واثقة، يبحثون عن مسؤوليات أنبل من مسؤولية البيت، وأعظم من حراسة الشرف! . تاركًا وراءه امرأة فقدت وظيفتها، وأمّا لا تعرف كيف تعُول طفلين والثالث على

الأبواب!». بعد ذلك، دعوتها لإطلاق عنان خيالها كي تتخيل ما سيحدث لأبناء أخيها وزوجته المعلقة، حين «يتنازل» قائد السفينة العظيم عن دوره القيادي، في قمة العاصفة!!!.

ضحكت وقالت: «ولكن أخويا أنا طيب، مش ممكن يعمل كدة!». قلت لها: «وهل كان زوجك الأول شريراً عندما أحببته وأحبك؟». قالت: «لا، لقد تغير مع الأيام...».

نعم، هكذا تنتهي القصص على نغمة الناي الحزين، وإن بدأت على إيقاع الوحدة ونص!. دون أن تعرف العذراء كيف فقد شرفها مرتبة الشرف!. ودون أن يعرف أصحاب الشرف، بالوكالة، كم ضحت زوجاتهم، وكم عانين، وكم قمعن، حرصًا منهن على تقديم ما يعتبرنه، أغلى هدية لأزواجهن في ليلة العمر!.

إنَّ العتب على القبيلة التي لا تلزمهم كما تلزمهم الديانات و الأخلاق، بمقاومة النزوات والشهوات، والوقوف في وجه الشيطان حفاظًا على شرفهم الخاص!. لذلك لا يثيبون على الهدية ولا يرعونها حق رعايتها، ولا يقدرونها حق تقديرها. بل يعتبرونها قربان التزلف إليهم، بوصفهم أولياء النعمة أو شهادة استحقاق لنيل شرف الإطاحة بالشرف!!!.

إن أكبر دليل على أن حراسة الشرف ليست عقيدة راسخة أو وظيفة حقيقية، وأنها مجرد وهم في مخيال العيّنة المذكورة؛ هو تنصل «حارس» الشرف، فجأة من مهمته الوهمية، ودخوله في حالة الإنكار القصوى!. بحيث لا يعنيه من أمر شرفه شيء؛ فبعدما كان ينتقي لنفسه من تراثه الديني ما يناسب أهدافه. مثل: «**النساء ناقصات عقل ودين**». والذي سيتعمد هو وأمثاله في كل مناسبة، أن يخرجه من سياقه ليُريد به تحقير النساء والاستخفاف بهن.

وبعدما كان يشيد بالأمثال الشعبية التي كانت ولا تزال تنصح الرجال أن يأخذوا الحيطة والحذر من النساء، نظرًا لما يعتورهن من ميل مع الهوى وسهولة التغرير بهن والإيقاع بهن في مصيدة الرجال؛ الأمر الذي يستلزم تشديد الحراسة عليهن وعقلهن كما تعقل الدواب!، فإنه في لمح البصر سيستبدل عقيدة بأخرى!. ليثبت لنفسه ولمن كان يخشى عليها من هوى الأهواء، أنه أشد هوى من هواها!!!.

سيلغي «الحارس الأمين» كل ما كان يُذكره بواجب الحراسة الوهمية، عملاً وأسوة بهاديته ومرشدته النعامة: «لا عين رأت ولا أذن سمعت»!. لا لشيء سوى لأنه وجد راحته وسلوانه في الاستقالة من وظيفته الشرفية!، راميًا بها عرض باب بيته ولسان حاله يقول: «للبيت رب يحميه»!!!. ليؤكد لنا من جديد، أنه حتى عندما كان يدعي حماية «بستانه»، وكان يتفيأ بظلاله، فإنه لم يكن «يدافع» سوى عن متعة جني ثماره؛ دون أن يتكبد أدنى مشقة في رعايتها والحفاظ عليها من النباتات الطفيلية!!!.

فأين هو يا ترى شرفه الخاص به، بعدما أضحى من غير شرف يحميه، عقب نوبة فراره؟!. وبأي شرف سيحلف، بعدما برهنت الإناث على أنهن الأحق والأولى بأن يحلفن بشرفهن، بدلا من بعولتهن وإخوانهن وآبائهن؟!.

نسيت السياق الذي قال لي فيه ذات لقاء تلفزيوني في أبوظبي، المفكر المغربي الدكتور عبد الكبير الخطيبي: «نحن العرب نحتاج معظمنا، إن لم يكن جميعنا، لزيارة طبيب نفسي»!. لكن سياق هذا الحديث ذكرني به!...

البارحة، وأنا أسأل سائق التاكسي عن زوجته إن كانت تعمل خارج البيت، وذلك بعدما علق على النساء اللائي «يتبهدلن» في المواصلات؛ نظر إليَّ عبر المرآة الأمامية بكل ثقة وفخر، قائلاً: «إحنا معندناش حريم يشتغل والكلام ده!».

فسقط جوابه في سمعي كالصاعقة، فاتحًا بصري لأول مرة على حقيقة جديدة؛ وهي أن عملية إقعاد المرأة في البيت؛ شيمة من شيم «المرجلة» وأمارة لسلطة الزوج على زوجته!.

إنها الإطاحة التي تُعلي من شأن الرجل أمام العشيرة!. وكلما علت وارتفعت قيمة الوظيفة التي تشغلها الزوجة، علا وارتفع قدر الإطاحة!!!.

جواب سائق التاكسي أنار طريق بحثي حول قيمة وقدر الشرف عند حراسه. ونبهني لأول مرة إلى أن علاقة أمثاله الطيبين بالحريم، هي علاقة إطاحة!..

وبناءً عليه، فإن قيمة الشرف التي كنت أسأل عنها، كلما لاذ أحدهم بالفرار، تاركًا بستانه للنباتات الطفيلية!، لا تعدو أن تكون مجرد لحظة، تقاطعت فيها حياة فتاة قاومت الشيطان، بحياة فتى، انتظر فرصة كي يحظى بشرف الإطاحة بالشرف!!!.

***

٢٧/ ١/ ٢٠٠٥م

الفراغ المقدس

كنت كلما رأيت أولئك الشباب والرجال مرابطين في المقاهي بالساعات الطوال. تساءلتُ عما يمكن أن يفعلوه غير مراقبة الماشيات والعابرات بخائنة الأعين، خلف نظاراتهم الشمسية، أو صحفهم البالية. لماذا لا يتحركون؟، لماذا هم مُتَسمرون بلا معنى، معسكرون بلا جدوى؟، فيما الأسواق تغصُّ بالنساء المثقلات بالسلات والأكياس والشنط، والأولاد المجرورين والمحمولين، وفيما البيوت تمور بالحركة والعمل الدؤوب بين المطبخ والحمامات وغرف النوم والأسطح!.

ورغم أنني لم أكن أملك سوى نصف الجواب، وهي النسبة المائوية التي يمنحها طرح السؤال، كنت أعلم أنهم ينعمون بأريحية الفراغ. ولأني لم أكن أعرف بعد أن حياة معظم النساء، مكونة من ثلاثة أحرف، تمامًا مثلما وصفت القابلة جاكلين حياتها باللغة الإنجليزية، مضيفة إليها حروفًا أخرى، كي يكتمل معنى التعب، كنت أظن أن الرجال والذكور عمومًا، إيجابيون ومتفائلون بالفطرة، لذلك يخفون أثر الضحك والانشراح عن أعين زوجاتهم النكديات، أو أمهاتهم القلقات؛ متى ما اقتربت أرجلهم من عتبة البيت، مراعاة لمشاعرهن!. أو ليبرهنوا لهن أنهم كانوا يكدحون ويتعبون.. في سبيلهن!.

من أجل ذلك، وأسوة بأولئك الآباء والأزواج الحكماء، دأبت أنا وصديقاتي، خلال سنوات المراهقة السعيدة، بعد انتهائنا من المذاكرة، التي لم تكن تخلو من رقص وغناء ومرح، أن نرسم فوق وجوهنا الجميلة، ملامح التذمر والتأفف من كثرة المذاكرة، وشدة الإرهاق والتعب. بحيث ما أن تضع إحدانا المفتاح في خرم باب البيت، تأهبًا للدخول، حتى نقول بصوت موحد: «يا لله تكشرة الأزواج!».

مع مرور الأيام وكثرة الاستعمال، صرنا نكتفي بلغة الإشارة. إلى أن صار قناع التجهم عند باب البيت ارتكاسة تلقائية وطبيعية. تمامًا، مثل أولئك الأزواج وهم عائدون من «جحيم» العمل!.

ولعل هذا ما كان يقصده شاعرنا عمر الفرا، حين قال لزوجته في إحدى قصائده المرحة: «أعترف لك أن كل رجل ممثل»!.

كانت تلك ملاحظاتي وتساؤلاتي قبل أن أحترف مهنة الإعلام السمعي والمرئي، وقبل أن أرصد عن قرب عمل بعض الموظفين، ليس بهدف الفضول، ولكن بهدف فهم أسباب تلك الثغرات والعثرات التي كانت تعرقل سير عملي، المرتبط بعملهم، في بعض الأحيان. وكان من الممكن أن أكون مدعية أو مفترية؛ لولا أن وصفني أحد المسؤولين بأني «جدية وعملية أكثر من اللازم». وهو لا شك على حق، رغم أنه كان يقصد مذمتي!!!.

لقد كنت المسؤولة الوحيدة عن برنامج فكري وثقافي، لا يرضى بالمنطقة الوسطى. فكان من الطبيعي أن أقضي أربع ساعات وأنا جالسة في غرفة المونتاج، دون أن أتوقف عن العمل، ودون أن أبرح مكاني!. لدرجة انزعاج بعض زملائي، الذين كانوا يترجمونه بدعوتي إلى الترويح عن نفسي، على الأقل كي أستنشق جرعة من الهواء الخارجي!. ومع ذلك لم يكن يزحزحني من فوق الكرسي المتحرك، سوى ضرورة الذهاب إلى الحمام، أو لحظة طلب مشروب أو سندويتش، قبيل نزول السكر في دمي!. لأواصل بعدها مسيرة العمل لأربع أو ست ساعات أخرى. فكنت أدخل من باب التليفزيون إلى باب غرفة المونتاج أو باب غرفة الماكياج، قبل أن أدخل الأستوديو لتسجيل حلقة الأسبوع.

أما الكافتيريا ذات النوافذ الزجاجية المشرعة، الكاشفة عن أسرار ما يدور بداخلها لكل عابر لباب التليفزيون، والتي كانت تغص في معظم الأوقات بالرواد، لم أكن أدلف بوابتها، إلا إذا كنت على موعد عمل مع زميلي مخرج البرنامج. لكن هذا لا يعني أني كنت في حالة غيبوبة، حتى لا ألمح الوقت المهدور والفراغ الوفير حيثما وُجد. فقد كنت مدركة بأن عمل «بعض» الموظفين، لم يكن يتطلب منهم حبس

الأنفاس وملاحقة الوقت الهارب، والصراع من أجل الالتزام بمواعيد الشاشة، التي لا تقبل عذراً أو تأخيراً. وإلا ما تفسير ارتخائهم المطول فوق الكراسي القصبية؟!.

لقد تضافرت عدة قرائن وأدلة ومشاهد، لإعطائي فكرة واضحة عن طبيعة «الجهد المبذول» خلال ساعات العمل، وأيضًا لهدايتي إلى معرفة الشق الثاني من الجواب الذي كنت أبحث عنه.

فبعدما رأيت بأم عيني، أثر نعمة الفراغ على الذكور، وهم خارج العمل أو صفوف الدرس، سواء في البيت أو في أماكن ملء الفراغ، شاهدت أيضًا و بالعرض البطيء، كيف يتم استخراج وقت الفراغ من ساعات العمل، من أجل ملئه بالفراغ!!!.

ولم يكن عصيّا على العين المجردة أن تلحظ أولئك الموظفين وهم يطوفون بملفاتهم تحت آباطهم، أو بحقائبهم في أيديهم، ليوهموا زملاءهم بأنهم يقومون بعمل ما، أو أنهم من سلالة حَمَلة الهم الثقافي والإعلامي!!!. وكيف لا أشعر بمخلفات الفراغ وأنا أقوم بنصف عمل زميلي، وإلا قامرت بتأمين ضيف الأسبوع، الذي لا يمكن تعويضه، في آخر لحظة، ما دامت طبيعة البرنامج وضيوفه، تختلف تمامًا عن طبيعة برامج «الخيارات الثلاثة» أو برامج «الديوانيات» على الهواء!. ولولا تَطَيُّر زميلي من سماع صوتي المنذر بواجباته المهنية، وكأنها عقوبة معلم لتلميذ كسول، لما فهمت أن الفراغ في حد ذاته غاية تُرجى في الحياة!.

وهل من شرح لهروب الموظفين، من مكاتبهم بحجة أداء صلاة الظهر، سوى التوق إلى مزيد من الفراغ؟. فهل يعقل أن يستغرق وقت صلاة الظهر ساعة أو ساعتين وأحيانًا أكثر، بالرغم من أن المسجد قار وثابت وسط جدران مؤسسة العمل؟!. وهل على حساب تعطيل مصالح الناس وتعقيد حياتهم، «يخشع» المؤمن في صلاته أكثر من عشر دقائق؟!. وإذا ما ذكَّرْتَه بالتي هي أحسن، بأن العمل أيضًا عبادة، وأن الدين معاملة، حتى يبادر بإطلاق سراح معاملتك، قبل أن ينصرف إلى أداء «شعائر» الوضوء، ساعة قبل إقامة الصلاة، عبس وتولى أو اتهمك بالزندقة!!!.

ما معنى إذن تلك المكاتب الفارغة، إن لهذا السبب أو لغيره، والتي تجد فوق منضداتها، إن حالفك الحظ، ورقةً كَتب عليها الموظف رقم هاتفه المحمول، ليخبرك

بأنه يحتسي قهوة يومه (العاشرة)، تحت قبة الكافتيريا! . وحين تطلبه لأداء واجبه المهني، الذي يتوقف عليه واجبك المهني أيضًا، تكتشف أنه في بيته أو في مشوار خارج مؤسسة العمل! . فتتورع عن إحراجه، كيلا يشوه سمعتك بين العباد! . أما إذا كنت مجبرًا على «إزعاجه»، فإنه يعود متلكئًا متقاعسًا، وكأنه سيسدي إليك معروفًا أو سيفرج عنك كربة من كرب الدنيا! .

أليست جماعة الهاربين من كراسي مكاتبهم، رغم ارتفاع نسبة البطالة الرهيب، وجماعة «خرج إلى الصلاة ولم يعد» هي من تملأ المقاهي؟ . أليس هذا هو العمل الذي يشقى فيه «بعض» الرجال، خلال ساعات العمل؟! .

إن مجالات رصد الفراغ والتسلية أثناء أوقات العمل، واسعة ومتنوعة حيثما ولينا وجوهنا في ربوع بلادنا العربية . يكفي أن يشعر المواطن بأنه جاء يستجدي الصدقة من موظف مصلحة ما، أو جاء ليزعج راحته، أو حتى ليوقظه من نومه، أو يقطع عليه حبل الدردشة الطويل، كي نُقدر الجهد المبذول خلال ساعات العمل من قبل بعض الموظفين . ناهيك عن إرغام العميل على دفع الرشوة أو ذكر اسم الواسطة، كي تسير المعاملة! .

قد تكون هذه الأدلة البسيطة، كافية كي نقتنع بأن بعض الموظفين في بلادنا العربية، يعتبرون العمل فضاء لملء الفراغ، وفرصة لممارسة بعض هواياتهم المفضلة، مثل الدردشة واحتساء المشروبات الساخنة والباردة على مدار ساعات «العمل»، وتبادل نغمات المحمول، والتسلي عبر الإنترنت، وغيرها من وسائل «الفرفشة»! . أليست هذه الطقوس المرحة هي أحد أسرار إعراضنا عن صناعتنا العربية؟!!! .

ولا أدعي أن صفة التقاعس والتكاسل في أداء الواجب المهني، مقتصرة فقط على بعض الرجال، وإنما على بعض النساء أيضًا . لكن ما يميز بعضهم عن بعض، وهو بيت القصيد، أن الزوج العائد إلى بيته من «العمل»، سيتوجه مباشرة إلى الحمام، ومن بعده إلى غرفة المعيشة أو حيثما وجد التليفزيون، ليرتاح بعد التعب من الراحة! . بينما الزوجة التي كانت «تعمل» مثله، خارج البيت، فإنها ستدخل مباشرة إلى المطبخ، أي ستعمل! . وإذا كانا يعملان حقًا، وفق الضمير المهني، فإنها ستتعب مرتين . فيما هو سيتعب مرة واحدة، أي خارج البيت فقط! .

أما إذا كانت الزوجة، ربة بيت، تعمل دون أجر في بيت زوجها، فإنه سيتوجب على الزوج الذي كان مستغرقًا في الفراغ، أن يضع قناع التجهم والتذمر من العمل، حين سيصهل صهلة إفشاء السلام على زوجته! . وذلك من أجل تحسيسها بالذنب، لكونها «تتسلى» في أعمال البيت الممتعة، ولا تتعب مثله، خارج البيت! .

لذلك ستظن الزوجة الطيبة أن زوجها كان يذيب الصخر بالماء، أو كان يريق عصارة فكره ودمه في سبيل إسعاد البشرية والارتقاء بالإنسانية! . وبما أنها لن تعرف أن سر ذبول جفونه، وشحوب وجهه، وكثرة سعاله، يعود إلى إدمان شرب القهوة والشاي والتدخين وحرق السعرات الحرارية في المكالمات الهاتفية بالمجان، أو في الدردشات الحية والإلكترونية مع الخلان! ، فإنها ستخصص له صدر المجلس، ونصيب الأسد في اللحم والفاكهة، وسلطة التحكم في جهاز التحكم عن بعد. وغيرها من صلاحيات وامتيازات رب البيت العائد إلى بيته، عودة البطل إلى قلعته! .

ولن تفطن أبدًا أن الغالي ابن الغالي، يتعمد تسخيف دورها في حياته، وتتفيه جهودها في سبيل إرضائه وإسعاده، كي تبقى كجُند سليمان، الذين ظلوا في خدمته من بعد مماته! ، حتى لو كان بعلها لا شغل له في الحياة سوى «هرش» أصابع رجليه، فوق عربة مهترئة! . وتلك موهبة لا يملكها سوى الرجال: إضفاء طابع المهابة والقداسة حتى على أسخف الأعمال!!! .

سيبدو للزوجة التي لم تر زوجها يلعب ويمرح مع زملائه في العمل، كالأطفال، أو يتثاءب من كثرة الفراغ واختمار الكسل، أن كل ثانية في حياته مقدسة: نومه، شخيره، دخانه، جوعه، تفكيره في الخواء، شهوته، حمّامه، تشجيعه لفريقه المفضل في الملعب أو أمام الشاشة، فراغه.

لذلك لن تفهم أبدًا بأن تأمله لها، مبتسمًا أو مستهزئًا، وهي مهدلة الثياب، منكوشة الشعر، مشدودة الأعصاب مع الأولاد أو مع الشغالة: هو هبة الفراغ المقدس! .

سيكون لديه ما يكفي من الوقت كي يحتفظ بهدوئه وبرودة أعصابه ومهابته، وهو يشاهد إحدى المباريات الشيقة أو يتابع نشرة الأخبار في جلال تام، ويديه خلف رأسه.

كما سيكون في فراغ عميم، حين يعاتبها على صراخها في وجه ابنه الغالي، الذي تعبت من حمله ومداعبته، والرضوخ لأهوائه وأمزجته المتقلبة على رأس كل عشرين ثانية. لذلك سيعطيها درسًا نموذجيًا في فن التعامل مع الصغار، حين سيحمله لمدة لا تزيد عن عشر دقائق!. لكنه ما أن يشعر ببشائر التعب والتوتر، حتى يعيد إليها ابنها، متذرعًا بنداء الفراغ المقدس!.

سيكون لديه ما يكفي من الوقت والفراغ كي يتحايل على زوجته، حتى يورطها في المشاكل والمآزق. ويشغل بالها بالوساوس. ويدفع بها إلى مزالق الأجوبة المتسرعة والغاضبة وفلتات اللسان المتهورة، ليشتكي منها قبل أن تسبقه بالشكوى!. فتجد نفسها دائمًا متورطة في تبرئة ذمتها من ذنوب لم ترتكبها!!!.

***

٢/٢/ ٢٠٠٥م

لعنة الملائكة

إذا كان عصر مناطحة الوحوش المفترسة قد ولى، وإذا كانت الترسانات العسكرية قد كشفت عن صدئها وتآكلها؛ لأن السواعد القوية لم تفلح في صيانتها وتطويرها، فذلك لأن مفهوم القوة لم يعد يرتكز فقط على قوة العضلات؛ لأنها مهما بلغ انتفاخها وقويت ضربتها، فإنها لن تضاهي كبسة زر ذكية، إذا ما خطر على بال صاحبها أن يشن حربًا ضارية على القبيلة المعادية!. يكفي فقط ألا يضغط الجندي على الزر الخطأ، كيلا يصيب كتيبته الصديقة بنيران أخوية، حتى يُشعل بيت العدو نارًا ويعيث في بلاده دمارًا.

أما إذا أصر أبو السواعد المفتولة على تجاهل هذه الحقيقة المتجددة عبر العصور؛ فلا بأس عليه إن واصل افتتانه أمام مرآته، طالما لم تتعد حدود نفسه وضفة نهره. وطالما لم تَدّعِ نرجسيَتُه أن قوة عضلاته هي إكسير حياة من يدورون في فلكه!. وإلا وجب عليه أن يشرح لهم كيف سيغنمون من فيئها وغلاتها؛ إذا كان عاطلاً عن العمل، أو هاربًا من ساعات الدوام؛ أو ساطيًا على مال زوجته أو أمه؟. خاصة إذا كانت من يتباهى عليها بقوته ويتفاخر عليها بـ«فحولته»، هي من تخدمه بكل ما أوتيت من ضعف ووهن!!!.

ومن ثم وجب طرح السؤال: لأية غاية يربي عضلاته؛ في أي شيء يستثمر فراغه؟، لأي غرض يوفر صحته؟، كيف يوفق بين البطالة والقوامة؟. وغيرها من الأسئلة التي قد تبقى عالقة. لكن ذلك لا يهم، ما دام «طرح السؤال يكون أحيانًا أهم من الجواب». وهي مقولة دأب الفلاسفة على تداولها. وقد أضحكتني حين سمعتها لأول مرة من أستاذة الفلسفة، بعدما أَخْرَجْتُها فوراً من سياقها الفلسفي، حين تخيلت مجموعة من العامة، مثلي، يتساءلون سؤالاً وراء سؤال. ولا شيء غير السؤال، حتى صاروا يزايدون في طرح الأسئلة، إلى أن وجدوا أنفسهم قد تعدوا الحدود بطرحهم

السؤال السرمدي: «من هو ومن خلقه . . . ؟»، فاستغفروا ربهم، لكنهم عادوا لطرح الأسئلة ذاتها من جديد!.

أما أنا، فأسئلتي محددة، لذلك لن أتعدى الحدود!. اللهم حدود الثقافات والقارات بهدف الإبصار في الذات الأخرى؛ تخفيفًا لتضخم الذات أو العضلات!، لنرى إن كانت لها الوظائف نفسها في الثقافة الأخرى. والتي لن تكون سوى الثقافة الغربية، ما دامت لا تفصلني عنها سوى خمسة عشر كيلومترا. وهي المسافة الفاصلة بين مدينة طنجة في شمال المغرب ومضيق جبل طارق في أقصى جنوب إسپانيا.

طبعًا لن أدعي بأني سأحجز لنفسي مقعدًا في أول طائرة ترحل بي إلى قرطبة أو غرناطة أو مدريد، ما دُمت قد قمت بهذه الرحلات وغيرها، عدة مرات!. لذلك سأكتفي بالتذكر واسترجاع الانطباعات الأولى، التي كانت في وقتها، مفاجئة إلى حد ما لأفق انتظاري، حين رأيت ما رأيت. .

لقد رأيت أمرًا عجبًا!. رأيت سواعد الذكور تدور، وتدور تمامًا مثلما تدور سواعد الإناث في بلادي العربية!. بحيث لا تبقى مجرد أيقونة معلقة أو صنم ماثل عند مدخل البيت تتبرك به النساء، ويَسْتَمددْنَ منه القوة والطاقة وهن «يتسلين» بغسل المواعين، ويتلهين بتخريط البصل وبشر الثوم وفرك أوساخ الغسيل، ونشره فوق السطوح العالية، وتقفيز الرضيع حتى النوم.

والأعجب من ذلك، أن حتى السواعد المباركة التي كانت تغط في إجازة معتقة، حتى كاد يُصيبها الشلل والضمور!؛ عادت إليها الحياة والحركة، ليس حبًا في العمل، ولكن رضوخًا لثقافة: «اخدم نفسك بنفسك حيثما كنت، وإلا وخز الجوع معدتك، واشمأز الناس من وسخك»!.

هناك، لا يستطيع الكائن المدلل أن يوهم صديقته الغربية بأن لعب الورق، أو القفز فوق الكنبة تشجيعًا لفريقه المفضل أمام شاشة التليفزيون، أصعب أو أعظم من وقوف أخته أو أمه في المطبخ لساعات طويلة!. أو أن عضلات الرجل لا تُسعفه إلا على الجلوس «الاضطراري» أمام الكمبيوتر، لإجراء دردشات «هامة ومستعجلة» مع أصدقاء النِّت، ريثما يجهز العشاء!.

كما لن يوهمها بأن الله عز وجل قد منح المرأة قوة خارقة وقدرة هائلة على التحمل، بالرغم من صغر وضعف عضلاتها!، بحيث تستطيع العفريتة، أن تتمدد في كل الاتجاهات لمسح زجاج النوافذ من الداخل والخارج أيضًا، مخاطرة بحياتها، إذا ما زلت إحدى قدميها!. كما تستطيع أن تتقرفص وتركع وتمشي على أربع، فوق السجادات لفركها ودعكها بالفرشاة، ثم حملها أو جرها لمكان نشرها وقد تجاوزت القنطار!. كما يمكنها بفضل ما حباها الله من «جهد وصحة» أن تحمل طفلاً فوق ظهرها وآخر داخل بطنها، ثم تحلب بعد ذلك البقرة، أو تهرمش القمح في الرحى، أو تعصر الزيتون، أو تدلي بدلوها في قاع البئر لسقي الماء!، فيما يستمتع أبو السواعد بالتفرج عليها وهو يحتسي الشاي؛ لأنه لا يستطيع أن يفارقها طرفة عين!!!.

هناك لا يستطيع أبو العضلات المفتولة أن يدعي بأن «الاختلاف الصارخ» بين جسد الرجل والمرأة، هو الذي يمنعه من مساعدتها في أعمال البيت الجاحدة!، وإلا فضحته المطابخ الغاصة بالأزواج، الذين يحبون لأنفسهم ما يحبونه لزوجاتهم أو صديقاتهم!!!.

ولا يستطيع أن يكذب على صديقته الغربية، إذا ما حاول أن يفهمها بأن يده الكريمة لا تقوى إلا على حمل القلم أو الريشة أو القيثارة أو رمي الشيشة بالجمرة!، بينما يد حبيبته ستزداد جمالاً وحريرًا كلما عَرَّضتها للاكتواء بالنار أكثر، وهي تقلب صينية البابيلا أو تقلي السمك، أو تشوي الذرة فوق نار حامية!. أو أن أصابعها ستزداد نعومة كلما عَرَّضتها إلى ماء الكلور أو ماء النار أو مساحيق النظافة: «القوية على الدهون، الناعمة على الأيدي»!، مثلما تدعي بعض الإعلانات التجارية في حملاتها التضليلية!.

هناك لا يستطيع أبو السواعد البهية أن يضحك على ذقن زوجته، إذا كانت غربية، بادعائه أن حمل السبحة، سواء في البيت أو خلال «فسحة» التسوق الأسبوعية، هي أثقل عند الله في الميزان، من حمل ابنه الرضيع ذي العشرة كيلوجرامات، حتى يورطها في مهمة حمل الأثقال، بحجة أنها تعودت على حمله على مدى تسعة أشهر!.

كما لا يستطيع أن يجحف حق زوجته الرومية، إذا ما حاول أن يوهمها بأن قيامها بأربع وظائف على مدار الساعة والشهور والعمر: الطبخ، إدارة شؤون البيت،

الرضاعة، تربية الأولاد، دون أن تتقاضى عليها أجراً ودون أن تضمن ما يصون كرامتها إذا ما تخلى عنها، أو منعها حق النفقة على الأولاد، إنما ثمنه إطعامها وإيواؤها تحت سقف بيته!.

ولأني رأيت أكوام الحطب وقلل الماء والزيت وأزواج الماعز تمتطي ظهور البغال والعربات، بدلاً من ظهور النساء في بلادنا العربية!، فلا شك أن أبا السواعد الماجدة الذي ترعرع في البادية، إذا رأى ما رأيت، سيفهم لماذا بدا التعب والكبر والتجاعيد مبكراً على وجه وجسد أمه. ولماذا حافظ والده على صحته وهمته وشبابه، رغم أنه يكبرها بعشر سنوات وأكثر. وسيفقه، بدلاً من أن يفغر فاه منَ الدهشة، لماذا تحافظ الغربية على نضارة الروح ولياقة الجسد وشهوة الحياة، بينما تفتر همة النساء في بلاده وهن في ريعان الشباب، رغم أنهن يمضين بياض أيامهن في «التسلية»، كما يدعي المهرجون!.

حين سألت ذات صباح أم طه «من يتعب أكثر: الرجل أم المرأة»؟. صمتَت لحظة وقالت: «طبعًا، المرأة». قلت: «ويحك كيف تجرئين؟». قالت: «من يهد حيله في البيت، من يحرم نفسه من الراحة والنوم كي يربي العيال، من يحمل؟، من يرضع؟. من...؟».

تركتها تُعدد الشقاء ورحت أسجل على الورق، لحظة وعيي المتأخر بأن هؤلاء النساء اللائي أتحدث عنهن وأصف حياتهن، لسن غافلات إلى الحد الذي كنت أتوقع أو أتوهم، وإنما أنا التي كنت غافلة!.

وضع أم هاني ذكرني بوضع الشغالات اللائي كن يشتكين من بعض كفلائهن، حين كنَّ يُقمن في بيوتهم. بحيث تظل الواحدة منهن في الخدمة ورهن الإشارة على مدار الأربعَ والعشرين ساعة. وللكفيل الحق أن يوقظها من عز نومها، كي تحضر له القهوة أو كأس ماء، متى شاء. وهذا ما تقوم به مع زوجها وأولادها، إن لم يكن وضعها أسوأ، ما دامت تعمل عملهن دون أن تتقاضى عليه أجراً في آخر الشهر!.

لذلك كانت مريرة لحظة الاعتراف بأن أبناءها لا يحبونها إلا وهي واقفة تلبي طلباتهم وتطيع أوامرهم. وأن خوفهم عليها إن مرضت، إنما هو خوف على

مصلحتهم وعلى أنفسهم من أن يبقوا من دون سواعد خدومة. ناهيك عن زوجها الذي يعتبر مرضها كما لو كان جناية في حقه، إذا ما تعطلت آلتها الخدماتية. وإلا من سيصحو في الثانية صباحًا كي يطبخ له «المومبار»[1]؟. ومن يقشر له السمك ويقليه في الثالثة صباحًا؟.

أما إذا احتجت على أسلوب معاملتها كعبدة، رد عليها دون لف أو دوران: «هو أنت لزومك إيه في البيت، مش إنت هنا عشان تخدميني»؟. وكان أكبر دليل على أنه كانَ يعني ما يقول، هو تطليقها للمرَة الثانية، ليس بسبب خيانة زوجية، ولكن لما هو أكبر!؛ لأنها نسيت أن تبعث بقميصه إلى المكوجي! فكان أن حلف عليها بالطلاق إن هي ذهبت إلى العمل!. ولولا أنها جاءت تخبرني بما حدث لها وبإبلاغي عن غيابها في اليوم التالي، من أجل مراجعة زوجها لها عند المأذون، لظننت أنها تفتري على الرجل كذبًا!.

كنت أعتقد أن الوقوف في المطبخ في الثلث الأخير من الليل من أجل إطعام الزوج القادم من العمل أو السهر، هو من اختصاص أم هاني فقط، التي تشتكي لي يوميّا من قلة النوم. لكن زميلتها شرحت لي بأن حالة أم هاني عادية وشائعة في صفوف هؤلاء النساء، اللائي أعنيهن واللائي لاقتني الصدفة المحضة بهن. فقد أخبرتني بأنها هي أيضًا كانت تصحو في عز النوم، كي تسخن العشاء لزوجها القادم قبيل الفجر بساعة أو يزيد. ورغم أنها كانت وما زالت تحبه، إلا أنها كانت لا ترتاح ولا تهنأ بليلها ونومها، إلا حين كان يقضي الليل عند زوجته الأولى!.

فكاد يُغمى عليَّ للمرة السابعة في حياتي، حين علمت أن النساء، أيضًا، يستمتعن بالنوم والراحة، تمامًا مثل الرجال!!!.

لا شك أن النظرة السياحية لأوضاع هذه الفئة من النساء، في عالمنا العربي، والتي تقصدتُ ألا أنقل منها إلا ما يعتبر شائعًا وعاديًا ومقبولاً في ثقافتنا الاجتماعية، أنها ستكون قاصرة إذا ما تَسرَّعَتْ في اتهام الإسلام بضلوعه في شبهة اضطهاد هؤلاء النسوة، بدلاً من تسليط الضوء على أولئك الذين لم يألوا جهدًا في التأصيل لجذور

(١) المومبار: أمعاء الماشية، محشوة بالأرز والكبد وبعض التوابل.

ذهنية التحريف، في كل ما يمت بصلة إلى الاستئثار بالسلطة وإضعاف الآخر من أجل استعباده، سواء تعلق الأمر بالشأن السياسي، أي اضطهاد الخاصة للعامة، أو بعلاقة المرأة بالرجل. تلك العلاقة التي تخفي أكثر مما تظهر من صراعات وتطاحنات من أجل العدل والمساواة، أو من أجل إطالة عمر الاستبداد وفاءً لقول الشاعر العباسي: «إنما العاجز من لا يستبد». والعجز عار في جبين الذكورة!.

إن السائح العابر الذي لا يرى من الإسلام أو المسلمين سوى صوت المؤذن، ومطاردته من قبل باعة المصنوعات التقليدية بالغصب والاحتيال! أو وجوه النساء المكممة، أو أكوام الأوساخ هنا وهناك، حتى بالقرب من أبواب المساجد، لا يعنيه سوى أن يوفق بين الفكرة المسبقة عن الإسلام والمسلمين، وبين ما رآه بأم عينه؛ حتى يقول: «لقد كنت هناك ورأيت الإسلام عن قرب»!. مثلك تمامًا حين تذهب إلى باريس وتُسحر بجمالها وأنوارها وتقول: «لقد رأيت فرنسا والفرنسيين»!. لكنك، وكردة فعل انفعالية، قد تقول: «ومن يأبه لصورتي في عين الغربي؟». ولا شك أنك ستكون على حق. لكن، هل يمكن ألا تأبه أيضًا لانطباع بعض شقيقاتك، اللائي كوَّنَّ بدورهن فكرة مغلوطة عن الإسلام، وبالتحديد عن الناطقين باسمه، تمامًا مثل ذلك السائح المستعجل؟!.

حين سألت صديقتي التي تعيش في أحد البلدان الأوروبية، لأول مرة، إن كانت شاهدت حلقة الشيخ الفلاني على القناة الفلانية، فاجأتني بعدم متابعتها، رغم أني كنت قد ذكرتها بموعدها. لكنها في المرة الثانية، قالت لي صراحة: «اعذريني أنا لا أطيق سماع ذلك الشيخ!. فما سمعته يومًا إلا وهو ينصح الزوجات المسلمات بالصبر على ظلم أزواجهن المسلمين، إن أردن قصرًا بجوار أم موسى!!!. وأنا لو كنت سمعت كلامه، وصبرت على ظلم زوجي السابق، لكنت انتحرت أو ارتكبت سلسلة من المعاصي. وما كنت لأفوز لا بالعمر المديد ولا بجوار أم موسى في الجنة»!. ثم واصلت حديثها بعدما ضحكنا بطعم الكيوي واللارنج، قائلة: «لم أسمع قط لا هذا الشيخ ولا غيره، ينصح الأزواج المسلمين بالصبر على ظلم زوجاتهن، أو بمعاملتهن بالحسنى إذا كن في مزاج العادة الشهرية، أو كن مكتئبات لعشرات الأسباب، أو بالتزين لهن أو بإدخال السعادة على أنفسهن أو بالتحلي بأخلاق الرسول مع زوجاته

في التعامل معهن! . أمَا من أسلوب آخر للتعامل مع القوارير، غير الكسر والضرب والتهديد و الوعيد والردع والحبس؟ . أهكذا يكون الإمساك بالمعروف»؟ .

فما كلمت صديقتي بعد ذلك اليوم، لا عن المشايخ الأجلاء ولا عن برامج فتاوى على الهواء! .

سيكون من الإساءة بمكان، ألا أقَوِّمَ ظن من كان يعتقد بأن الله أنزل على صديقتي اللعنات، فصارت قردة أو ضفدعة، لقولها ذلك الكلام! . بل العكس هو ما حَصل! ، فقد أنعم الله عليها بزوج مسلم غربي، ترعرع ونشأ في بيئة تقول للذكر: «لا تضرب المرأة ولو بالوردة» . وقد حجّا بيت الله الحرام، ورزقهما الله ذرية حسنة وجميلة . وهما يعيشان في أحسن حال، يقولان لبعضهما البعض: «أنت حسنة الدنيا وطريقي إلى الجنة . . . بجوار أم موسى» .

هكذا تمت قصة صديقتي وبالخير عمت . لكن ما هكذا تنتهي كل قصة تتشابه مع بدايتها، خاصة إذا كانت بطلتها تعتقد بأن الله خلقها لتشقى! . والشقاء في قاموس النساء، هو: الإذلال والتجويع وتحمل ركلات الزوج، وإنهاك الجسد في خدمته، والخوف من غدره قبل غدر الزمان . بحيث تعتقد الواحدة منهن أن الله لن يرضى عنها إلا إذا كانت تعيسة، مقهورة، مظلومة، مرتعبة .

وهو شعور ينتاب كل مسلم يظن بأن عيشه في القهر والذل والفقر، هو قضاء وقدر، يحرم مواجهته! . لكنه بالنسبة لهؤلاء النساء المسلمات، هو أيضًا شعور ناتج عن الترعرع في ثقافة اجتماعية، تخلط ما بين شريعة القبيلة وشريعة الإسلام! . وأيضًا بين أهواء الناطقين باسم ثقافة لا تمنح الزوجة شهادة حسن السلوك، إلا إذا أفنت عمرها وجسدها في تلبية حاجيات الزوج، منذ الليلة الأولى حتى آخر ليلة! .

إن شعور هؤلاء النساء بالشقاء، ناتج أيضًا عن الثقافة التي لا تقدس الأم إلا إذا تقوس ظهرها، وظفرت شعرها بالشيب، وتهدمت أسنانها ، قبل الأوان . أي، حتى لا يبقى فيها شيء يسر الناظرين، بل حتى تنسى بأنها كانت في يوم من الأيام أنثى! . فإذا ما شاهدت في يوم من الأيام، حسناوات الڤيديو كليب، تساءلت إن كن حوريات أو جنيات، من شدة الفارق بينها وبينهن! . أي أن تقديس الأمومة في هذه الثقافة، هو تقديس للعذاب والعناء والاحتراق من أجل الزوج والأولاد والأحفاد!!!

فبئس الثقافة هي! ، إن كانت لا تسعد ولا تهنأ ولا تمنح الأم وسام الرضى، إلا إذا كانت جثة هامدة، أو قاب قوسين من الردى!.

كلا، ليس اللوم على الإسلام أو القرآن، الذي ما أنزله الله كي تشقى به النساء. ولا على أية ديانة وضعت أو أنزلت من أجل تحقيق العدالة والإنصاف بين الرجال والنساء. وإنما على أولئك الذين تحايلوا على المرأة وكادوا لها لصالح أهوائهم ومآربهم، منذ قرون خلت. متجاهلين الآيات الكريمة التي تنصف المرأة وتحافظ على كرامتها الحقة، ساكتين عن أخرى، كي لا تكشف للنساء تعاون أولئك الرجال على الإثم والعدوان ومعصية الرسول!. ولم يستبقوا من النصوص القرآنية، والأحاديث الشريفة المتداولة بين الناس، إلا ما يوافق أمانيهم، من خلال تحميلها تأويلات وتفسيرات، ليدافعوا بها عن شهواتهم الخاصة، بعدما أخرجوها من سياقها الصحيح وشوهوا معانيها. حتى أصبح السكوت عن الظلم والجور، هو عين الصواب ورأس الحكمة وطريق المفازة بالجنة!!!.

لقد بلغ الشطط مداه ببعضهم، وهو يعيش في كنف الإسلام، وفي ظلال السيرة النبوية العطرة؛ حين شبه عينة من طبائع النساء بطبائع بعض الحيوانات، مثل: الخنزيرة والقردة والحية والذئبة والحمارة والغنمة وغيرها من الحيوانات؛ محذرًا الملوك والأمراء وعلية القوم من الرجال، من مغبة المرأة الذكية، القوية، المجادلة، المعتدة بنفسها، المتمردة. أي التي تتقاطع طباعها مع طباع بعض الحيوانات السالفة الذكر!. لذلك نصحهم باختيار المرأة الغنمة، التي تتحلى بصفات الطاعة والخنوع والخضوع، مثل قدوتها ومثلها الأعلى: الغنمة!!!.

فهل كانت الصحابية الجليلة نسيبة بنت كعب الأنصارية، رضي الله عنها، التي بقيت وحدها تذود عن رسول الله ﷺ في ساحة القتال، بعدما انفض من حوله الرجال، هل كانت غنمة؟!. وهل كانت أسماء بنت أبي بكر الصديق، وخولة بنت الأزور وأم حكيم وهن يقاتلن في ساحة الجهاد بكل شجاعة وإقدام، هل كن غنمات وديعات؟!. وهل كانت غيرهن من الصحابيات الجليلات وبنات الرسول ﷺ وأمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، اللائي عرفن بقوة الشخصية وسداد الرأي ورجاحة العقل، هل كن غنمات مثلما أراد حجة الإسلام أن تكون سائر بنات ونساء المسلمين؟!.

الجاحظ أيضًا لم يكن جاهليًا، كي لا نُحمِّل القبيلة وحدها، أوزار النساء الشقيات! . ومع ذلك خالف أمر رسول الله ﷺ، حين شن حربًا ضروسًا على تعليم الفتيات والنساء المسلمات. ونصح الآباء بأن يبادروا إلى تجهيلهن حتى لا يصنعن ما كانت تصنعه الجاريات، اللائي كن يوظفن إتقانهن للكتابة والقراءة في كتابة رسائل العشق والغرام إلى الخلان! . فكن يراسلن هذا وذاك، بعدما ينسخن من الرسالة الواحدة ما يوازي عدد أصحابهن وخلانهن، من أجل مواعدتهم هنا أو هناك! . والعهدة على عمنا الجاحظ!!! .

هكذا وبناء على سوء الظن بالنوايا، حُرمت المسلمة من حقها في التعليم! . لا بل من حقها في عبادة الله؛ إذ كيف ستعبده وكيف ستطمع في جناته العلا، وهي تجهل قراءة كتاب الله ولا تفقه شيئًا في سنة رسول الله؟! . وهكذا انتشر الجهل والتجهيل في صفوف الإناث، انتشار النار في الهشيم، حتى صارت الكتابة والقراءة بالنسبة للمسلمة، وصمة عار في جبينها وشبهة لسمعتها!، بينما صار الجهل تاج شرفها والأمية أمارة عفتها !!! .

رغم خروج الجاحظ عن سنة رسول الله، لم يعارضه إمام مسجد، ولم يرفع صوتَه خطيبُ جُمعة، منددًا أو مستنكرًا جرمه في حق شقائق الرجال. ورغم أنهم يعلمون جميعًا أن «**طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**». ويعلمون أن رسول الله ﷺ أمرهم أن يأخذوا نصف دينهم عن الحميراء؛ أي عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، إلا أنهم سكتوا عن الحق، ما دام تجهيل الإناث وتقبيرهن، إن وأدًا أو حبسًا، سيمكنهم من الحكم عليهن غيابيًا بالأعمال الشاقة مدى الحياة: الخدمة والولادة والإمتاع. وكلها مهنٌ إن اجتمعت دفعة واحدة، أذْهَبت الفطنة والصحة والعقل! . وذلك من كيد الرجال، إن كيدهم أعظم!!! .

وهكذا صارت المرأة تُنكح لخدمتها واستعبادها، رغم أنها في الإسلام تُنكح لجمالها ومالها وحسبها ودينها! . وأصبحت النساء الأميات والجاهلات، يعتقدن بأن خدمة الزوج والذكور رُكن من أركان الإسلام! . وأنه واجب شرعي لا مفر منه، بحيث لو تمردن عليه، تنزلت عليهن لعنة الرحمن! . وهذا دليل آخر على أن المرأة هي الكائن المضطهد الوحيد الذي لا يعرف بأنه مضطهد! .

رغم أن النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة تفوح بعطر القيم والأخلاق والواجبات، التي يجب على الزوج الالتزام بها و التحلي بها، إذا ما أراد استحقاق حقوقه الزوجية. إلا أن أهواء «بعضهم» تحجب عن أعينهم كل الواجبات والالتزامات الشرعية، لينتقوا لأنفسهم ما لذ وطاب من النصوص التي تتوافق مع شهواتهم بغير حق واستحقاق. لذلك لن يسير معها سير الضعفاء، حين تكون محملة بالأولاد خارج البيت، وإنما سيتقدم عليها بأربع خطوات وهو يتمختر في دشداشته أو بنطاله، فيما ستتعثر زوجته في عباءتها وهي تحاول اللحاق به!.

ولن يستحضر الآية الكريمة: ﴿**وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾ [الإسراء: ٢٤]، حتى لا يتورط في مسؤولية تربية وتعليم أبنائه!، وحتى لا يضيع من جهده وطاقته وفراغه شيئًا. ليوكل مهمة التنشئة للأم، حتى لو كانت جاهلة أمية، وحتى لو كان متعلمًا فهُوما!.

كما سيزهد في أجر الصدقات، إذا كان الثمن هو البش في وجه زوجته، وكظم غيظه وضبط نفسه. وسيتجاهل الآية الكريمة التي تذكره بالرحمة والمودة الضرورية بين الزوجين، حتى لا يشاركها الضر والضراء. ولن يقتدي برسول الله ﷺ في خدمة نفسه بنفسه أو مساعدة أهله في أعمال البيت، حتى لا يتورط في مساعدتها واقتسام التعب معها!. لأنه لو فعل لعرف كيف تتهدم اللذات، وتنتكس الروح في أعمال تافهة، جاحدة: ما أن تبلغ كمالها، حتى يأتي عليها من يفسدها. فتضحى زوجته كالتي نقضوا غزلها!.

لن يتأسى برسول الله ﷺ في التلطف والرفق بزوجته؛ لأنه، لو فعل، لفهم معنى العياء، وفشلت ركبتاه وانقصم ظهره، من شدة الركض والنط وحمل الأثقال وإتلاف الأعصاب على مدار الساعة مع الأولاد، في النهي والأمر. وتبديد طاقة الانتباه في المخاطر المحدقة بهم في كل لحظة وحين. لو فعل، لكف عن تسخيف دورها وتحقير مجهودها العضلي!. وكيف يفعل وهو يتعمد إنكار فضلها عليه، فبالأحرى أن يمد لها يد العون والرحمة؟!.

كلا لن يفعل؛ لأن ثمن الاعتراف: الكف عن الذنب، وهو لا ينوي التوبة!.

لم أكن أبحث عن رافض للتوبة! . وإنما لقيته بالصدفة ذات صباح، وأنا أستقل سيارة أجرة من شارع طلعت حرب إلى حي المهندسين في القاهرة. حين قال لي السائق من تلقاء نفسه ومن دون «أي ضغط أو تأثير»! وقد أثر فيه سفر زوجته، بعدما وجد نفسه فجأة لا حول له ولا قوة، يطوف أرجاء البيت كالمشرد في الشوارع القاحلة، قال: «إحنا الرجالة بنعرف إنه الستات بيتعبوا أوي عشانا، بس إحنا ما بنعترفش وما بنقدرش!».

لكن الرجل الطيب اعترف بأنه لا يعترف! . ومع ذلك لن يعترف أمام زوجته، حتى إذا ما عادت منهكة من السفر، أخذته العزة بالإثم، وفرض عليها ما تسميه بعض النساء: «العقوبة الليلية»! .

قبل أن تخبرني أم الخير بحالها مع زوجها، قدمت لي بالحديث عن معاناة ابنتها مع زوجها، الذي لا يريد أن يفهم بأن لحظة الحنان ولحظة التواجد في الغرفة نفسها، رغم بكاء الرضيع ورغم ضوضاء البيت العامر بالأولاد! هي ما تنمي ما يسمى بالسكينة والمودة بين الزوجين. وليس إكراهها على المعاشرة الزوجية! أو الارتماء عليها كالبهيمة، حين تكون أغلى أمنية في حياتها هي الراحة والنوم بعد التعب! . لكن زوج ابنتها، الذي يخشى على نضوب معين شهوته، إن هو احترم جسد زوجته أو قاسمها التعب! ، لا يفهم سوى لغة البهائم، حتى لو كانت زوجته منهمكة في مهمة الرضاعة! .

أما حين تظن أنها سلمت من مطاردته الليلية، إذا ما تأخر عن موعد دخوله إلى البيت، وكادت أن تنام قريرة العين! ، فإنه يُدفعها ثمن «خطيئتها». وذلك بمداهمة غرفة النوم بكل قلة أدب، ليشعل الضوء عمدًا، حتى يوقظ الرضيعة النائمة، نكاية في زوجته الغالية! ، ولتفهم أن شهوته أغلى من الولد، وأنها إن تملصت أو تهربت من جديد، سيُسمعها كعادته، بالمختصر المفيد: «هو إنت هنا ليه؟». أي ذلك السؤال الذي يُذهب عن العلاقة الزوجية، متعتها الحسية، لتصبح مجرد عقوبة ليلية! . أما إذا كان هو متعبًا، فسيوهمها بأنه أعفاها منها رأفة بها!!! .

كان من الطبيعي أن أسألها لماذا لا تحتج ابنتها على بشاعة زوجها. فردت بكل انهزامية: «الرجالة كلهم كدة». قاطعتها مصححة: «لا، مش كلهم كدة»! . ثم

واصلت قائلة: «بل ماذا أفعل أنا أم السبعة عيال مع زوجي العاطل عن العمل، الذي إذا رفضته ليلاً، نكد علينا عيشتنا نهارًا. لدرجة أن العيال أنفسهم يقولون لي: «حوشي عنا جوزك وناوليه قرفه حتى يحل عنا»!!!.

لم يعد لغزًا ولا سرّا تَمسُّك هذه العينة من الأزواج، بممارسة طقوس الفراغ المقدس، ولم يعد غامضًا تاريخ التحايل على هؤلاء النساء، ولم يعد خفيّا على كل ذات لب بأن الصحة تاج فوق رأس الذكورة!...

لذلك، لا بد أن ينسى زوج أم الخير وأمثاله، شروط القوامة والمودة والرحمة بين الزوجين. ولا بد أن ينسى كل الأحاديث الشريفة الصحيحة التي تنهى الرجال عن الارتماء على زوجاتهم كالبهائم. ولا بد أن ينسى أن الرسول ﷺ مات وهو يوصي بالنساء خيرًا. ليستبقي منها حديثًا واحدًا: «**إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها، باتت تلعنها الملائكة**». هذا الحديث الذي سيصبح ورقة حمراء يشهرها في وجه زوجته، كلما احتجت على عقوبته الليلية!. بينما لن تفهم زوجته المسلمة لماذا تترصدها لعنة الملائكة، إذا كان بعلها المسلم هو من يقضي بياض أيامه وعمره في الفراغ والراحة، وهو من يستنزف طاقتها، كيلا يفضح حدود إمكانياته الجسدية، وهو من يهدم اللذة في نفسها، حتى يحرجها بلعنة الملائكة!!!.

كذبة هي الفحولة إذا كانت على حساب صحة النساء!. عار هو الباه إذا كان لا ينضح إلا على حساب استنزاف طاقة الزوجة!. زائفة هي الذكورة إذا كانت لا تضمن ماء وجهها إلا على حساب أنثى مضطهدة!. معيبة هي العضلات إذا كانت لا تنتصب إلا فوق ظهور النساء المنكسرة!!!.

***

٢/ ٣/ ٢٠٠٥م

تقول لي نوران

تقول لي من علمتني أن الأنوثة كبرياء وجلال، وأن أجمل فتاة في العالم ليست «باربي» أو تابعتها «فلة»، وإنما من تشعر بداخلها أنها مكتفية بذاتها، واثقة من نفسها، مستغنية عن الثناء. سلطانة، لا جارية مجبرة على إجادة الألاعيب والأفانين كي يرضى عنها سيدها!.

تقول لي: لا تقولي نوران وإنما قولي بنتي. قوليها كي أزداد غروراً ودلالاً. وإياك أن تلبسيني ملابس الأولاد، فالبنت تكون أفضل وأجمل من الولد، إذا كانت بنتًا. والولد يكون أفضل من البنت، إذا كان ولداً. وتكون أقل منه شأنًا إذا حاولت أن تكون مثله. ويكون أقل منها شأنًا إذا حاول أن يتأنث.

تقول لي بنتي الحبيبة: ألبسيني قفطانين جميلين يتمختران بي، الأول بلون الحليب، والثاني بلون الربيع. زيني الحزام الذهبي المرصع بالجواهر، بخصري النحيل. جملي تاج الياقوت والزمرد برأسي. أرسمي ورود الحناء فوق حرير أناملي، وانثري الخواتم الماسية حيثما شئت ذات اليمين وذات اليسار.

ألبسيني الفساتين والتنورات. ضعي الفراشات والورود والقلوب النابضة بحبي فوق شعري. ثم قولي: «أحبك يا أجمل بنت في العالم»؛ كي أزداد دلالاً وإشراقًا.

قبليني حتى لو تمنعت، يعجبني إصرارك على انتزاع القبلات من خدي الوردي. لكن لا تطلبي مني أن أبدد طاقتي في رد قبلاتك، فإن حظيت بواحدة مني بعد ألف منك، فهي خير وبركة!. فأنا أمشي على إيقاعي الخاص، أقبلك متى أشاء. ولكن لا تنسي أن ترددي ما قلته لي ذات صباح: «فمك حين يقبلني، وردٌ أو لؤلؤٌ يتفتح..»!. زيديني قبلاً وشعرًا، فهذا لا يزعجني كثيرًا!.

تقول لي الحبيبة سأعض الأشياء من حولي، كل ما وقع بين يدي. أسنان الحليب تنمو فتؤلمني، فاصبري على آلامي وواسيني.

سأشاكسك وأنا أهددك بوضع المناديل الورقية في فمي، فقط كي تقولي لي بنبرة جادة وطيبة في الوقت نفسه: «نوارن، لا نوران، خطأ أو خطر» وأنا أضحاااااااك!.

عيشي معي لحظاتي.. أنظري إلى الكون بعيني. تساءلي مثلي. تفاجئي، اندهشي. خذي وقتك وعيشي معي من جديد. هذه فرصتك كي تعودي إلى الطفولة بصحبتي. حسي بالأشياء وكأنك ترينها لأول مرة. إبقي معي، وأنصتي لما أقول. لكن لا تقولي: تكلمي حتى أفهمك؛ لأنك تفهميني.

علميني كيف أستنشق الهواء أمام نافذة المطبخ. علميني كيف أقف في وجه الريح، كيف أفرح به وهو يُطير شعري، كيف أغمض عيني. علميني الضحك، إجلسي بقربي، وتفرجي معي على الرسوم المتحركة، لنضحك على كل شيء. علميني باي باي، وصوت الأذان. وأصوات العصافير والطائرات والسيارات. تعجبني كثيراً بيبب.. بيبب... تضحكني. لا أمل منها.

فسري لي لماذا تهتز أوراق الشجرة الصفراء قرب مكيف الهواء. لماذا تسكن تارة وتتحرك تارة أخرى؟. ولماذا أخاف من ملامسة أوراقها حين تُقربينني منها؟. علميني كيف أهزأ من الأصوات التي تخيفني. كيف أهزأ من الخوف!. لكن لو خفت من صوت الغسالة لا تضحكي عليَّ. ولكن ضميني إليك وخذيني إليها لأتعرف عليها، نسلم عليها، نضحك معها. فإذا أصدرت الصوت نفسه ضحكت عليها؛ لأنني كنت أظن أنها قادرة على إيذائي!.

سآكل على مهل، وألعب، وأضحك ثم أواصل أكلي. فلا تفقدي صبرك معي. حين أصيح بأعلى صوتي: فمعنى ذلك أني أحاول أن أتعرف على صوتي، نبراتي، إمكانياتي. لو عشت معي بحب وتفانٍ ستفهمين لغتي، لن تنتظري الجنة حتى تفهمي لغة الرضع الصغار!.

إبتهجي بشروقي في الصباح. تضحكني كلمة: «بونجور» بالفرنسية. وأيضًا «آتشي» حين أعطس. غني لي «يا خواتي بحبها» وشدي على «تيييييييي» حتى أضحاااااك!.

إذا التفتُ بوجهي ورأسي إلى شيء، التفتي أنت أيضًا. توقفي واسألي مثلي. إذا أشرت بيدي نحو القطة أو الشجرة، فذلك لأنني أتعرف عليها لأول مرة، أو أني أستلطفها وأريد السلام عليها. كوني مرآتي، مسجلتي، إياك أن تملي مني.

جميلة لحظة التطيب بالعطر والمسك بعد الحمام، صرتُ أنتظرها بشوق. دربي عندي حاسة الشم واللمس. احمليني إلى المطبخ، عرفيني على رائحة الزنجبيل، وماء الزهر، والكمون والكيوي. تجولي بي في الصالون لنرى أشكال الثريا وألوان اللوحات التشكيلية المعلقة هنا وهناك: حصان، قلعة، بحر، صومعة، أشجار، غابة. سماء، شمس، قمر، ورد، سجادة، برج القاهرة، ماسبيرو، كل ما تطل عليه شقتنا، أريد أن أعرفه.

كانت ابنتي الحبيبة تعرف كل هذه العلوم وهي لا تزال في شهرها السادس!. تضع قدمها في فمها وهي ترضع، أو تمسك برجلها ضاربة عرض «الحائط» أصول الآداب واللياقة!. وهي مطمئنة ومتأكدة من أن ماما لن تزعل منها، بل ستشجعها على الدلع أكثر وأكثر. فتتمادى لتضرب خبط عشواء عيني، وجهي، رأسي، بطني. ثم تتوقف فجأة، كي تتحقق إن كنت معها قلبًا وقالبًا، فأضمها من جديد وأقول لها: «نيني حبيبة، نيني». ثم تواصل رضعتها بعدما تكون قد أنهكت جسدها بالتقلب ذات اليمين وذات اليسار. وأكون أنا خلالها، قد انهلت عليها بسلسلة من الدغدغات، فتبدو ضحكاتها الصاخبة، وكأنها ضحكات طفلة في سن الثالثة. وتكون مناسبة أيضًا كي ترفع رأسها إلى أعلى السقف، لتنظر من جديد إلى نقط المكيف المضيئة بألوانها الصفراء والحمراء والخضراء.

وحين تنام، أنام على جانبي. أراقب وجهها الغالي وأستغرب كيف تبدو كبيرة مثل طفلة «ناضجة»، بينما تبدو صغيرة جدّا في الزحام، حين تكون واضعة رأسها فوق كتف والدها. أقبلها فوق أنفها أو حيثما اتفق، لا يهم، كلها قبلة!. أقَرب رأسي من رأسها، تمامًا مثلما كنت أفعل مع «مينو» حين كنت صغيرة. أتملى في قسمات وجهها المليح، وهي تدفع أحيانًا، بشفتها السفلى إلى الأمام، فتبدو جادة وقورة وهي لا تزال رضيعة!. ثم أقول لها وهي مستغرقة في النوم: تالله إن حلاوتك حلوة!. تالله أنت أحلى من مينو ألف مرة!. ما كان يستأهل نوحي وبكائي عليه في عز الليل، فوق

السطوح الماطرة والصبحيات الباردة، كي يعود إلى الديار. وأنا أصيح: «أسيدي مينو، إرجع، يالحبيب، إرجع يا الغالي». فيضحك جارنا، يرحمه الله، من حب الصغار. ويقول لي مازحًا، ناصحًا، لاهيًا بصبابتي: «لم لا تُبلغين عنه في ركن المتغيبين بإذاعة فاس؟!». فأعرض عن الجاهلين، بعدما كنت أظن أنه سيقدم لي نصيحة تعيد إليَّ قطي الغالي. وفي رواية أخرى، يغني لي مقطعًا من أغنية الحاج محمد العنقا: «الحمام اللي والفتُه مشى عليَّ». فأرد عليه متحدية، واثقة من عودة الغالي: «لكن مينو سيعود»!.

ثم أعود إلى تقبيلها، نكاية في ذلك المخلوق العابث، الذي ما كان يستحق فيض مشاعري. وأقول لها: «أنت من يستحق حبي، على الأقل، أنت لا تهددينني بالرحيل والغياب المفاجئ مثله».

فأحمد الله وأسبحه الذي أودع في الأطفال الرضع كل هذه الفتنة والوداعة، والسحر، فقط كي يسعدنا ويخفف عنا تعب رعايتهم، وينسينا عناء الشهور الأولى. وإلا لما اشتقت إليها، وهي دمية، بالكاد تحرك رأسها، حتى صرت أخشى أن تكبر بسرعة!.

ثم أحمد الله وأسبحه في حلاوتها وطعامتها، على لطفه وحسن بديعه الذي سوى هذه الفاتنة المذهلة، التي لولاها لما فهمت معنى زينة الحياة، ولما رددت ما قاله الشيخ لمريده: «ما كنت أعلم أن للروح نسبًا»!..

***

٢٩/ ٤/ ٢٠٠٥م

لندن المصير

بأمر طبي صارم، لزمت نعمة الفراش حتى تُشفى قدمها، بعد أن داهمتها سيارة أجرة عمياء. وتوعدها بالبتر خطأ طبي، لم يتعمد أن يضع الجبيرة فوق الجرح المفتوح! . فكان هذا سبب غيابها لمدة شهرين. أما غياب الشغالة الجديدة منذ أزيد من عشرة أيام ، فلا أعلمه. لذلك كان السفر إلى لندن لمرافقة زوجي في مهمة عمل، فرصة للاستراحة من أعمال البيت! . لكني منذ غادرت القاهرة، لم أنس لحظة واحدة أني أترقب خبر شفائها بشوق كبير.

كان من حسن حظي أن رأيت لندن في شهر ميلادي، إبريل، حيث تتوالى الفصول الأربعة في يوم واحد، وهكذا تمكنت من رؤية السيدة ذات الرداء الرمادي، مرتدية ألوانًا فاتحة زادتها تألقًا ونضارة.

لندن في حد ذاتها تحفة أو متحف مفتوح. تكاد لا تضاهيها مدينة في عراقتها المتحضرة، وفنها المتجذر، ونظامها المتأصل. وقد أكون مبالغة، والسبب عشقي المبكر لها، منذ افتتاني بصورة الزي التقليدي الأحمر للحرس الملكي، فوق إحدى علب الشوكولاته! . أي قبل حتى أن أستمتع بنصوص شكسبير المسرحية، أو أن أحزن على الأميرة التي ماتت، لتَحيا من بعدها قصة حب، كادت أن تموت مستحيلة.

بعد اقتناص ما كان بالإمكان اقتناصه من وقت زوجي الثمين، لرؤية النزر القليل من معالمها الأثرية، والتجوال في أحيائها التاريخية. وبعد انتهاء «ضيافة النبي» كما نقول في المغرب، والتي لا يجب أن تتعدى ثلاثة أيام! ، وجدتني في إحدى غرف فندق هيلتون كينسينغتون، أنتظر تارة وأنظر تارة أخرى، عبر أغصان الشجرة العملاقة وهي تعانق نافذة الغرفة، إلى الحافلات الحمراء الصاعدة إلى السماء، وهي تمخر عباب الغمام الرمادي، وإلى قناديل الشارع الموقدة في صبح الضباب، وهي تضيء خطوات قوم لا يرون الشمس إلا قليلاً ! .

أمضي الوقت في التحايل على ابنتي التي كلَّت من الغرفة، وفي البحث عن الحلول السريعة، إذا ما استَيْقَظْت من النوم وملابسها لا تزال مبللة في حوض الحمام؛ وإذا ما رفضت أكل المعلبات من جديد، في غياب المطبخ والأكل الصحي، الذي أصبح مكملاً رئيسيّا للرضاعة. وحتى حين أمضي ساعتين استعداداً للخروج من أجل الترويح عنها، ليس لأني من هواة وضع المساحيق وتسريح الشعر عند الحلاق، ولكن لأن مزاجها لا يسمح إلا لفعل ما تمليه عليها رغبتها اللحظية، أحتار كيف أحميها من البرد المفاجئ وحبات المطر الثقيلة؟. كيف أسير بدون يدين، في مدينة أجهل السير فيها؟!. وهل هذا وقت التعود على السيارات الآتية جهة اليسار، وابنتي على وشك البكاء إما من العياء أو البلل أو الجوع؟!.

ماذا أفعل حتى وأنا جالسة تحت ظل شجرة مورقة، وكأنني في أرذل العمر أحن إلى أزهر العمر؟. أية حكمة هذه التي ستتنزل عليَّ وأنا أرى الناس يعملون، يسرعون، منهمكين، فيما أنا عاطلة، لا عمل لي سوى الرد على ابتسامة النساء لابنتي الصغيرة؟. وماذا يمكن أن أستنتج من حياة الناس الخارجية، سوى أن الرجال يعيشون في جهة والنساء في جهة أخرى؟. ما دوري؟. ما نفعي؟. ما أنا؟...

في لندن، سألت عن المصير، عن الهوية، بعدما تأكدت أن مشكلتي الحقيقية هي أنه لا أحد يستطيع أن يعيد لي الثقة بنفسي إلا نفسي!.

هنا، تتقرر المصائر. تتحرك الضمائر. يُطرح السؤال: أكون أو لا أكون؟. لم أتُهْ يومًا في البحث عن هويتي. لم أسأل: من أنا؟. لأني كنت إما أدرس أو أعمل. لقد كانت إنجازاتي هويتي. وحين تَوَقَّفَتْ، أمسيتُ بلا هوية، بلا وجه أواجه به الوجوه وجهًا لوجه!.

تكشفت لي هذه الحقيقة البسيطة والعميقة، حين هممت بالاتصال بأحد المبدعين المقيمين في لندن، ثم تراجعت لحظة لأسأل نفسي: «من أنت التي تتصلين به؟. هل لديك اسم آخر غير اسمك الشخصي كي تُعَرفي بنفسك، إذا نسي صوتك أو اسمك؟. أم هل ستقولين له: «أنا فلانة صاحبة برنامج.. الذي كان..؟». كان؟، أليس كذلك؟. هذا يعني أن هويتك القديمة لم تعد صالحة للاستهلاك!. أوقفي هذا

الاتصال فوراً، وابحثي لنفسك عن هوية جديدة. ثم أقرئيه السلام بعد ذلك، إن شئت!».

مباشرة بعد المونولوج السريع، فهمت بعد مضي سنة وتسعة أشهر، أي منذ قررت أن ألوذ بالصمت والكبرياء، أنني كنت في واقع الأمر أبحث عن هوية جديدة تقدمني للناس. لذلك انغلقت واعتزلت، ريثما أنشأ نشأة أخرى. وقررت ألا أعود إلى الحياة الاجتماعية والعملية، إلا وأنا أحملُ هوية، لا تنتهي مدة صلاحيتها مع انتهاء المواسم!..

في لندن أيضًا، ازددت قناعة بأني على حق، ولو كره الكارهون، أو المرتاحون!. وذلك بعدما قادتني الصدفة والجلوس المطول في الغرفة لعدة ساعات، إلى مشاهدة برنامج «مامس أون سترايْك» على إحدى قنوات «بي بي سي»؛ أي: «أمهات مضربات عن العمل». وهو برنامج يسلط الضوء على تعب الزوجة البريطانية، أثناء قيامها بأعمال الطبخ ورعاية الأولاد. هذا مع العلم أن الزوج البريطاني، لا يتقمص دور سي السيد بنسبة خمسين في المائة!. والهدف من البرنامج هو تحسيس الزوج بأهمية دور الزوجة، والاعتراف بفضلها عليه وعلى الأسرة. وهذا ما كنت أحاول أن أصل إليه فيما سلف، حتى لا يبقى عمل الزوجة داخل البيت، واجبًا عليها وإنما تفضلاً وتكرمًا منها.

والبرنامج قَصَد أن يختار نماذجه من الأزواج الذين يتركون بعض مسؤوليات أعمال البيت إلى زوجاتهم، على غير عادة الأزواج الغربيين، لذلك يمنح البرنامج للزوجة إجازة لمدة ثلاث ليال، تقيم خلالها في أفخم الفنادق. ولكن على أن تبقى على اطلاع بما يدور في بيتها. بحيث تستطيع أن تشاهد أسرتها على مدى أربع وعشرين ساعة، وهي مسترخية في غرفتها بالفندق، تحتسي مشروبًا روحيًا أو حليبًا بالشوكولاته!. وفي غياب الزوجة، يوكل إلى الزوج القيام بمعظم المهمات التي كانت تقوم بها زوجته، من طبخ وتنظيف، ومراجعة الدروس مع الأولاد، وتوصيلهم إلى المدرسة، ومرافقتهم عند الحلاق، والترفيه عنهم في الملاهي.. إلخ.

ومثلما كنت أتخيل حالة الزوج إذا ما قام بكل الأعمال المتلفة للذة الحياة والصحة، كان الأزواج يعلنون إفلاسهم، الواحد تلو الآخر، بحيث كنا نراهم يسندون ظهورهم

إلى جدران البيت من أثر الإرهاق والإجهاد، فما أن يأتي الليل حتى ينام معظمهم بملابس يومهم! . وحين تعود زوجاتهم عودة البطلات، يخجل الأزواج من تعب الزوجات، معترفين لهن بأن ما يقمن به، يفوق الجهد الذي كانوا يتخيلونه؛ قبل أن يخوضوا التجربة بكاملها. وذلك هو بيت القصيد وأضعف الإيمان! .

عذرتني لندن حين شعرت بالضيق فيها بما رحبت، خاصة بعدما علمت من أم نعمة أن الطبيب سمح لها بالعودة إلى العمل! . وهذا هو النبأ الذي كنت أنتظره لأقطع «الإجازة» وأواصل الكتابة.

فَهم زوجي أني لا أستطيع أن أعيش بدون إنجاز. وفهمتُ أنْ لا شيء غير الكتابة يمكن أن يُعيد لصوتي النبرة الحية. بعدما أصبحت هوائي وشفائي، مصيري وبدايتي الثانية، بعد ولادة ابنتي. وأني بدونها سأواصل الاعتزال والعجز عن تذوق الجمال.

هذا ما كنت أحسه في القاهرة ولم أجرؤ على قوله إلا في لندن! . فكان قرار العودة إلى القاهرة، ليس من أجل الكتابة فقط، ولكن من أجل نوران التي لا تقبل بغير نعمة جليسة لها. وأنا لا أستطيع أن أكتب وهي تبكي. لذلك لم يكن الحل في لندن ولا في المغرب، ولا حتى في القاهرة ولكن في يد من ترضى عنها ابنتي! .

مثل الذِّكر الذي لا يعرف المؤمن كم مرة ردده طوال السنة، كان سؤالي: «أكتب أم لا أكتب؟». أما السؤال الذي نزع عني السكينة وأنا أحلق فوق سماء القاهرة: هل ستبتسم في وجهها أم ستبكي؟. أما زالت تذكرها أم نسيتها؟. . . قولي لي يا حبيبتي الصغيرة، ماذا ستقررين؟. . .

***

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الاختبار	٧
استكبار	١٠
حامل بتوأم	١٤
الباقيات الصالحات	١٧
الكتاب المحتال	٢٠
الخطيئة والحقيقة	٢٤
قوة الاستنباط	٢٨
الكابوس	٣٢
الوحم	٣٥
شهرزاد الإنسية	٣٨
كتاب النصائح	٤٧
المستشفى	٥٠
مكان آمن للمشي	٥٤
أوان الأمومة	٥٧
نظرية الصراصير!	٦١
ثورة الإعلام العربي!	٦٥
الصورة والصورة الأخرى	٧١
١٥ إبريل	٧٦
الإغماءة	٨١
البحث عن المعلومة!	٨٥
البشرى	٩٠
أقواس الفرح	٩٤
الهلال التاسع	٩٧
من تكون قابلتي؟	١٠٠
خطوات التواصل	١٠٤
آخر الصور	١٠٩
نهاية مرحلة	١١٣
٢٢ يونيو ٢٠٠٤م	١١٨
عيادة المريض!	١٢٤
الرضاعة	١٢٩
أبجدية الأمومة	١٣٤
باب الأمل	١٣٧
المتغيرات	١٤١
الواقع والخيال	١٤٤
يحيا العمل!	١٤٨
جنون الليل	١٥٢
اختطاف	١٥٧
تجليات الكركبة	١٦١
لا وقت للحنين	١٦٦
لغز سميراميس	١٧٠
حب الصغار	١٧٧
شيء كالمرآة	١٨١
وصية جدتي	١٨٤
الضمير المنفصل	١٨٩
سر الخلود	١٩٤
تاء التوفيق	٢٠٢
شرف الإطاحة بالشرف	٢٠٨
الفراغ المقدس	٢١٣
لعنة الملائكة	٢١٩
تقول لي نوران	٢٣١
لندن المصير	٢٣٥